التعريف بالإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بالقاهرة

جمال الدين الأفغاني

تاريخه ورسالته ومبادئه

تأليف الأستاذ
محمود أبو رية



الكتاب الحادي والثلاثون
١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

"لقد خصصت الشرق الشرق جهاز دماغي

لتشخيص دائه وتحري دوائه"

"جمال الدين"

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم العلامة المحقق الأستاذ الجليل

الشيخ أحمد حسن الباقوري

مدير جامعة الأزهر

جمعني مجلس مع أخي المفضال أحمد عبده الشرباصي نائب رئيس الوزراء ، وكانت الخصيصة البارزة لهذا المجلس تتمثل في حديث صاحب عن السيد جمال الدين الأفغاني ، وكان مسعر الحديث في مجلسنا هذا هو الشيخ العالم البحاثة محمود أبو رية ، والشيخ أبو رية مريد عاشق من مريدي جمال الدين وعشاقه ، وله في الحديث عنه ، وعن مدرسته أسلوب فارد لا ثاني معه ، ولا مؤنس لطريقه ، فاذا تحدث عن جمال الدين أو محمد عبده ، أو عن منتسب الى تلك المدرسة ومتأثر بها ، تحدث حديثا عجبا يشتعل حماسة ، ويفيض حمية ، حتى لكأنه يبعث في الماضي الدفين حياة تقفه على قدمين ، وهو يصارع حاضرا هزيلا ماثلا في أحياء هم أشبه بالموتى ، وقد شاءت المقادير أن تحلهم محال جمال الدين ومحمد عبده ، وألقت اليهم مقاليد مهام عظيمة لا يقوم لها الا الأحياء الأكفاء .

ومضى أخي الشرباصي ، ومضيت معه نصغي الى حديث الشيخ أبو رية ، وهو يهدر في حديثه عن جمال الدين ، وفي صوته نغمة أسف بالغ ، وعلى وجهه سمة جد صارم ، وبين جوانحه غيرة لا يستطيع غيره انشاء تلك النغمة الأسوف ، ولا بعث ذلك الجد الصارم .

وأشهد أنني لم أفقه الا تلك الساعة قول الله عز وجل عن ابراهيم « رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين . واجعل لي لسان صدق في

الآخرين » ، فان المرء الصالح بعد أن يمضى الى لقاء الله محتاج الى الصديق أو التلميذ أو المريد ليحمل عنه دعوته ، ثم ليدفع عنه أيضا قالة السوء والحقدة على كل ذى ذكر نابه ، أوجاه عريض .

ولئن كان الله تعالى قد استجاب لابراهيم دعوته ، فقد كانت تلك سنة من سنن الله الماضية الى أبد الآباد ، لا يشذ عنها فرد ، ولا يتخلف بها عصر ، فكل راغب الى الله سبحانه أن يجعل له ذكرا حسنا فى لسان صدق بعد أن يمضى الى الله ، مدرك غايته ، وظافر بحاجته ، اذا سلك الطريق المستقيم ، ولاحظته من الله تعالى عناية ، وجمال الدين مصداق تلك السنة الالهية التى لا تتخلف . فقد سخر الله تعالى له من يدفع عنه ، ويتحمس له أكثر وأشد مما كان جمال الدين نفسه يدفع عن نفسه ، ويتحمس لنفسه ، ومن قبل ومن بعد ، لا ريب فى أن الله تعالى مسخر لجمال الدين ولكل ذى مذهب صالح صادق من يكون لسان صدق فى الدفاع والاقناع ، فاذا جمال الدين ملء الاسماع ، ومشتهى الأبصار ، ثم اذا هو بعد أن ضمه القبر سبعين حجة أو تزيد ، أعلى قدرا وارفع ذكرا ، وأجل جلالا ، وأعظم هيبة مما كان بين جلسائه من تلامذة ومريدين .

وان من الناس ناسا يموتون ليموتوا ، فلا يبقى لهم أثر ، ولا يستعلن لهم ذكر ، الا أن يضافوا الى ملك كبير ، أو زعيم خطير كما يضاف العبد الى سيده والخادم الى مخدومه .. ومن الناس ناس يموتون ليحيوا ، فاذا هم ملء الاسماع خبرا ، وملء الأبصار أثرا ، وملء القلوب ذكرا ، فالناس أبدا يتلفتون اليهم كلما جزبهم أمر من الأمور ، أو أرهقتهم حاجة ملحاح من حاجات الحياة .

والامام جمال الدين من أولئك الزعماء الفاردين بالفضل بين الناس ، تزيدهم الأيام فى موتهم حياة ، وفى تقادمهم جدة ، وحاجة المجتمع اليه لا يشتد هتافها به ولا تمنيها له ، من حيث انه أعلم العلماء — وان كان أعلم العلماء — ولا من حيث انه أفقه المتقين — وان كان أفقه المتقين — ولكن لأنه كان رجلا منطلق الفكر بين طبيعة الحياة وحقيقة الدين ، وهو مع ذلك يحب أن يجمع بقدر ما يكره أن يفرق ، ويحب أن يتسامح بقدر ما يبغض أن

يتعصب ، لأنه يعلم عن يقين واع دارس أ نالدين ثمرة نصوص ، والنصوص قابلة للتأويل ، كما يعلم ان الناس حصيلة عقول ، والعقول مختلفة الادراك ، فلابد من أن يختلف أهل العلم ، ولابد للناس أن ينتفعوا بهذا الاختلاف ، وما دامت قضايا الدين الكلية آمنة من التحريف ، ومصونة من الاستغلال لآحاد فى الشعوب ضد مصالح الشعـوب ، فلا مناص من ترك الحـرية الفكرية تعمل عملها فى المجال الانسانى من حيث كانت جزءا لا يتجزأ من طبيعة الانسان .

ومن هنا لم يؤثر عن جمال الدين أنه عنى بسفساف من الأمور ، ولا وقف عند تافه من الشئون التى تقف عندها وتسبح بحمدها دائمـا صغار العقول .. ولعل ذلك كان من اسرار تشامخ زعامته فى وقت قصير ، فان التاريخ الانسانى لا يعرف زعيم فكر انقـادت له عواطف الناس ، وجرت خلفه آمالهم وأحلامهم الا وهو أحد قومه بصرا بما يلوح للعيون ، وأوسعهم علما بما يختلج فى الصدور ، وأشدهم قدرة على أن يمهد لقواعد الاصلاح سبيل مواءمتها طبيعة العصر الذى يراد لها أن تحيا فيه ، وتبسط سلطانها عليه ، مهما تكن قواعد الاصلاح هذه مصنوعة أو مأثورة ، وموضوعة أو منقولة ، فان الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم وأمهاتهم .

تلك فى رأيى أولى خصائص جمال الدين يراها الناس له ، أو يتحاجون عليها فيه ، وثانية أوثرها لنفسى فيه ، ولا أحاول اقامة دليل عليها ، لأنها أمر يتصل بالقلب أكثر مما يتصل بالعقل ، وينتصر بالاحساس النفسى أكثر مما ينتصر بالبيان المنطقى .. وهى أننى كلما أحببت أن أتخيل وجه رسول الله صلوات الله عليه وجدت أول الطريق الى هذا الخيال الجميل فى وجه السيد جمال الدين .. وكنت أول ما وقع فى نفسى هذا الخاطر عاجزا عن التماس مسوغ للمضىفى هذا التصور والجمع بين وجه السيد وبين الوجه الكريم ، وجه سيد الناس عليه الصلاة والسلام . وما زال ذلك دأبى حتى رأيت فى كتب السنة أن الحسن والحسين كان كل منهما يشبه رسول الله عليه السلام، وكان الحسن يشبه فى أعلى جسده والحسين يشبه فى أدنى جسده ، ولمـا كان السيد جمال الدين حسينيا لم يكن غريبا أن تمنحه العناية الالهية وسنة

الله فى الوارثة شيئا من ملامح رسول الله عن طريق جده الحسين رضى الله عنه ، وأن يكون وجهه معبرا صالحا وقريب المدى لتخيل وجه محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ولئن كان الله تعالى قد منح جمال الدين هذا الوجه النبيل الذى تتجلى فيه هيبة آبائه وأجداده فلا يملك المرء ان يملأ عينه منه ، لقد منحته عناية الله أيضا خلقا رفيعا يحب معالى الأمور ، ويكره سفسافها ، وقد أعانه الله تعالى بما يجعل أعباء المجد خفيفة على كتفيه ، فلم تكن له زوجة ولم يكن له ولد ، فاستطاع بذلك ، وبهمة عالية ، ونظرة الى الحياة صائبة ، وفقه بدين الله بعيد الأطراف ، ورغبة فى انصاف الشعوب الاسلامية وانقاذها من استبداد الملوك والأباطرة والخلفاء ، استطاع بذلك كله ومن ورائه عناية الله تهديه وترعاه أن يصنع للأمة خيرا عظيما وان يفتح لها الى الحرية والاستنارة بابا وسيعا .

رحمه الله رحمة واسعة ، وجعل منه سلفا لأخلاف صالحين ينهجون نهجه ، ويسيرون الى غايته ، وأثاب الكاتب الجليل الشيخ محمود أبو رية أجزل الثواب بما أسهر ليله ، وأتعب نهاره ، فى شئون العلم والتراجم ، وهدانا جميعا سواء السبيل .

أحمد حسن الباقوري

فى سابع رمضان سنة ١٣٨٥ هـ

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٦٥ م

للحقيقة والتاريخ

كان مما جرى به تيار الحديث الذى انبثق من بين شقى قلم العلامة المحقق الشيخ أحمد حسن الباقورى ، وانساب عذبا سائغا يترقرق فى كلمته الرائعة التى قدم بها كتابنا عن السيد جمال الدين الأفغانى ، وقرأت نصها آنفا ان ذكرت أن لدى مسودات لكتاب جامع لتاريخ هذا المصلح العظيم ، وانى فى طريق طبعه ، وما كاد السيد نائب رئيس الوزراء الرجل العالم الصالح أحمد عبده الشرباصى يعرف ذلك منى ، حتى أشرق وجهه ولاحت عليـه أريحية السرور ، ولم يلبث أن قال بلهجته الصريحة الحازمة : ان المجلس الأعلى للشئون الاسلامية أولى به أن يتولى طبع هذ االكـتاب ونشره فى جميع البلاد الاسلامية ، والتفت الى الأستاذ الفاضل محمد توفيق عويضة السكرتير العام لهذا المجلس والمشرف العام على طبع ونشر كل ما يصدر عنه من مطبوعات وطلب منه أن يقدمه للطبع ، وكان سيادته حاضرا هذا الحديث . فأحسست دبيب السرور يشيع فى نفسى على ما نال كتابى من عناية وتقدير وسارعت الى أن أقول للسيد نائب رئيس الوزراء : حبذا لو عززتم هذا الفضـل بأن تقـدموا هـذا الكتاب للناس بكلمة من كلماتكـم القيمة ! فكـان جـوابه — حفظه الله — ان هـذا التقديم لمن شـأن عالمنا الشـيخ الباقورى — اذ هو بما يعرف من تاريخ السيد جمال الدين وعلمه وفضله وجهاده يكون أهلا لهذا الأمر ، وأجدر به ، وأقدر عليه ، فأشرق وجه الشيخ وماد بعطفيه السرور ، وما لبث أن أنشأ هذه الكلمة الجامعة التى صيغت بأسلوبه الرشيق الممتع — وكانت آية من آيات البلاغة والحكمة ، ولم يلم بنا ريب فى انه قد ألهم معانيه ؛ وأن روح السيد جمال الدين قد أمدته بنورها وهو يحبرها ، وبحسبها فضلا وقدرا أنها جاءت تماما على كل ما قيل من قبل فى وصف هذا المصلح العظيم .

وانى — بعد هذا التوفيق الذى ناله كتابى هذا — لا يسعنى بعد شكر الله تعالى وحده الا أن اعترف بقصورى عن تصوير ما أبلجنى وافرحنى بهذا

الفضل الجزيل ، الذى قام به السيد نائب رئيس الوزراء ، فأدى به دينا ثقيلا كان فى أعناق الشرقيين عامة والمسلمين خاصة ، ولا سيما (مصر) التى اصطفاها السيد جمال الدين — من بين سائر البلاد لكى يقيم فيها ، ويقضى بها من الزمن مالم يقض بعضه فى غيرها ، وآتاها من علمه وفضله وجهاده ما لم يأت مثله أى بلد آخر ، ومن افقها ظل يرسل نوره الى سائر الأقطار شرقا وغربا .

ومن أجل ذلك كان حقا عليها أن تسارع قبل غيرها الى أداء حقه العظيم الذى لزمها ! ولكنها واأسفاه قد فرطت فى جنبه ، وقصرت فى حقه وقعدت عن احياء ذكره ، ونشر تاريخه الذى أخفاه ضباب النسيان الى أن قيض الله له هذا الرجل الجليل المصلح فأدى هذا الفرض أداء كاملا ، وبهذا الصنيع الجميل انحط عن كاهل الشرقيين والمسلمين ما كان يؤوده ، وفازت مصر على غيرها بهذا الفضل العميم فجزاه الله خير الجزاء .

ومما زاد فى جذلى ، وبلج به صدرى أن الذى يشمر لتقديم تاريخ جمال الدين ، ويشيد بفضله ، ويستعلنى بين الخافقين بذكره هو العلامة المحقق الشيخ أحمد حسن الباقورى ، مدير جامعة الأزهر — والأزهر — كما لا يخفى على الدارسين — له تاريخ مظلم مع السيد جمال الدين ، فقد جافاه أشد مجافاة يوم أن دخل مصر وحاربه حربا شعواء وحال شيوخه بينه وبين دخوله ، وحرموا عليه أن يلقى فيه شيئا من دروسه ، ولم يقف ضغنهم وشنآنهم عند ذلك بل آذوه حتى فى دينه فكفروه هو ومن التف به من تلاميذه ، ولم يهدأ لهم بال ، ولا استقر لهم حال ، الا بعد نفيه عن مصر .

وليت نار الحقد المتأججة فى صدورهم قد خبت بعد نفيه وتركه لبلادهم بل امتدت الى محاربة آثاره من بعده ، فقد نشرنا منذ ثلاث سنين شيئا من مبادئه وتعاليمه وآرائه فى كتاب ينفع الناس ، وما كادوا يعلمون به حتى هبوا فى وجهنا وركضوا الى أولى الأمر طالبين مصادرته وعدم تداوله ! وقرروا فى كتاب رسمى أزهرى ان فيه افتراء على الاسلام وخروجا على تعاليمه — وقالوا فيه غير ذلك ما قالوا — ولما علم السيد نائب رئيس الوزراء بذلك أمر بأخذ نسخه وتوزيعها بين بلاد المسلمين ليستفيدوا بما فيها —

فاذا قام اليوم الشيخ الباقورى — وهو الذى أراد الله ان يكون مهيمنا على الأزهر فى حاضره ، ووضع بين يديه أمر اصلاح شؤونه بعد ما تقرر (تطويره) — ليكتب فى جمال الدين وفضله من آيات البيان ما كتب — وهو محيط بما كان من أمر الأزهر معه ، فان ذلك ولا ريب — يعد آية الشجاعة فى الحق ، وعلامة الانصاف الذى ليس بعده انصاف ، واحياء لذكرى هذا العظيم الذى هضم حقه من الأزهريين وغير الأزهريين .

وهناك من وراء ذلك كله ما يزيد من فضل سيادة نائب رئيس الوزراء والشيخ الباقورى معه ، ويضاعف الثناء الطيب عليهما ، ذلك انهما حملا صورتى السيد جمال الدين وتلميذه الأكبر الأستاذ الامام محمد عبده ورفعاهما الى مكان الصدارة بين صور من تولوا مشيخة الأزهر وذلك فى أكبر قاعة بجامعة الأزهر ، وهى التى أطلق عليها أخيرا اسم (قاعة الشيخ محمد عبده) .

ولا مراء فى أنه قد أصبح من حق مصر أن تباهى بهذه الأعمال الجليلة التى ستبقى على وجه الدهر مشرقة وتزهو بها على سائر الأقطار .

وانى — وأنا من أشد الناس حبا لجمال الدين ومحمد عبده واخلصهم اتباعا لهما ، وتأثرا بهما ، وتثقفت بعلومهما ثقافة أزدهى بها وأعتز ، وأعرف أكثر مما يعرف غيرى مدى ما أصابهما فى الحياة من ظلم المستعمرين ، وكيد الحكام الظالمين وكنود الجامدين — لا أملك اليوم وقد رأيت بعينى ما رأيت من تكريمهما وتقديرهما الا أن أرسل هذه الكلمة الوجيزة واجعلها (للحقيقة والتاريخ) لاستعلن فيها بين الناس كافة ان الذى أنصف جمال الدين فى هذا العصر واعاد له اعتباره الشامخ ، ومكانه السامى بعد أن ظل سبعين عاما مجحود الفضل ، منسى الذكر — الا من بعض المنصفين — وقليل ما هم — انما هو الأستاذ الجليل أحمد عبده الشرباصى نائب رئيس الوزراء للأوقاف والأزهر والشئون الاجتماعية ، ويتلوه فى ذلك صديقه الحميم العلامة الكبير أحمد حسن الباقورى مدير جامعة الأزهر حفظهما الله وجزاهما عن الشرق والمسلمين أحسن الجزاء .

هذه حقيقة أسجلها اليوم بالفخر وأباهى بها بين الناس كافة ، لكى تبقى على وجه الدهر ، ثابتة يتلقاها الخلف عن السلف ، وتكون من حقائق التاريخ الثابتة التى لا شك فيها .

محمود أبو ريّة

٨ رمضان سنة ١٣٨٥ هـ

٣٠ ديسمبر سنة ١٩٦٥ م

مقدمة

كان الشرق الاسلامى كما يجب أن يكون مشرق النور ، ومبعث الهداية ، وكان يرسل نوره الى كل أرض ، وينشر هدايته لكل قبيل ، وظل على ذلك قرونا ، حتى حاق به ما حاق من العلل والنوائب ، وأصاب أهله ما أصابهم من المحن والشدائد ، فانطفأ نوره وتقلصت هدايته وسيطر عليه الأوربيون فجعلوه بينهم نهبا مقسما : يستغلونه بعلمهم ، ويستأكلونه بقوتهم حتى تردى فى القرن الثامن عشر الى مهواة سحيقة من الانحطاط والتأخر ، ثم شاء الله أن ينبعث من صحراء الجزيرة العربية صوت يدعو المسلمين الى التحرر من الوثنيات التى شابت عقائدهم ، ونبذ البدع والخرافات التى شوهت دينهم ، وأن يرجعوا الى ما كان عليه السلف الصالح فى عقائده وعباداته — وكان ذلك ولا ريب مبدأ اليقظة الاسلامية من ناحية تطهير العقائد فحسب — ومرسل هذه الصيحة هو محمد بن عبد الوهاب .

ولم يكد ينتصف القرن التاسع عشر حتى ظهر مصلحون فى الهند وتونس وتركيا وتنوعت طرق اصلاحهم فذهب كل منهم مذهبا غير ما ذهب اليه الآخر . وأخذت دعواتهم سبلها الى أفكار المسلمين ، وتنبهت الخواطر الى الخطر المحيق بالاسلام وبلاده وانتشرت روح الكراهية لمن تغلبوا على البلاد الاسلامية حتى شبت نيران الثورة فى كل من الجزائر والهند والسودان وافغانستان ، واندلع لهيبها الى كثير من البلدان .

وقد أدرك هؤلاء المصلحون أنه لابد للعالم الاسلامى — لكى يأخذ مكانه اللائق به بين الأمم العظيمة — من نهضة صحيحة تقوم على الأسس العلمية القوية ، وتبنى على التجديد الروحى والفكرى . وما الى ذلك من الأسباب التى صعد الغرب بها فى سلم الرقى والحضارة .

وظلت هذه الأغراض المبتغاة تنشد من يحمل عبءه ويقف حياته على مواصلة الجهاد فى سبيل تحقيقها ، حتى بعث الله موقظ الشرق الأكبر السيد

جمال الدين الأفغانى فوثب وثبته البعيدة المدى ، العميمة النفع ، الخالدة الأثر .

اصطفى الله هذا المصلح العظيم وأمده بمدد عظيم من العلم والحكمة ومن العزم والقوة ، وما شاء الله من المواهب الجليلة ، والمنن العظيمة والمزايا الكاملة مما أوفى به على سائر المصلحين من قبله ، فقد كانوا متفاوتين فى منازلهم العلمية ، ومتباينين فى قواهم الروحية يتجه كل مصلح منهم الى ناحية من العمل الذى يحسـنه لا يعدوها ، ويقصر جهـاده على أمته فلا يجاوزها .

أما جمال الدين فقد وسعت رسالته أقطار الشرق جميعا ثم امتدت الى تركية وروسيا حتى أوربا وانجلترا ، فلم يقف بجهاده عند حدود أمة بعينها ، ولم تقنع همته العالية بضرب واحد من ضروب الاصلاح ، ولكنه أرصد جهده وجهاده لانقاذ الأمم الشرقية من رق المستعمرين الغاصبين ، وظلم الحاكمين المستبدين ، وجمود الفقهاء المقلدين ودجل المتصوفة الخرافيين فكان مثله فى المصلحين ، كمثل محمد صلوات الله عليه فى المرسلين .

أرسله الله الى الشرق كافة ليوقظ أهله من رقادهم بعد أن ظلوا يغطون فيه بضعة قرون ، وينبههم من غفلتهم التى لبثوا فى كهفها مئات من السنين ، وليجمع صفوفهم الممزقة بعد أن صارت أشتاتا ، ويحيى أرضهم الخصبة بعد أن أصبحت مواتا ، بكل ما استطاع من وسائل العمل المتعددة فى هذه الأرض الجدباء حتى مهدها ثم ألقى فيها بذور الاصلاح المتنوعة فما لبث أن أنبتت نباتا حسنا ، ما زال ينمى بما فيه من عناصر الحياة التى يحملها حتى استوى وأخرج فى كل بلاد الشرق شطأه ، وأظهر ثمره .

بدأ جهاده فى بلاد الأفغان التى نبت فى تربتها ، ثم انتقل الى الهند فمصر فتركيا فايران فروسيا ، ولم يترك أمة من الأمم الا سعى اليها ، وجاب أقطارها ، ودرس أحوالها وناظر علماءها وساستها ، كل ذلك فى سبيل غايته وتحقيق بغيته ، فكان كالكوكب السيار الذى يتنقل بين منازله الفلكية فلا يدع سهلا الا ألقى عليه من ضيائه . ولا حزنا الا غمره بفيض من لألآئه .

وقد أمتاز هذا الفيلسوف الحكيم بفهم أسرار الدين ، ونفوذ بصيرته الى أغواره البعيدة وأغراضه العليا ، التى كان يريدها للناس محمد صلى الله عليه وسلم . وكان كأنه ينظر الى الأمور بعين مكروسكوبية فترى من الأسرار ما لا تراه عيون غيره (١) .

ولقد صدق الأستاذ الامام محمد عبده فى قوله — بعد أن وصف منزلته من العلم :

« وبالجملة فانى لو قلت ان ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

واذا كان الفيلسوف الفرنسى رينان قد قال فيه : « انه خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية القائلة بأن قيمة الأديان بقيمة الأجناس التى تعتنقها » . فانا نقول تماما على قول هذا الفيلسوف : ان قوة فهم الدين انما تكون على حسب استعداد الانسان الفطرى الذى يضعه الله فى صدره ، ومدى السر الذى يودعه سويداء قلبه ، فلا تتساوى العقول والأذهان والأفكار ، فى فهم ما فى الدين من الحقائق والأسرار .

ولكن تأخذ الأذهان منه   على قدر القرائح والفهوم

من أجل ذلك كان جمال الدين يعد بحق وارث علم النبوة المحمدية ، والمجدد للدين فى هذا القرن بعد أن ضاع بين شيوخ جامدين ، وحكام ظالمين ، ومسيطرين مستعمرين .

ولقد أدرك فضل فيلسوفنا الثائر العظيم ، علماء الغرب وفلاسفته وكتابه ، ونال من عنايتهم وتقديرهم ما لم ينله مصلح شرقى غيره ، فأشرعوا أقلامهم لترجمة حياته ، ودراسة سيرته وجهاده ، وألفوا فى ذلك الأسفار الطوال والكتب المستفيضة .

---

(١) قال مرة لتلميذه الشيخ عبد الرشيد ابراهيم السارى : يا ولد ، انك ستصلى صلاة الجنازة على القيصرية الروسية وستحضر تشييع جنازة الامبراطورية الانكليزية فى الهند . وقد تحقق ماراه السيد بنظره البعيد النافذ ، وصلى الشيخ عبد الرشيد صلاة الجنازة على القيصرية الروسية فى سنة ١٩١٧ وحضر تشييع جنازة الامبراطورية الانكليزية فى الهند سنة ١٩٤٧ .

وانا نطرز هذه المقـدمة بكلمات اقتطفناها مما كتبه هؤلاء العلمـاء والكتاب :

قال الكاتب الأمريكى الكبير لوثروب استودارد :

« كان جمال الدين أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة فى الشرق الاسلامى ، وتمثـل عواقبها فيما اذا طال عهـدها ، فهب يضحى بنفسه ، ويفنى حياته فى سبيل ايقاظ العالم الاسلامى ، وليس هناك من قطر من الأقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين الا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية لا تخبو نارها .

وبعد أن ذكر أن له يدا فى الثورة العرابية قال : . ولم تخف دولة جمال وتضطهده مثل ما خافته واضطهدته الدولة البريطانية » .

وقال الدكتور تشارلز آدمس بعد أن بين هو كذلك أن الثورة العرابية من آثاره « لقـد عمت جهود هذا الرجـل النابه البلاد الاسـلامية كلها ، والممالك الأوروبية ذات الصلات بها ، فأفغانسـتان وفارس وتركيا ومصر والهند ، اتصلت به جميعا وأحست أثره القوى التى هزها هزا عنيفا ، فهو الذى أوحى بالثورة الفارسية التى بدأت ضد احتكار التمباك فى سنة ١٨٩١ وانتهت بوضع دستور ٥ أغسطس سنة ١٩٠٦ ، تعهدها فى نشأتها الأولى بالنصح وارلاشاد ، ثم والاها بالتشجيع والتأييد .

ولما كان مقيما فى الآستانة مهد بتهييجه المتواصـل للحركة التركية الصغيرة الموفقة التى قامت سنة ١٩٠٨ » .

ويقول برنار ميشيل : أيان ذهب السيد جمال الدين كان يترك وراءه ثورة تغلى مراجلها ؛ ولسنا نعدو الحـق ، أو نكون مبالغين اذا قررنا أن جميع الحركات الوطنية الحرة ، حركات الانتفاض على المشاريع الأوروبية التى نشاهدها فى الشرق ترد أصولها مباشرة الى دعوته .

وكانت الغـاية التى يرمى اليها ؛ توحيد كلمة الاسـلام وجمع شمل المسلمين فى سائر أقطار العـالم ، كما كانت الحال أيام الاسـلام المجيدة وعصره الذهبى » .

وقال المستشرق الحر نصير الثورة العرابية ، ومؤيد الحركة الوطنية المصرية مستر بلانت : « ظهر في القرنين الأخيرين كثير من الواعظين ، ووجد كذلك في مصر وتركيا مصلحون ، ولكنهم لم يوفقوا بين اصطلاحاتهم وبين قواعد القرآن وتقاليده ، أما نبوغ جمال الدين ففي اجتهاده في حمل الممالك التي وعظ فيها على أن تعيد النظر في الموقف الاسلامي كله وأن تستبدل بالتمسك بالقديم ، التحرك الى الامام ، حركات أدبية منسجمة مع العلم العصري — وقد مكنه علمه التام بالقرآن والسنة من اقامة الحجة على أنهما لو أحسن تأويلهما معا — لكان الاسلام كفؤا لاحداث تطور راق عظيم ، وكان همه : أن يطلق العقول من الأغلال التي قيدتها طوال الأجيال الماضية ، ويقيم الحجة على أن الدين الاسلامي ليس شيئا ميتا ، ولكنه نظام يصلح الانسانية المتطورة في جميع العصور فهو لا يأبى التطور » .

وفي هذا يقول الأستاذ الامام محمد عبده عن أستاذه : أنه وجه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول ، فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر . وهو في جميع أوقات اجتماعه مع الناس لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس الى معالي الأمور ، أو يستلفت الفكر الى النظر في الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ، فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد .

وقال الفيلسوف أرنست رينان :

« قد خيل الي من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته ، وأنا أتحدث اليه ، انني أرى وجها لوجه أحدا من عرفتهم من القدماء ، وأني أشهد ابن سينا أو ابن رشد ، أو أحد أولئك العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرر الانسانية من الأسار » .

وقال المستر براون : « ان استيفاء النظر في تاريخ السيد جمال الدين هو احاطة بتاريخ المسألة الشرقية كلها في الزمن الحديث . ويدخل في ذلك تاريخ الأفغان والهند ، ويدخل فيها بوجه خاص تاريخ تركيا ومصر وايران — وفي هذه البلاد الثلاثة لا يزال تأثيره حيا » .

وقال المستشرق الألمانى الكبير كارل بروكلمان تحت عنوان : (حركة التجديد الدينى — جمــال الدين الأفغانى) مهما يكن من أمر فقــد كان الاسلام — ولا يزال — المهيمن على الحياة الدينية فى مصر ، وانما يرجع الفضل فى ذلك — فى المحل الأول — الى تأثير جمال الدين الأفغانى (١) .

وقال مؤلفو تاريخ العــرب المطول الدكاترة فيليب حتى ، وادوارد جرجى ، وجبرائيل جبور : ويعد جمال الدين الأفغانى — الباعث الرئيسى الأول للروح العصرية فى الاسلام .

وقال الكاتب الفرنسى الشهير هنرى رشفور (٢) : « السيد جمــال الدين الأفغانى من سلالة النبى — ويكاد هو نفسه يكون نبيا ، وقد عرفت هذا الرجل فاهتزت له جوانحى طربا ، وخفق له قلبى حبا كما يخفق بالحب لكل داع الى ثورة ، أو مناهض لسلطة (٣) .

وقال الكاتب الكندى الكبير وليام مكلورى : « كانت أقوى مشاعل حركة التنوير القومى والفكرى والأدبى فى الشرق ، هى التى حملها جمال الدين الأفغانى . الذى تخرج على يديه وفى مجالسه الكثيرون من أبناء مصر والبلاد العربية » .

ولنقف عند ذلك وحسبنا ما اقتطفنا :

ومن العجيب أن هذا العلم الشامخ ، والمصلح الأكبر ، الذى له فضل أى فضل فى أعنــاق الشرقيين كافة — وسيظل هذا الفضــل يطوق هذه الأعناق الى يوم الدين ، لم يجد منا الا العقوق والتنكر له ، حتى لقد بلغ من تفريطنا فى جنبه ، أنه بعد أن أودى بحياته فى الآستانة غدر الظالمين ، قد نبذ جثمانه الطاهر فى تراب الاهمال أكثر من ربع قرن لا يزوره مسلم ولا يعنى به شرقى — حتى قيض الله له رجلا أمريكيا كريما فبحث عن قبره بعد أن زالت معالمه ، اذ كان حينئذ مهدوما مهجورا ، ولما عثر عليه أقام له ضريحا من الرخام أنفق عليه عشرات الآلاف من الدولارات ، ولم يقف عقوقنا عند هذا الحد ، بل أصبح اسمه نسيا منسيا ! وبحسبك أن تعرف أنه قد

---

(١) كان ولا ريب كما قيل فيــه : هو الزلزل الأول لجمود الأزهر ، والمصلح الأول للتعليم الاسلامى ، وواضع المعول فى هدم أساس بناء السلطة الاستبدادية بمصر .

(٢) ص ٢٩٣ جـ ٢ حاضر العالم الاسلامى .

(٣) قال هذا الكلام فى كتابه (ماحريات حياتى) وكان قد صاحب السيد زمنا وعرفه عن كثب .

انقضى فى هذا العام على اغتياله حوالى سبعين عاما ، وكان الواجب أن يقام له فى هذه المناسبة ذكرى كريمة تليق بمقامه ، ولكننا وآ أسفاه !! لم نجدحتى كلمة واحدة يجرى بها قلم على احدى الصحف ، أو لفظا ينطق به المذياع ، وفى مصر وغيرها من الأمم الشرقية صحف كثيرة واذاعات متعددة وكلها لا تذكر عنه حرفا . على حين تتصدع رءوسنا كل آن بما يذاع من حفلات الموالد لمخلوقات لا يعلم أحد من تاريخهم شيئا أو مما شئت من سخافات . ولا حول ولا قوة الا بالله !

واذا كان أعوان الطغيان وأولياء الشيطان قد استطاعوا — من قبل — أن يقضوا على جثمانه بغدرهم ليطفئوا بأيديهم نوره ، فان الله سبحانه يأبى الا أن يتم (نوره) ولو كره الجاهلون ، فلم يستطع هذا الطغيان — ولن يستطيع — أن يقضى على روحه ، أو يطمس على تاريخه ، لأن الزبد هو الذى يذهب جفاء — أما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

ولما كان هذا التاريخ الحافل بجلائل الأعمال ، التى تنوء بهـا كواهل أولو القوة من فحول الرجال ، مما يجب على الشرقيين فى هذا الوقت عامة والمسلمين خاصة أن يدرسـوه ويتدبروه وأن يرضع أطفالهم تعاليم هـذا الحكيم مع لبان أمهاتهم ، ويجعلوها أول ما يتلقونه فى الحياة من علم بعـد معرفة عقائدهم ، لأنها تعاليم خالدة بقوتها وسموها على وجه الدهر وبحسبك أن تقرأها اليوم — وقد انقضى على انشائها أكثر من سبعين سنة فتراها حية نابضة حارة كأنها كتبت لنا اليوم ، ذلك لأنها الهام من الله جرى بها لسانه لتكون دستورا دائما لأمم الشرق وجميعا فى دينها ودنياها وأفكارها وعلمها وسياستها .

ولما كان هـذا العظيم على ما وصفنا ، وتعاليمه على ما بينا ، وكانت بلادنا قـد وثبت وثبتها ونهضت نهضتها التى كانت ولابد من أثر البـذور الطيبة التى بذرها فى تربتها ، وأنه قـد وجب على كل مصرى أن يكون له نصيب فى اقامة بناء حياتها الجديدة بعد ثورتها ، فقد استخرت الله فى أن أسهم بنصيب فى هذا البناء . ولم أجد عملا — أقدمه بين يدى — خيرا من أن انشر فى الشرق عامة تاريخ هذا المصلح الأعظم الذى خصص جهاز دماغه لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه ، كما يقول هو نفسه رضى الله عنه ؛ وانى

أنهض اليوم بحمد الله والسرور يغمرنى والفرحة تهز مشاعرى لأقدم هذا الكتاب الذى يحمل تاريخ السيد جمال الدين الأفغانى مستجيبا لرغبة العالم المصلح الجليل السيد أحمد عبده الشرباصى نائب رئيس الوزراء ووزير الأوقاف والأزهر الذى أمر حفظه الله بأن يطبع على نفقة المجلس الاسلامى الأعلى للشئون الاسلامية ويوزع بين أرجاء الأرض التى جاهد فى سبيلها — ولا ريب فى ان سيادته قد استحق بهذا العمل جزيل الشكر وصادق الحمد أن قام بأداء الدين المستحق على الأمم الاسلامية خاصة وشعوب الشرق عامة وظل عشرات السنين لم يؤده أحد قبله فجزاه الله عن العلم والفضل والوفاء أحسن الجزاء انه سميع مجيب الدعاء ، وقد سرت فى هذا التاريخ على النهج الذى اتبعه فى حياته بحيث يكون متصل الحلقات يرتبط بعضها ببعض الى ان انتهت حياته فى عاصمة الخلافة الاسلامية ، فبينت أثره فى كل بلد نزل بها ، وبذر اصلاحه فى أرضها مبتدئا بجهاده فى بلاده (افغانستان فالهند فمصر فأوروبا فايران فروسيا فتركيا) حيث لقى مصرعه فى عاصـمتها على ايدى رجال الدين الدجالين والحاكمين الظالمين المستبدين .

وقد محصته قدر جهدى وبلغ اليه ذرعى واعاننى على ذلك ما عثرت عليه من مواد صادقة جليلة لم تصل الى ايدى الذين أرخوا له ، ومن ذلك رسالة خطيرة لما تزل الى اليوم محفوظة مخطوطة لم تنشر ، عثر عليها الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق ونسخها بخطه رحمه الله وهى اليوم بين أوراقه الخاصة وعنوانها (الشيخ جمال الدين الأفغـانى ودخائل صاحب الجلالة الامبراطورية السلطان عبد الحميد الثانى تأليف جورجى كوتشى (١) وهذه الرسالة تحمل حقائق غريبة وأسرار خطيرة عن دخائل الطاغية السفاك السلطان

---

(١) هو جورجى كوتشى أحد موظفى محافظة مصر سابقا ، اتصل بالسيد وهو فى الاستانه ولازمه فى آخر حياته وكان من أصفيائه وقد استهل كوتشى رسالته بهذه العبارات المؤثرة فقال : ذهبت لزيارة جمال الدين قبل موته بقليل من الأيام ، وكان قد أصابه حبه القلق ما بث الى من أسراره فقال انى أشعر بأننى مشرف على الموت وحده ودنى وم اوقات يتعلق بحياتى ، أودعها عندك بعد تكون ذكرى لك بعد موتى المريبه . مذ انى أستحب ان [illegible] من هذه البلاد الوحشيه التى [illegible] والتى واسست فيها العلم الى ساعتى هذه ولا تركنى الى وعدى يعود السلطان الجلابه ، [illegible] ما اصيبى [illegible] من الجور ، [illegible] السيخ جمال الدين [illegible] من اخوانى فرحلت عن [illegible] ويمثل هذه النصيحه اوصى محمد المخزومى [illegible] الذى دون عنه خاطراته [illegible] الرصيه : اذا سلمت من خطر الطاغيه وطواغيته — يعنى [illegible] عبد الحميد وجواسيسه — فستصدق من اهل الجمود عسفا وجرحا وقلبا للحقائق فلا تبالى بهم . فما خلا الكون منهم يوما حتى يخلو زمنك ، ولا نجا منهم مخلص حتى تنجو انت » .

عبد الحميد ، وبخاصة عن جرائمه مع الشهيدين العظيمين السيد جمال الدين الأفغانى ، والسيد عبد الله نديم المصرى (١) وتآمره مع الدجال الاكبر ابى الضلال ، للفتك بهذين الشهيدين من طريق السم ـ وهذه الحقائق التى تضمنتها رسالة جورجى كوتشى لم يكن احد يستطيع ان ينشر على الناس ما فيها خوفا من بطش الظلم والطغيان الذى كان سائدا حينئذ فى كل مكان ، ان فى الآستانة ، وان فى مصر أو فى غيرهما ، ومن أجل ذلك ظلت مطوية مستورة فى ضمير الزمن لا يعرفها أحد .

ولما علمت بأمر هذه الوثيقة التاريخية النادرة سعيت لدى الاستاذ الفاضل ممدوح مصطفى عبد الرازق السفير بوزارة الخارجية بوساطة عمه الأستاذ الكبير على عبد الرازق لكى يعيرنى هذه الرسالة لأنقلها وأعيدها اليه فتفضل حفظه الله بتحقيق رغبتى ـ وكأنى عثرت على كنز ونقلت صورتها بخطى وحفظتها عندى .

وكذلك وقعت لى مصادر اخرى تكشف عن نواح من تاريخ هذا العظيم مثل كتاب (الدرر) الذى يحمل منشآت أديب اسحاق أحد تلاميذ السيد النجباء ومقال قيم نشره الدكتور شبلى شميل بمجلة الزهور عما يعرفه شخصيا عن السيد جمال بعد ان جالسه وناقشه وغير ذلك من المصادر المهمة وقد اقتبست من كل ذلك ما اقتبست وضمنته الى هذه الطبعة التى يصح لى أن أقول فيها : انها قد أوفت على الغاية من الاستيعاب والتحقيق ، وبينت سيرته من يوم مولده الى يوم مصرعه اكمل بيان وصورت حياته من جميع جوانبها أصدق تصوير ، وانى أخرجها اليوم للناس وأنا راض عنها ، مبتهج بها ـ راجيا أن أكون قد اديت بنشرها ما على من دين الى السيد جمال الدين الافغانى الذى له فى عنق كل شرقى عامة ومسلم خاصة دين أى دين وان يكون ما اقدمه تحية عطرة يرتفع شذاها الى روحه الطاهرة فى فراديس الجنان واحمده تعالى على ان كنت اول من عنى بتاريخه تاريخا مفصلا فى زماننا هذا .

---

(١) ضل التاريخ ضلالا بعيدا فى أمر مصرع السيد عبد الله نديم فقد ذكر جميع من أرخوا له أن مات (بالسل !) ولكن الحق الذى لا ريب فيه انه مات (بالسم الزعاف ..)

وخير ما أختتم به هذه المقدمة تلك العبارة الحكيمة الخالدة التى ختم بها الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق (١) ترجمته المختصرة للسيد رحمهما الله وهى :

« حسب جمال الدين من عظمة ومجد ، أنه فى تاريخ الشرق الحديث ، أول داع الى الحرية ، وأول شهيد فى سبيل الحرية » .

محمود أبو ريه

---

(١) يعتبر العلامة الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق حفيدا للسيد جمال الدين الافغانى لانه من أذكياء تلاميذ الأستاذ الامام محمد عبده ومن أصدق وأخلص من نشر رسالتهما رحمهم الله جميعا .

أرومته وحسبه

للسيد جمال الدين الأفغانى أصل عريق من الحسب (١) ، تمتد جذوره الى أغوار بعيدة من الزمن فقد أثبت التاريخ القديم على صفحاته الخالدة ، أن أجداده العظام كانوا من ملوك الطوائف (٢) ببلاد افغانستان وكان لهم نفوذ عظيم فى جميع أرجاء الوطن الافغانى .

وكان ملوك المركزية فى افغانستان يتصلون برباط المصاهرة مع هذه الأسرة العظيمة اكراما لها ، وتقربا منها ، لأنها من ناحية تنتمى الى النسب الحسينى ، ومن ناحية أخرى ليتقوا بطشها ، ونفوذها ، ولا يزال يطلق على أفرادها لقب (باشا) (٣) وهو لقب خاص بهم دون غيرهم .

فهؤلاء السادة كانوا ملوكا فى بلادهم سادة بين أقوامهم ، من جهتين :

الأولى : لأنهم من ملوك الطوائف .

الثانية : لأنهم أحفاد النبى صلوات الله عليه ، والنسب النبوى له فى بلاد الأفغان تقديس عظيم .

مقامهم فى التاريخ الحديث

هذا مقامهم فى التاريخ القديم أما التاريخ الحديث فيقص علينا أن أسرته لها فى البلاد الأفغانية الآن شأن أى شأن ، فله ابن عم اسمه (السيد حسين باشا) كان من أكبر الشخصيات فى بلاد افغانستان كلها ، وكان هو وبنو عشيرته من أشجع الافغانيين ، وأكثرهم سخاء وأشدهم صراحة ، وقد ورثوا ذلك وغيره عن جدهم الامام زين العابدين رضى الله عنه .

---

(١) قال الأزهرى : الحسب الشرف الثابت له ولآبائه .

(٢) هذا الأمر الثابت قد قرره الأستاذ الامام محمد عبده فيما ستراه مما كتبه فى سيرته عن عشيرته اذ قال : ولهذه العشيرة منزلة عليه من قلوب الأفغانيين ، يجلونها رعاية لنسبها الشريف ، وكانت لها سيادة على جزء من الاراضى الأفغانية تستقل بالحكم فيه .

(٣) كلمة « باشا » آرية معناها الملك .

وكان حسين باشا هذا — وهو من كبار أبطال الجهاد الدينى والوطنى ، لا يعرف غير لغة السيف تعبيرا فى جهاده — ولهذا كان يلوم السيد جمال الدين على ترك الجهاد بالسيف الذى نشأ عليه جدوده ، واتخذ من اللسان والقلم سلاحا ، وكان يعبر عن ذلك بقوله :

« انه يحارب الكفار بالمداد بدل الدم » .

ومن بين ابناء عمومته السيد شمس الدين باشا المشهور ، بالمجروح ، وهو الآن يشغل وزير القبائل فى الوزارة الافغانية الحاضرة (١) .

وبفضل قوة نفوذ عشيرة السيد بين القبائل الافغانية — كان السيد صادقا فيما كتبه الى صديقه مستر بلنت : « أن افغانستان فى قبضة يدى » .

المحيط الاجتماعى والوطنى

كان هذا هو المحيط العائلى للسيد جمال الدين — أما محيطه الاجتماعى والوطنى فكان من أكثر البيئات نموا وحركة وهياجا .

ففى عصره استعرت بين ارجاء افغانستان كلها نيران حروب طاحنة ، وانتشرت حركات جهاد دموية متصلة ضد المستعمرين الانجليز (٢) لم تخب نارها لحظة واحدة — وقد قتل خلال هذه الحروب (سر مكناتن) القائد الانجليزى المعروف وعشرون ألفا من جنوده — وكانت ميادين هذه الحروب ممتدة بين كابل الى كنر وهى البلاد التى فيها كان مسقط رأس السيد جمال الدين .

---

(١) جاء فى العدد ٧٣ من السنة السابعة الصادر فى شهر يناير سنة ١٩٦٣ فى مجلة أفغانستان التى تصدر بالقاهرة (عن السفارة الأفغانية) وهى تصف احتفال أفغانستان بذكرى الامام الانصارى الهروى لمناسبة مرور ٩٠٠ سنة على وفاته ما يلى :

« وألقى السيد شمس الدين مجروح عضو الوزارة الافغانية لشئون القبائل واحد أقرباء السيد جمال الدين الأفغانى محاضرة قيمة تناول فيها حياة الأنصارى واحد هراة الاكبر وصوفيها الأعظم .. الخ » .

(٢) لما تمكنت بريطانيا من احتلال الهند وضمها الى المستعمرات البريطانية أخذت ترنو الى أفغانستان وما فتئت تنتهز الفرص للوصول الى غايتها تحمد اجتياز الحرارة لكى تستولى عليها ولكنها كانت تبوء بالهزيمة والخسران فى كل هجوم لها ، وظلت الحرب مستمرة بين الانجليز والأفغان حوالى قرن ونصف وكان أشدها حروبا ثلاثا : الأولى دامت حوالى أربع سنوات (١٨٣٨ — ١٨٤٢) خرجت منها انجلترا بخسائر فادحة وظلت الحرب الثانية قرابة ثلاث سنين (١٨٧٨ — ١٨٨١) وقد هزمت فيها انجلترا هزيمة منكرة . أما الحرب الثالثة والأخيرة فكانت فى سنة ١٩١٩ فقد ظفرت فيها أفغانستان بالاستقلال التام وما تزال تستمتع به الى اليوم .

وقتل كذلك مع هذا القائد الانجليزى المشهور — الملك الخائن شاه شجاع .

هذه البيئـة التى تجيش بالوطنية المستعرة ، وهـذا الجهاد المتأجج المتواصل قد بثا فى نفس السيد بصفة عامة روح الكفاح الذاتى ، وأفهمـاه مدى مطامع الاستعمار ومظالمه ، ومنها أيقن انه بالكفاح الصـادق يمكن القضاء على الاستعمار ، فلقد كانت هذه أول مرة يهزم فيها الاستعمار هزيمة نكراء رغم قوته وجبروته ، وعدته وعتاده .

وكان قد وقر فى النفوس الشرقية قبل ذلك ان الاستعمار الانجليزى لا يغلب — فقد أنشب أظفاره فى الهند والترنسـفال وغيرهما من أرجاء المعمورة ولم يجد من يكف بأسه ، ومن أجل ذلك اعترى العالم الذى ابتلى بالاستعمار عقدة نفسية هى :

ان الاستعمار البريطانى لا يغلب ! ومن العبث مقـاومته أو الوقوف فى سبيله !! .

ولاعتداء الانجليز المتواصل على بلاده وغير بلاده — تأصل فى قلبه بغضهم ومقتهم ، وامتلأ صدره بكراهتهم كراهة شديدة وآلى على نفسه ان يقف حياته على محاربتهم فى كل ميدان يلتقى فيه معهم ، وشن الغارة عليهم فى كل مكان ترتفع فيه رايتهم ، والعمل ما اسـتطاع على تنكيسها حيثما وجدت فى بلاد الشرق كافة ، وهذا أمر مشهور عنه وقد بينه الأستاذ الامام محمد عبده فى ترجمته له عندما تكلم عن مقصده السياسى اذ قال :

« ويدخل فى جهاده ، تنكيس راية دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية وتقليص ظلها عن رءوس الطوائف الاسلامية — وله فى عداوة الانجليز شئون يطول بيانها » .

المحيط الأدبى

واما المحيط الأدبى للسيد الأفغانى فلم يكن أقل تأثيرا فى نفسه من المحيط الاجتمـاعى ، ففى عصره تمركز العلم والفلسـفة والمنطق فى ديار (جندهارا) التى تشمل المقاطعتين الشرقية والجنوبية من افغانستان .

وقد نبغ فى تلك الديار كثير من فطاحل العلماء أمثال العلامة (مولانا الحكيم السيالكوتى) والشاه ولى الله الذى عرف الزمان بانه بعد من أبعاد المكان ، قبل ان يعرفه اينتشاين بقرنين والعلامة محب الدين البهارى ونواب صديق حسن خان وميرزاهد الهروى خاتم المنطقيين وأمثال هؤلاء كثيرون ومن الذين عاصروا السيد جمال الدين ملا محمد عمر السلجوقى .

واذا لم يكن هؤلاء الذين ذكرناهم معاصرين للسيد جمال الدين فانهم بلا شك قد هيأوا المحيط الأدبى لمن جاء بعدهم وهو أولهم بلا مراء .

المحيط الطبيعى

وهناك محيط آخر لابد أن نشير اليه لأنه من العوامل التى أثرت ولا ريب فى السيد جمال الدين ذلك هو المحيط الطبيعى لبــلاد الأفغان الذى يتألف من جبال شاهقة وهضاب عالية وقمم شامخة ووديان سحيقة وعقبان مفترسة وذؤبان خاطفة .

هذه المحيطات كلها أنبتت جمــال الدين

بين احناء هذه المحيطات كلها نبت السيد جمال الدين نباتا حسنا ونشأ شجاعا جسورا ، ومقداما هصورا ، ونبغ عالما محققا ، ومنطقيــا ذا حجة وبرهان ، فصيحا بليغا وغير ذلك كله قانعا ليس لحطام هذه الدنيا عنده أى حســاب .

ومما بيناه فى الصفحات الماضية يمكن ان يستخلص منه الباحث أربع حقائق لا يمكن لأحد ان يمارى فيها :

الأولى : انه خلاصة العترة النبوية الشريفة .

الثانية : انه افغانى صريح قح .

الثالثة : ان أسرته العظيمة عريقة فى المجد والكرم والشجاعة نشأت من أرض افغانية ولها هناك بنسبها الطاهر ، ومقامها الباهر ، سلطان عظيم يمتد على مدى الزمان . ومن أجل ذلك جعل السيد توقيعه على كل ما يكتب هكذا : (جمال الدين الحسينى الأفغانى) .

الرابعة : انه بلا خلاف موقظ الشرق ، وباعث نهضـــته فى العصر الحديث ، ولم يقم أحد بمثل ما قام به ولا جاهد مثل جهاده .

هذه الحقائق قد اجمع عليها كل الذين كتبوا عنه من الشرقيين ومن الغربيين كما سترى ، وقد أصبح اســمه علما مفردا — بحيث أصبح من المعلوم بالضرورة لدى الناس كافة فى مشارق الأرض ومغاربها ان كلمة (جمال الدين) اذا اطلقت فى أى زمان أو مكان — لا تنصرف الا اليه ، ولو ذكر اسم حكمينا (جمال الدين) مجردا ، لم يفهم الناس منه الا أنه (الأفغانى) (١) .

وبعد أن تكلمنا عن أرومة السيد جمال الدين وحسبه ، نأخذ فى بيان سيرته وتاريخه ولا نجد كلاما نفتتح هذا التاريخ به خيرا مما كتبه عن تحقيق آكبر تلاميذه ، وأعلمهم وأنبغهم ، الأستاذ محمد عبده .

---

(١) مما نذكره — اعترافا بالفضل لأصحابه — أننا انتفعنا بكثير من حقائق هذا البحث — من العلامة الفيلسوف الأستاذ صلاح الدين السلجوقى سفير أفغانستان فى الجمهورية العربية المتحدة سابقا فله منا اعظم الشكر ، وأطيب الثناء .

مجمل من سيرة جمال الدين
للأستاذ الإمام محمد عبده

قال رضي الله عنه :

يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأيناه من تخالف الناس في أمره ، وتباعد ما بينهم في معرفة حاله وتباين صوره في مخيلات اللاقفين لخبره ، حتى كأنه حقيقة كلية تجلت في كل ذهن بما يلائمه ، أو قوة روحية قامت لكل نظر يشكل بشاكله ، والرجل في صفاء جوهره ، وزكاء مخبره لم يصبه وهم الواهمين ، ولم يمسسه حرز الخراصين .

وانا نذكر مجملا من خبره ، نرويه عن كمال الخبرة وطول العشرة .

هذا هو السيد جمال الدين ابن السيد صفتر (١) من بيت عظيم في بلاد الأفغان ينتمي نسبه الى السيد على الترمذي المحدث المشهور . ويرتقي الى سيدنا الحسين بن على بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم في خطة (كنر) من أعمال كابل (٢) تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام . ولهذه العشيرة منزلة عليه من قلوب الأفغانيين يجلونها ، رعاية لحرمة نسبها الشريف ، وكانت لها سيادة على جزء من الأراضي الأفغانية تستقل بالحكم فيه ، وانما سلب الامارة من أيديها .. دوست محمد خان جد الأمير الحالي (٣) ، وأمر بنقل أبي السيد جمال الدين وبعض أعمامه الى مدينة كابل .

(١) كان السيد كثيرا ما يتكلم العربية باللهجة الأفغانية الوطنية كما أشار الى ذلك حسين دانش ، من أجل ذلك كان يقول ان اسم أبيه هو المرحوم « صفتر » بالتاء والحقيقة هو أن هذه الكلمة تكتب بالدال « صفدر » وتنطق بالدال الا أن الأفغانيين ينطقونها بالتاء فالذين سمعوا السيد وهو ينطق باسم والده باللهجة الأفغانية حسبوه صفتر وقد التبس الامر على بعض الذين أرخوا له . وبذلك يكون حقيقة اسم أبيه (صفدر) .

(٢) بمديرية ننكرهار الواقعة في الناحية الشرقية لأفغانستان وهي تقع في نصف الطريق المؤدي من كابل الى بشاور خلال مضيق خيبر .

(٣) كتبت هذه الترجمة سنة ١٨٨٥ وكان الامام يومئذ في منفاه بسوريا ونقل معها ترجمة رسالة « الرد على الدهريين تأليف أستاذه جمال الدين » .

ولد السيد جمال الدين فى قرية (أسعد أباد) (١) من قرى كنر سنة ١٢٥٤ هجرية . وانتقل بانتقال أبيه الى مدينة كابل — وفى السنة الثامنة من عمره أجلس للتعلم ، وعنى والده بتربيته فأيد العناية به قوة فى فطرته واشراق فى قريحته وذكاء فى مدركته فأخذ من بدايات العلوم ولم يقف دون نهاياتها .. تلقى علوما جمة برع فيها جميعا ، فمنها العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وكتابة وتاريخ عام وخاص ، ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام وتصوف ، ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة عمليـة سياسية ومنزلية وتهذيبية ، وحـكمة نظرية طبيعية والهية ، ومنها علوم رياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك ومنها نظريات الطب والتشريح . أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة فى تلك البلاد ، وعلى ما فى الكتب الاسلامية المشهورة ، واستكمل الغاية من دروسه فى الثامنة عشرة من سنه .. ثم عرض له سفر الى البلاد الهندية فأقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر فى بعض العلوم الرياضية على الطريقة الأوروبية الجديدة .

جهاد السيد فى بلاده

وأتى بعد ذلك الى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج وطالت مدة سفره اليها نحو سنة وهو ينتقل من بلد الى بلد ، ومن قطر الى قطر ، حتى وافى مكة المكرمة سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧ م) . فوقف على كثير من عادات الأمم التى مر بها فى سـياحته واكتنه أخلاقهم ، وأصـاب من ذلك فوائد غزيرة ، ثم رجع بعد أداء الفريضه الى بلاده ودخل فى سلك رجال الحكومة على عهد الأمير دوست محمد خان — ولما زحف الأمير الى هراة ليفتحها ويملكها على سلطان أحمد شاه صهره وابن عمه ، سار السيد جمال الدين معه فى جيشه ولازمه مدة الحصار الى أن توفى الأمير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمنا طويلا ، وتقلد الامارة ولى عهدها شير على خان سنة ١٢٨٠ — ١٨٦٤ وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان أن يقضى على اخوته

(١) هذه الكلمة [illegible] الأفغانيون (أسعد آباد) [illegible] الأفغانيين يسقطون من بعض الكلمات حروف [illegible] ملحوظ فى بعض الكلم .

خصوصا من هو أكبر منه سنا ويعتقلهم ، فان لم يفعل سعوا بالناس الى الفتنة وألبوهم للفساد طلبا للاستبداد بالامارة .

وكان فى جيش هراة من اخوة الأمير ثلاثة : محمـــد أعظم ، ومحمد أسلم ، ومحمد أمين . وهوى الشيخ جمال الدين كان مع محمد أعظم ، فلما أحسوا بتدبير الأمير ، ومشـــورة الوزير أسرعوا الى الفرار وتفرقوا فى الولايات ، كل منهم ذهب الى ولايته التى كان يليها من قبل أبيه ، ليعتصم بمنعته فيها ، وطاشت بهم الفتن ، واشتعلت نيران الحروب الداخلية — وبعد مجـــالدات عنيفة عظم أمر محمـــد أعظم وابن أخيه عبـــد الرحمن (الأمير السابق) وتغلبا على عاصمة المملكة وانقذا محمد أفضل والد عبد الرحمن من سجن قزنة وسمياه أميرا على افغانستان ، ثم ادركه الموت بعد سنة وقام على الامارة بعده شقيقه محمد أعظم خان — وارتفعت منزلة الشيخ جمال الدين عنده فأحله محل الوزير الأول (١) وعظمت ثقته به فكان يلجأ اليه فى العظائم وما دونها .

وكادت تخلص حكومة الافغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال الدين لولا سوء ظن الأمير بالأغلب من ذوى قرابته فحمله هذا على تفويض مهمات من الأعمال الى أبنائه الأحداث وهم ، خلو م نالتجربة عراة عن الحنكة فساق الطيش أحدهم وكان حاكما فى قندحار على منازلة عمه شير على فى هراة — ولم يكن له من الملك سواها — وظن الفتى أنه يظفر ! فينال عند أبيه حظوة فيرفعه على سائر اخوته ، فلما تلاقى مع جيش عمه دفعته الجرأة على الانفراد عن جيشه فى مائتى جندى واخترق بها صفوف أعدائه ، فأوقع الرعب فى قلوبهم وكادوا ينهزمون لولا م االتفت يعقوب خان قائد شير على فوجد ذلك الغر المتهور منقطعا عن جيشه فكرعليهوأخذهأسيرا فتشتت جند قندهار وقوى الأمل عند — شير على — فحمل على قندهار واستولى عليها

---

(١) قال جورجي كوتشي فى تاريخه لجمال الدين : ان السيد بدت عليه منذ الصغر مخايل الذكاء النادر والشغف بكل ما له صلة بالفنون الحربية ـ وأن السيد اتصل بمحمد اعظم خان الذى اثار الحرب على شير على خان حربا عوانا لبثت تسفك فيها الدماء عشر سنين وكان السيد القائد الاكبر فى جيش محمد اعظم فاسترعى الأنظار بذكائه وبكفايته الباهرة ، ولم يكن محمد اعظم يستمع لنصحه اذ كان يوجس فى نفسه خيفة أن يساميه الى العرش . وقال أديب اسحاق أن محمد اعظم جعل السيد رئيسا لجنده فأقام على ذلك تسعة اعوام لا يرى الراحة ولا يستقر بمكان حتى دارت الدائرة على محمد أعظم فانصرف الأولياء عنه الا جمال الدين ونفر من الاولياء .

— وعادت الحرب الى شبابها — وعضد الانكليز شير على وبذلوا له قناطير من الذهب ففرقها فى الرؤساء والعاملين لمحمد أعظم . فبيعت أمانات ، ونقضت عهود ، وجددت خيانات ، وبعد حرب هائلة تغلب شير على وانهزم محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن فذهب عبد الرحمن الى بخارى (وعاد الى بلاده رحمه الله) وذهب محمد أعظم الى بلاد ايران ومات بعد أشهر فى مدينة نيسابور وبقى السيد جمال الدين فى كابل لم يمسسه الأمير بسوء احتراما لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوى ، الا أنه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به والانتقام منه ، بوجه يلتبس على الناس حقه بباطله ولهذا ، رأى السيد جمال الدين خيرا له أن يفارق بلاد الأفغان فاستأذن للحج فأذن له على شرط أن لا يمر ببلاد ايران كى لا يلتقى فيها بمحمد أعظم وكان لم يمت ، فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥ هجرية (١٨٦٨ م) بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر ، فلما وصل الى التخوم الهندية تلقته حكومة الهند بحفاوة فى اجلال (١) الا أنها لم تسمح له بطول الاقامة فى بلادها ولم تأذن للعلماء فى الاجتماع عليه الا على عين من رجالها فلم يقم أكثر من شهر ثم سيرته الى سواحل الهند فى أحد مراكبها على نفقتها الى السويس فجاء الى مصر ، وأقام بها نحو أربعين يوما ، تردد فيها على الجامع الأزهر ، وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين ، ومالوا اليه كل الميل ، وسألوه ان يقرأ لهم شرح الاظهار (٢) فقرأ لهم بعضا منه فى بيته ثم تحول عن الحجاز عزمه وتعجل بالسفر الى الآستانة .

وصل الى الآستانة ، وبعد أيام من وصوله ، أمكنه ملاقاة الصدر الأعظم عالى باشا (٣) ، ونزل منه منزلة الكرامة وعرف له الصدر فضله وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله ، وهو مع ذلك بزيه الأفغانى « قباء وكساء وعمامة عجراء » وحومت عليه لفضله قلوب الأمراء والوزراء ، وعلا ذكره بينهم وتناقلوا الثناء

---

(١) كانت الهند يومئذ تفور بالفتن وخشيت الحكومة الانجليزية أن يتصل الثوار بالسيد فاسرعت باخراجه فارتحل منها ليحج وكان معه خادمه أبو راتب وسنزيد هذا الأمر بيانا فى فصل (اثر جمال الدين فى الهند) .

(٢) الاظهار متن مختصر فى علم النحو الفه البركوى أشتهر عند الاتراك والولايات العربية التابعة لهم فى ذلك العهد وكان ذلك فى زيارته الى مصر فى أوائل سنة ١٨٧٠ م أواخر سنة ١٢٨٦ .

(٣) كان عالى باشا هذا من ساسة تركيا الافذاذ .

على علمه ودينه وأدبه — وهو غريب عن أزيائهم ولغتهم وعاداتهم ! وبعد ستة أشهر سمي عضوا في مجلس المعارف (١) فأدى حق الاستقامة في آرائه، وأشار الى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه على الذهاب اليها رفقاؤه . ومن تلك الطرق ما أحفظ عليه قلب شيخ الاسلام لتلك الأوقات وهو حسن فهمي أفندي لأنها كانت تمس شيئا من رزقه فأرصد له العنت حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ هـ . (نوفمبر سنة ١٨٧٠ م) فرغب اليه مدير دار الفنون تحسين أفندي أن يلقي فيها خطابا للحث على الصناعات فاعتذر اليه بضعفه في اللغة التركية فألح عليه تحسين أفندي فأنشأ خطابا طويلا كتبه قبل القائه وعرضه على وزير المعارف وكان صفوت باشا وعلى شرواني زاده وكان مشير الضابطية ، وعلى دولتلو منيف باشا ناظر المعارف وكان عضوا في مجلس المعارف واستحسنه كل منهم وأطنب في مدحته .

فلما كان اليوم المعين لاستماع الخطاب تسارع الناس الى دار الفنون ، واحتفل له جم غفير من رجال الحكومة وأعيان أهل العلم وأرباب الجرائد ، وحضر في الجمع معظم الوزراء . وصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة وألقى ما كان أعده ، وأرسل حسن فهمي أفندي أشعة نظره في تضاعيف الكلام ليصيب منه حجة للتمثيل به ، وما كان يجدها لو طلب حقا ، ولكن كان الخطاب في تشبيه المعيشة الانسانية ببدن حي (٢) .

---

(١) على انه افغاني كما قرر السيد في بعض احاديثه وكان الذى اقامه عضوا صفوت باشا وزير المعارف .

(٢) نذكر بهذه المناسبة رأى السيد جمال الدين الافغاني في علماء الترك .

كان ميكادو اليابان قد أرسل في زمن وجود السيد بالاستانة كتابا الى السلطان عبد الحميد يخطب فيه مودته ويقول : ان كلامنا ملك شرقي ، ومن مصلحتنا ومصلحة شعوبنا ان نتعارف ونتزاور ، وتكون الصلات بيننا قوية تجاه الدول والشعوب الغربية التي تنظر الينا بعين واحدة

انني ارى شعوب الافرنج يرسلون الى بلادنا دعاة الى دينهم — لحرية الدين عندنا ولا اراكم تفعلون ذلك ! فأنا أحب ان ترسلوا الينا دعاة يدعون الى دينكم (الاسلام) ويمكن أن يكون هؤلاء صلة معنوية بيننا وبينكم .

وقد اهتم السلطان لهذا الكتاب وامر بتأليف لجنة من كبار أهل الراى عنده للتشاور فيه ، وهم شيخ الاسلام وناظر المعارف بحضور السيد جمال الدين وآخرين فاستحسن شيخ الاسلام ووزير المعارف تأليف بعثة من علماء مدارس الاستانة لارسالها الى اليابان ، والسيد ساكت فوجه السلطان النظر اليه وسأله عن رأيه فقال ما حاصله :

يامولاى أن هؤلاء ينفرون المسلمين أنفسهم من الاسلام فكيف نطلب أن نناط بهم اقناع أمثال اليابانيين بالدخول كيه (١) انما الراى أن يربى طائفة من الاذكياء ويعلمون تعليما خاصا يؤهلهم للقيام بهذا الواجب في هذا العصر — ويكتفي جلالة السلطان الان بارسال كتاب ودى الى الميكادو مع هدية لائقة ، ويذكر له ان ما اقترحه قد وقع في أعلى مواقع الاستحسان وسننظر في تنفيذه بالصفة المرضية ، فعمل السلطان بهذا الرأى ولكن دون تنفيذ اقتراح التعليم الخاص . وكيف ينفذ والجمود ضارب اطنابه هناك ؟!

وان كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البـــدن ، تؤدى من المنفعة فى المعيشة ما يؤديه العضو فى البدن ، فشبه الملك مثلا بالمخ الذى هو مركز التدبير والارادة ، والحدادة بالعضد ، والزراعة بالكبد ، والملاحة بالرجلين ، ومضى فى سائر الصناعات والأعضاء حتى أتى على جميعها ببيان ضاف واف ، ثم قال : هذا ما يتألف منه جسم السعادة الانسانية ولا حياة لجسم بلا روح ، وروح هذا الجسم ، اما النبوة واما الحكمة ، ولكن يفرق بينهما بأن النبوة منحة الهية لا تنالها يد الكاسب ، يختص الله بها من يشاء من عباده . والله أعلم حيث يجعل رســالاته . أما الحكمة فمما يكتسب بالفــكر والنظر فى المعلومات ، وبأن النبى معصوم من الخطأ والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه ، وأن أحكام النبوات آتية على ما فى علم الله لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فالأخذ بها من فروض الايمان ، أما آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعها الا من باب ما هو الأولى والأفضل ، على شريطة أن لا تخالف الشرع الالهى ، هذا ما ذكره متعلقا بالنبوة ، وهو منطبق على ما أجمع عليه علماء الشريعة الاسلامية ، الا أن حسن فهمى أفندى شيخ الاسلام أقام من الحق باطلا ليصيب غرضه من الانتقام ، فأشاع أن الشيخ جمال الدين زعم أن النبوة صنعة ! واحتج لتثبيت الاشاعة بأنه ذكر النبوة فى خطاب يتعلق بالصناعة !! — وهكذا تكون حجج طلاب العنت — ثم أوعز الى الوعاظ فى المساجد أن يذكروا ذلك محفوفا بالتفنيد والتنديد ، فاهتم السيد جمال الدين للمدافعة عن نفسه واثبات براءته مما رمى به ورأى أن ذلك لا يكون الا بمحاكمة شيخ الاسلام ، (وكيف يكون ذلك ! لأ واشتد فى طلب المحاكمة وأخذت منه الحدة مبلغها وأكثرت الجرائد من القول فى المسألة فمنها نصراء للشيخ جمال الدين ، ومنها أعوان لشيخ الاسلام ! فأشار بعض أصحاب السيد عليه أن يلزم السكوت ، ويغضى على الكريهة ، وطول الزمان يتكفل باضمحلال الاشاعات وضعف أثرها فلم يقبل ، ولج فى طلب المخاصمة ، فعظم الأمر وآل الى صدور أمر الصدارة اليه بالجلاء عن الآستانة بضعة أشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ثم يعود ان شاء — ففارق الآستانة مظلوما فى حقه مغلوبا لحدته ، وحمله بعض من كان معه على التحول الى مصر فجاء اليها فى أول محرم سنة ١٢٨٨ (٢٣ مارس سنة ١٨٧١ م) .

هذا مجمل أمره فى الآستانة (١) :

ثم مال السيد جمال الدين الى مصر على قصـــد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها، ولم تكن له عزيمة على الاقامة بها ، حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا فاستمالته مساعيه الى المقام ، وأجرت عليه الحكومة وظيفة ألف قرش مصرى كل شهر نزلا أكرمته به ، لا فى مقابلة عمل ، واهتدى اليه بعد الاقامة كثير من طلبة العلم واستوروا زنده فأورى ، واستفاضوا بحره ففاض درا ، وحملوه على تدريس الكتب ، فقرأ من الكتب العالية فى فنون الكلام الأعلى ، والحكمة النظرية ، طبيعية وعقلية ، وفى علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الاسلامى ، وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ الى آخر ما اختتم ، ولم يذهب الى الأزهـــر يوما واحدا (٢) ! نعم كان يذهب اليه زائرا وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة .

عظم أمر الرجل فى نفوس طلاب العلوم ، واستجزلوا فوائد الأخذ عنه وأعجبوا بدينه وأدبه وانطلقت الألسن بالثناء عليه ، وانتشر صيته فى الديار المصرية .

ثم وجه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول فنشطت لذلك الباب واستضاءت بصائر ، وحمل تلامذته على العمل فى الكتابة وانشـــاء الفصول الأدبية والحكمية والدينية فاشتغلوا على نظره وبرعوا ، وتقدم فن الكتابة فى مصر بسعيه ، وكان أرباب القلم فى الديار المصرية القادرون على الاجادة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل ، وما كنا نعرف منهم الا عبد الله باشا فكرى ، وخيرى باشـــا ، ومحمد باشا ســـيد أحمد على ضعف فيه ، ومصطفى باشا وهبى على اختصاص فيه — ومن عدا هؤلاء فاما ساجعون

(١) كان سفر السـيد جمال الدين الى الاستانة أول مرة فى سنة ١٨٧٠ فى خلافة السلطان عبد العزيز وكان مما أغضب شيخ الاسلام فى الحقيقة مفاوضة السـيد معه فى موضوع الشريعة الاسلامية ووحدة جميع المسلمين أظهر فيها السيد افكاره الحرة فأوغر ذلك موطن التعصب من نفس الشيخ وحسده وخشى ان ينتهى الأمر باخراجه من مشيخة الاسلام فأوحى الى السلطان ان خطب السـيد جمال الدين ودروسه تثير الخواطر ، أما سفر السـيد الى الاستانة فى المرة الثانية فسنحدثك عنه حديثا طويلا فى مكانه من هذا الكتاب ان شاء الله .

(٢) يراجع موقف الأزهر من السـيد فى الفصل الذى عقدناه عن ذلك فى هذا الكتاب .

فى المراسلات الخاصة ، واما مصنفون فى بعض الفنون العربية ، أو الفقهية وما شاكلها .

ومن عشر سنوات (١) ترى كتبه فى القطر المصرى لا يشق غبارهم ، ولا يوطأ مضمارهم وأغلبهم أحداث فى السن شيوخ فى الصناعة ، وما منهم الا من أخذ عنه ، أو عن أحد تلامذته أو قلد المتصلين به ، ومنكر ذلك مكابر وللحق مدابر .

هذا ما حسده عليه أقوام (٢) واتخذوا سبيلا للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية أخذا بقول جماعة من المتأخرين فى تحريم النظر فيها ، على أن القائلين بهذا القول لم يطلقوه بل قيدوه بضعفاء العقول ، قصار النظر ، خشية على عقائدهم من الزيغ ، أما الثابتون فى ايمانهم فلهم النظر فى علوم الأولين والآخرين ، من موافقين لمذاهبهم أو مخالفين ، فلا يزيدهم ذلك الا بصيرة فى دينهم وقوة فى يقينهم ولنا فى أئمة الملة الاسلامية ألف حجة تقوم على ما نقول ! ولكن تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة الى رأى هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة ثم أيدهم أخلاط من الناس من مذاهب مختلفة كانوا يطرقون مجلسه فيسمعون ما لا يفهمون ثم يحرفون فى النقل عنه ولا يشعرون — غير أن هذا كله لم يؤثر فى مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله .

ولم يزل شأنه فى ارتفاع ، والقلوب عليه فى اجتماع ، الى أن تولى خديو مصر توفيق باشا وكان السيد من المؤيدين لمقاصده ، الناشرين لمحامده ، الا أن بعض المفسدين منهم « مستر فيفيان » قنصل انجلترا الجنرال سعى فيه لدى الجناب الخديوى ونقل المفسد عنه ، ما الله يعلم أنه برىء منه ، حتى غير قلب الخديوى عليه فأصدر أمره باخراجه من القطر المصرى هو وتابعه

(١) كتبت هذه الترجمة كما قلت من قبل فى سنة ١٨٨٥ م .

(٢) هؤلاء الاقوام هم شيوخ الدين الذين هم عقبة فى سبيل الاصلاح فى كل زمان ومكان، وقد اسودت صحائف التاريخ بأعمالهم فى كل عصر حتى لقد صدق الاستاذ الامام فى قوله عند احتضاره — رضى الله عنه :

ولست ابالى ان يقال محمد ... أبل او اكتظت عليه المآتم
ولكنه دين قد اردت صلاحه ... أحاذر ان تقضى عليه العمائم

أبو تراب .. ففارق مصر إلى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦ (١) « الموافقة سنة ١٨٧٩ » وأقام بحيدر آباد الدكن وفيها كتب رسالة (الرد على الدهريين) ولما كانت الفتنة الأخيرة بمصر (الثورة العرابية) ، دعي من حيدر آباد الى كلكته وألزمته حكومة الهند بالاقامة فيها حتى انقضى أمر مصر وفثأت الحرب الانكليزية ، ثم أبيح له الذهاب الى أى بلد فاختار الذهاب الى أوربا وأول مدينة أصعد اليها مدينة لندرة أقام بها أياما قلائل ، ثم انتقل عنها الى باريز وأقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات وافيناه فى أثنائها .

ولما كلفته جمعية العروة الوثقى (٢) أن ينشىء جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة تحت لواء الخلافة الاسلامية أيدها الله ، سألنى أن أقوم على تحريرها فأجبت ونشر من الجريدة ثمانية عشر عددا . وقد أخذت من قلوب الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا ما لم يأخذه قبلها وعظ واعظ ولا تنبيه منبه وذلك لخلوص النية فى تحريرها ، وصحة المقصد فى تحيرها ، ثم قامت الموانع دون الاستمرار فى اصدارها حيث قفلت أبواب الهند عنها واشتدت الحكومة الانجليزية فى اعنات من تصل اليهم فيه .

---

(١) من العجيب أن توفيق باشا قال له قبل حادثة النفى بأيام هذه العبارة : « انك موضع املى فى مصر أيها السيد !! » وهكذا تكون طبائع المستبدين الغادرين وقد كان نفيه ليلة الاحد سادس رمضان سنة ١٢٩٦ هـ ــ ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ فاخذ فى الطريق آخر الليل وهو ذاهب الى بيته هو وخادمه عارف أبو تراب الذى جاء معه من بلاد الأفغان ــ وكان السيد يحبه حبا جما ويلقبه بالفيلسوف الأمى تم حجزوه فى الضبطية ولم يمكن من أخذ ثيابه وفى الصباح حمل فى عربة متفلة الى محطة السكة الحديد ومنها ذهب تحت المراقبة الشديدة الى السويس ومنها أنزل الى البحر ليسافر الى « بوشهر » ومنها ذهب الى حيدر اباد فأقام عاما كتب فى أثنائه مذكرات كثيرة باللغتين الفارسية والافغانية وكتب بالفارسية رسالة الرد على الدهريين ولما نشبت الثورة العرابية ذهبوا به الى كلكتا ليقيم فيها حتى تنقضى الثورة اذ كان الانجليز يعتقدون ان له فيها يدا . ومما اتخذ معه من القسوة انه عندما أنزل فى البحر لم يكن على جسمه الا قميص واحد والوقت صيف والحرارة شديدة فتقرح جسده ولم يكن معه من النقود أكثر من ثلاثة جنيهات عثمانية وبعض قروش من الفضة ، وقد أخذ منه هذا المبلغ فى السويس فنزل البحر وليس معه شىء ! ولما شعر بذلك أحمد بك النقاوى قنصل ايران فى السويس حينئذ ذهب الى تشييعه وعرض عليه مبلغا وافرا من النقود فأبى أن يأخذ منه شيئا وقال كلمته المشهورة « أنتم الى هذا المال أحوج ، والليث لا يعدم فريسته أينما ذهب » . وذهب بعض تلامذته فوجدوا بعض أعوان الضبطية يعبثون بكتبه فدهشوا ورجعوا ، وكان عنده كتب كثيرة فى فنون شتى ، ومما يجب تسجيله للتاريخ ــ كما حقق المؤرخون أن نفيه لم يكن من مساعى قنصل انجلترا وحده وانما يرجع كذلك لما بثه من تعليم فلسفى هيج عليه الحاقدين من الأزهريين فجاءه الكيد من هنا وههنا رضى الله عنه .

وقد فرح توفيق بهذا النفى فرحا شديدا وشاركه فى هذا الفرح شيوخ الدين ، وكانوا معه على مائدة الافطار فى رمضان .

(٢) الف هذه الجمعية السيد جمال الدين من مسلمى الهند ومصر وشمال افريقية وسوريا ــ ص ١٧٢ من كتاب آدمس وكان قد انشأ فى مكة جمعية أم القرى لتدعو الى الجامعة الاسلامية وقد قضى السلطان على هذه الجمعية ــ ص ١٥ الثورة الفارسية .

وسنتكلم عن هذه الجمعية فيما بعد .

ثم بقى بعد ذلك مقيما بأوربا ، أشهرا فى باريز وأخرى فى لندرة الى أوائل شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠٣ (١) وفيه رجع الى البلاد الايرانية (٢).

ثم أخذ الأستاذ الامام يتكلم عن صفاته ومقاصده وأغراضه فى الحياة ووصف اخلاقه وشمائله فقال :

أخلاقه وشمائله

أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة فى صفاته ، وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسمع الا أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه ، فينقلب الحلم الى غضب تنقض منه الشهب ، فبينما هو حليم أواب ، اذ هو أسد وثاب ، وهو كريم يبذل ما بيده قوى الاعتماد على الله لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر ، عظيم الأمانة ، سهل لمن لاينه ، صعب لمن خاشنه ، طموح الى مقصده السياسى اذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول اليه ، وكثيرا ما كان التعجل علة الحرمان .

وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيـد من الغرور بزخارفها ، ولوع بعظائم الأمور ، عزوف عن صغارها ، شـجاع مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه ، الا أنه حديد المزاج ، وكثيرا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة ، الا أنه صا راليوم فى رسوخ الأطواد وثبات الأفناد . فخور بنسبه الى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، لا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر وبالجملة ففضله كعلمه والكمال لله وحده .

ولقد تواتر الخبر أنه كان من خلقه الأخذ بناصر كل منتم الى العلم وشد أزر كل ذى ميل للأدب ـــ ومع انـه كان كثير الانفة ، شـديد الوطأة على الحكام يعاملهم بالعجب والخيلاء ، ويرنو اليهم بعين المقت والازدراء ،تراه بالعكس ـــ كثير التعظيم والتكريم لأولياء العلم وانصاره مهما كانوا خاملين قاصرين ، يبذل لهم الأنس والدعة ، ويخفض جانب الرقة والدماثة ، ويواسى محتاجهم بكل ما يقدر عليه ، وتصل يده اليه .

---

(٢) الموافق اول فبراير سنة ١٨٨٦ .

(٣) الى هنا ينتهى كلام الأستاذ الامام محمد عبده عن تاريخ سيرته .

ومن مدهشات أحواله الدالة على ثبات جأشه ، وعفة نفسه أنه لما قبض عليه ليذهبوا به الى النفى — كان سائرا الى الخطر سير الشجاع الى الظفر ولما انزل الى البحر فى السويس خالى الجيب أتاه قنصل ايران بالسويس السيد النقادى ومعه نفر من تجار العجم وقدموا له مقدارا من المال قدره مئة جنيه على سبيل الهدية أو القرض الحسن فرده وقال كلمته المشهورة : « احفظوا هذا المال فأنتم اليه أحوج ، ان الليث لا يعدم فريسته حيثذهب » .

وقد فعل مثل ذلك مع شيخ أحنت الأيام ظهره وكان عضوا فى جمعية الماسون التى انشأها جمال الدين — سمع بنفيه وكان بالزقازيق فذهب الى محطتها ليراه ، ولأنه يعلم فقره فقد اخرج كيس نقوده ودسه فى جيب السيد ، فأخرجه وأعاده اليه مغضبا محتدا وقال له : خذ كيسك والا ألقيته تحت القطار ! أنا اخرج من مصر وليس فى جيبى الا ريال واحد !!

علو نفسه

وان اباء السيد جمال الدين عن اخذ هذا المال فى هذا الوقت الحرج ليدل دلالة واضحة على علو نفسه وعزتها — وعلو النفس يجمع كل الفضائل الانسانية ، وقد لازم هذا الخلق الكريم السيد جمال الدين فى كل موقف وقفه من حياته ، وكان لا يتخلى عنه مهما عظم الخطب واشتد بلاء المحن ، مما يدل على انه كان غريزة طبعت عليها نفسه العالية .

كان يتسامى عن التعصب

ومن علو نفسه واعتزازه بشخصه أنه كان يتسامى عن كل معانى التعصب لفرقة من الفرق الاسلامية أو مذهب من المذاهب الفقهية وكان ينفر كل النفور من كل معانى التعصب الضيق الممقوت الذى يلقى بين الناس الأحن والعداوات .

وقال الاستاذ عبد القادر المغربى الذى لقيه بالآستانة واجتمع به :

وما كان أجوده بالأحاديث ، وقص الأخبار على جلسائه ، فقد كان لا يبخل عليهم بجواب ، ولا يعييه خطاب .

هذا فيما يتعلق بالجد من الأمور ، أما لحين المطايبة وارسال النكت ، فهو الروض لا تهدأ عن التغريد اطياره ، ولا تألو فى نشر الشذى أزهاره ، وكنت أتخيل قبل اجتماعى بشيخنا الأفغانى وكثرة ما وصفوه لنا بالفلسفة والحكمة أننى سأراه عابس الوجه ، مهيب السمت ، شديد الاطراق ، قليل الكلام ، اذا سئل أجاب بالايجاز ، وأورد كلامه كما تورد الأحاجى والألغاز ! شأن أولئك الذين يسمون أنفسهم فلاسفة أو متفلسفين ، ويغمضون فيما يقولون أو يكتبون ، فلا يفهم ما يعنون ويقصدون .

أما فيلسوفنا (الأفغانى) فما كنا نراه الا مشرق الوجه ، منبسط الأسارير جذاب لحظ المقلتين ، تبرق عيناه وهو يحدث بما يسأل عنه ، وتنفرج شفتاه عن ابتسامة لطيفة حين سماعه النوادر من جلسائه ، ولهذا أحبه مريدوه ، وكثر زواره ، وشاعت فى الناس أخباره (١) .

زهده فى المال والرتب

كان السيد جمال الدين ينظر الى المال نظره الى التراب فلا يدخره ولا يعرف معنى تثميره ولا يتناول منه الا ما هو ضرورى للحياة ؛ ولما كان فى الاستانه كان عنده قهرمان هو الذى بيده الحساب ، والقبض والصرف ، اما هو فلا يدرى من ذلك شيئا .

وحاول السلطان أن يعطيه رتبة عالية كرتبة قاضى عسكر مثلا ، فأبى أن يقبل الرتبة ، وان يلبس كسوتها المزركشة بالقصب ، وكذلك قبول الوسام مهما كان عاليا فسألته (٢) عن ذلك قال : « أكون كالبغل يحمل على صدره الجلاجل » وبالجملة فلم يكن يؤخذ لا رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد كان راغبا عن الدنيا بحذافيرها عيوفا عن زينتها ، معرضا عن زخارفها ، وأما الرهبة فلم يكن يعرف الخوف الى قلبه سبيلا .

---

(١) ص ٤٧ و٤٨ من كتاب جمال الدين للمغربى .

(٢) هذا كلام الأمير شكيب ارسلان . ولهذه القصة بقية . دلك انه لما أحضرت للسيد شارات هده الرتبة وهى جبه قصفاضة ملونة وربة بالصدر والراس مذهبه وطلب منه أن يلبسها ابى وقال لرسول السلطان : قل له ان جمال الدين يرى أن زينة العلم أعلى الرتب وانه لا يريد أن يكون كالبغل المزركش يحمل على صدره الجلاجل يعرض بالصياد الذى كان قد بلغ من رتب الدولة أعلاها ونال من زينة المراتب أثمنها وأغلاها .

عاداته فى الأكل والشرب والنـــوم

قال تلميذه أديب اسحاق :

كان السيد عفيف النفس قانتا ، كثير القيام ، لا ينام الا الغلس الى الضحى ، ولا يأكل غير مرة واحدة فى اليـــوم على انه كان يكثر من شرب الشاى والتدخين .

خلقه وشىء من صفاته

أتينا من قبل عن شىء من وصف أخلاقه وشمائله ، وتتم القول بوصف خلقه وصورته عن الذين رأوه رأى العين :

قال الاستاذ الامام محمد عبده :

أما خلقه فهو يمثل لناظره عربيا محضا من أهالى الحرمين ، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين من سكنة الحجاز حماه الله ، ربعة فى طوله . وسط فى بنيته ، قمحى فى لونه — عصبى دموى فى مزاجه عظيم ، الرأس فى اعتدال ، عريض الجبهة فى تناسب ، واسع العينين عظيم الاحداق ضـــخم الوجنات رحب الصدر جليل فى النظر هش بش عند اللقاء ، قد وفاه الله من كمال خلفه ، ما ينطبق على كمال خلقه .

وقال اديب اسحاق :

والعهد بهذا الحكيم أنه أسمر اللون ربعة ، ممتلىء قوى البنية ، جذاب النظر ، نافــذ اللحظ ، خفيف العارضين مسترسل الشعر بجبـــة وسراويلات ســـوداء ، تنطبق على الكاحلين ، وعمامة صغيرة بيضـــاء على زى علمـــاء الآستانة .

وقال سليم العنحورى :

كان أسمر اللون نحيف البنية أهيف القـــامة جذاب الملامح خفيف العارضين ، حاد البصر ، يكاد يتطاير الشرر من حدقتيه ـــ يلبس الســـواد ويتزيا بزى العلماء طلى الكلام ذرب اللسان ، فصيح اللهجة ، بليغ العبارة ، مليح النكتة ، سمح الكف ، طلق المحيـــا ، وقور السمت ، يجتنب النســـاء

ويفطم نفسه عن الشهوات يكره الحلو ، ويحب المر ، يأكل الوجبة مرة كل يوم ويكثر من شرب الشاى واذا رام انشاء مقالة ألقى على كاتب من مثل ابراهيم اللقانى القاء قلما يراجعه ويصلحه فيجىء من أول وهلة مسبوكا مفرغ المعانى بقـوالب لفظ لا تنقص عنها ولا تزيد ، فـسـبحان من خلقه بهذه الأطوار وجمله بهذه الآثار انه فعال لما يريد .

وقال الفيلسوف شبلى شميل :

كان السيد جمال محبوبا ونظره كان جذابا ، وله عينان الى السواد ، غائرتان قليلا تتقدان ذكاء .

كان السيد يتوسع فى اتيان بعض المباحات

قال الاستاذ الامام فى ترجمة شيخه :

بقى علينا أن نذكر له وصفا لو سكتنا عنه سئلنا عن اغفاله ، وهو أنه كان فى مصر يتوسع فى اتيان بعض المباحات ، كالجلوس فى المتنزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين ، وتفرج المحزونين ، لكن مع غاية الحشمة ، وكمال الوقار ، وكان مجلسه فى تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية فكان بعيدا من اللغو ، منزها عن اللهو ، وكان يوافيه فيها كثير من الأمراء ، وأربا بالمقامات العالية وأهل العلم .

وهذا الوصف ربما عده عليـه بعض حاسديه ، ولكن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، وأى غضاضة على المرء المؤمن فى أن يفرج بعض همه بما أباح الله له !

ذكاؤه وفطنته

قبل أن تتكلم عن علم السيد ومعرفته نمهد لذلك بهذه السطور :

اجمـع الذين عرفوا السيد جمـال الدين وعاشروه ، ودرسـوا عليه واختبروه . انه كان آية فى الذكاء والعظمة ، بحيث لا يكاد يدانيه فى ذلك أحـد .

قال جورجى كوتشى :

« وكان (السيد) عظيم الفطنة فى ملاحظة الأمور ، نسيج وحده فى قوة الذاكرة ، يهيم بالعلم هياما ، وقد استرعى الأنظار منذ حداثة السن بذكائه النادر .

وقال مستر بلانت فى كتابه التاريخ السرى لاحتـلال انجلترا مصر ، وكان صديقا حميما للسيد :

« كان السيد حاد الذكاء قوى الحافظة حتى قيـل انه يستطيع ان يقرأ كتابا برمته — فى أى موضوع — ثم لا يشرد من ذهنه كلمة بعد ذلك » .

وقال تلميذه النجيب الكاتب الشاعر أديب اسحاق :

هو الحكيم الخطيب البالغ الحجة النبيه المتوقد الذكاء الجرىء — ومن عجائب ذكائه انه تعلم اللغة الفرنسية حتى صار يقدر على الترجمة منها ويحفظ من مفرداتها شيئا كثيرا فى أقل من ثلاثة اشهر بلا استاذ الا من علمه حروف هجائها فى يومين (١) .

وقال الدكتور شبلى شميل — وكان قد اجتمع به وسبرغوره وسمعه :

« كان السيد ذا ذكاء مفرط وأدب رائع مع شجاعة فى القول لا تصدر الا عن نفوس مستقلة كريمة ــ وكان ذا حديث طلى شهى لا يمل سامعه ، مع فصاحة عربية فى التزامه القواعد ، واختيار الألفـاظ ، وكان معروفا بسرعة الخاطر وحدة الذهن .

ولا نستوفى كل ما قيل فى هذا الصدد حتى لا نطيل على القارىء .

منزلته من العلم

قال الاستاذ الامام محمد عبده يصف منزلته من العلم :

أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمى الا بنوع من الاشارة اليها .

---

(١) وتماما على ما قاله اديب اسحاق انه كان يعرف اللغـات الفرسية والعربية والتركية والانجليزية غير الفرنسية .

لهذا الرجل سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وابرازها فى صورها اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له . وله قــوة فى حل ما يعضل منها كأنه سلطان شــديد البطش فنظرة منه تفكك عقدها ، كل موضــوع يلقى اليه ، يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه ، فيأتى على أطرافه ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه فيظهر المستور منه — واذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها . ثم له فى باب الشعريات قدرة على الاختراع كأن ذهنه عالم الصنع والابداع ، وله لسن فى الجدل وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيهما أحد ، الا أن يكون فى الناس من لا نعرفه ، وكفاك شاهدا على ذلك أنه ما خاصم أحدا الا خصمه ، ولا جادله عالم الا ألزمه .

وقد اعترف له الأوروبيون بذلك بعد ما أقر له الشرقيون .

وبالجملة فانى لو قلت : ان ما أتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة ، هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقال تلميذه النجيب أديب اسحاق فى ترجمة طويلة (١) :

« وطلب العلم بالفارسية (٢) والعربية عــلى ما جرت به عادة الامراء والعلماء فى بلاده ، فتبحر فى المنقول والمعقــول ، وغلبت عليه مذاهب قدماء الحكماء ، فداخله فى ذلك بداءة بدء شىء من التصوف فانقطع حينــا بمنزله يطلب الخلوة ، لكشف الطريقة ، وادراك الحقيقة حتى صار له فى القوم كثير من الأتباع والمريدين ، كل ذلك وهو دون العشرين سنا . ثم خرج من خلوته مستقر الرأى على حكم العقل ، واصــول الفلسفة القياسية ــ ومن غرائب فضله انه كان يتتبع حركة المعارف الأوربية والمكتشفات العصرية ويلم بما وضع أهل العلم وما اخترعوه جديدا ، حتى كأنه قرأ العلوم فى بعض مدارس أوروبا العالية » .

---

(١) هذه الترجمة موجودة بكتاب الدرر من صفحة ٨٥ الى ٨٧ وقد قال فيها أديب اسحاق : عرفت صاحب الترجمة بمصر ، وكنت من مريديه ، وخاصة محبيه ، طول مدة الاقامة بالمحروسة (القاهرة) والاسكندرية ، فكلامى فى ترجمة حاله عن علم واختبار ، على أننى ملتزم فيه جانب الصدق ، برىء من الهوى ، يعرف هذا كل من عرف السيد جمال الدين ، والله على ما أقول وكيل .

(٢) ولغة الفشتو التى هى الفارسية اللغة الوطنية فى أفغانستان .

وقال الكاتب الشاعر سليم العنحورى فى شرح ديوان سحر هاروت من ترجمة طويلة :

« هو السيد جمال الدين العالم الفيلسوف الشهير ، نبغ فى بلاد الافغان فتعلم فيها اللغة الفارسية والعلوم الدينية والمنطق ـ ولما انتقل الى الهند أخذ عن علماء البراهمة والاسلام جل العلوم الشرقية والتاريخ ، وتبحر فى لغة (السانسكريت (١) أم لغات الشرق وبرز فى علم الأديان .

وقال جورجى كوتشى صفيه فى آخر أيام حياته بالآستانة :

« لم تعق جمال الدين اسفاره البعيدة ، ومشاغل الحياة الكثيرة عن اتقان المعارف العالية التى كان له اليها نزوع أى نزوع .

احاط خبرا ـ وهو لا يزال فى عهد الصبا ـ بكل الكتب القديمة الفارسية والعربية المدونة فى جميع الموضوعات .

ولم يكن يغيب عن اطلاعه شىء مما يترجم من محدثات الكتب الى اللغات الشرقية .

وقد كان مؤرخا جليلا وفيلسوفا واسع الاطلاع ، مالكا ناصية العلوم الأخلاقية والطبيعية ـ وخطيبا بارعا ـ لذلك سار فى الآفاق ذكره لسان صدق عليا ، وسيبقى على الأيام خالدا .

مجالس علمه وطريقته فى التدريس

قال تلميذه النجيب أديب اسحاق يصف حلقة تدريسه بمصر بعد أن جرى له ما جرى من شيوخ الأزهر (٢) :

فانقطع الى منزله وصار له حلقة تدريس يحضرها كثير من الطلبة ، بل [illegible] ثم صارت تغشى الأمراء من رجال الحكومة الوجهاء ، نكان [illegible] بسائرهم طريق النجاة من الخرافة [illegible] .

[illegible] يصف كيف كان يلقى دروسه :

[illegible] من بيننا [illegible] ، وخشنا [illegible] ، جال معولهم

(١) اللغة السنسكريت وتسمى اللغة السامية واللغة الجامعة أى لغة الارستقراطية الدينية من عمد الهند ما لغة الناس العامة فهى (الباركريتيه) .
(٢) سنحدث عن ذلك فى فصل (موقف الأزهر من السيد جمال الدين) .

عليه ، ومصدرهم عنه ومورِدهم اليه .. واتخذ له فى حارة اليهود بيتا ما لبث أن صار منتدى العلماء والأدباء . ومحط رحال الطلبة الأذكياء — وكان من ديدنه أن يقطع بياض نهاره فى داره حتى اذا جن الظلام خرج متوكئا على عصاه الى ملهى قرب الأزبكية يدعى « قهوة البوسطة » وجلس فى صدر فئة تتألف حوله على هيئة نصف دائرة ينتظم فى سمطها اللغوى والشاعر والمنطقى والطبيب والكيماوى والتاريخى والجغرافى والمهندس والطبيعى ، فيتسابقون الى القاء أدق المسائل عليه ، وبسط أعوص الأحاجى لديه ، فيحل عقد اشكالها فردا فردا ، ويفتح اغلاق طلاسمها ورموزها واحدا واحدا بلسان عربى مبين ، لا يتلعثم ولا يتردد بل يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال ، فيدهش السامعين ، ويفحم السائلين ، ويبكم المعترضين ولا يبرح هذا الشأن شأنه حتى يشتعل رأس الليل شيبا ، وترعى غزالة الصبح نرجس الظلم ، فيقفل الى داره بعد أن ينقد صاحب الملهى كل ما يترتب له فى ذمة الداخلين فى عداد ذلك المجمع الأنيق » .

وكانت طريقة السيد فى التدريس : ان يبسط المسألة العلمية ، ويشرح معناها بما يجليها للسامع من جميع نواحيها ثم يقرأ عبارة الكتاب فيها ، ويطبقها عليها فاذا انطبقت والا أبان ما فيها من التقصير — أو يقرأ العبّارة ، ويبحث فى دليلها فيقره أو يفنده ، ويجزم بغيره وبذلك يفهمها السامع من أول وهلة .

وقال الأستاذ الامام محمد عبده :

ان بعض الناس يوجد فيهم خاصية ، انهم يقدرون على الكلام فى أى موضوع ، أمام أى انسان ، سواء كان يدرك الكلام ويقبله أم لا .

وهذه الخاصية كانت موجودة عند السيد جمال الدين ، دقق الحكمة لمريديها وغير مريديها وان لم يكن من أربابها . وكذا يلقى تنبيهات الآراء السياسية لكل أحد فتؤثر فيه اذ كان من خواصه أن يجذب محدثه الى ما يريد .

وكان فى جميع أوقات اجتماعه مع الناس لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس الى معالى الأمور ، أو يستلفت الفكر الى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ،

فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة فى البلاد خصوصا فى القاهرة .

وقل الدكتور شبلى شميل :

كان جمال الدين من الفلاسفة الرواقيين — أى أنه كان ينشر تعاليمه من طريق المحادثات الاعتيادية ، ولكنها كانت محادثات خلابة ، فى لذة المعنى وحسن الانسجام .

تواضع السيد جمال الدين

سئل (١) سئل رحمه الله عن ترجمة حاله ، فابتسم وقال :

ان البيان لا يحتاج الى ترجمـــان ، قل لهم ما قاله فلان (٢) عن انه (سرسرى) (٣) يعنى متشرد تائه فى الأرض ثم قال :

وأى نفع لمن يذكر اننى ولدت سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م) وعمرت أكثر من نصف عصر واضطررت لترك بلادى (الافغان) مضطربة ، تتلاعب بها الأهواء والأغراض ، وأكرهت على مبارحة الهند ، وأجبرت على الابتعاد عن مصر ، أو ان شئت قل : نفيت منها ! ومن الاســـتانة ، ومن أكثر عواصم الأرض كل هذه الأحـــوال — خاطرات لا تسرنى وليس فيها أدنى فائدة للقوم .

أما القول : بانها لا تسرنى ـــ لا بمعنى انى نفيت من البلاد أو سجنت ـــ كلا ـــ لأنى أعتقد ان السجن فى طلب الحق من الظالمين العتاة (رياضة) والنفى فى ذلك السبيل (سياحة) والقتل شهادة ، وهى أسمى المراتب فأنا عن نفسى غير راض ، ذلك لأن الخمول قد اقعدنى فلم يوصلنى الى اسمى مرتبة — وهى مرتبة الشهداء (٤) ، وحظى فى مصاف المنفيين من أرض الى أرض والمسجونين فيها ! فما أبعدنى فى كل هذا عن أولى الهمم ، ومن قام بالأعمال الخطيرة (أو المطلب الجليل) (٥) .

(١) السائل هو محمد المخزومى باشا صـــاحب كتاب خاطرات حمال الدين .

(٢) فلان هدا هو أبوالضلال الذى أكل الحسد صدره من السيد جمال الدين ، وفعل معه فعلاته .

(٣) سر سرى يعنى متشرد تائه فى الارض .

(٤) كان السيد جمال الدين يتمنى أن يصل الى أسمى مرتبة وهى مرتبة (الشهداء) وقد

(٥) صفحة ٢١ ـ ٢٣ من كتاب خاطرات جمال الدين .

الغاية التى كان يرمى اليها
جمال الدين فى حياته

تكلم الدكتور تشارلز أوس عن الغاية التى كان يرمى اليها السيد جمال الدين فقال : (١) كانت الغاية التى يرمى اليها جمال الدين ، والغرض الأول من جميع جهوده التى لا تعرف الكلل ، ومن اثارته للنفوس وتهييجه المتواصل للناس . توحيد كلمة الاسلام ، وجمع شمل المسلمين فى سائر أقطار العالم ، كما كانت الحال أيام الاسلام المجيدة وعصره الذهبى ، وقبل أن نوهن منه الفرقة والانقسام ، وقد باتت أقطار المسلمين غارقة فى وهدة الجهل واليأس ، فأصبحت فريسة للاعتداء الأوروبى ، وقد آلمه أشد الألم أن يرى الأمم الاسلامية يضعف أمرها ، وترث قواها ، وكان يعتقد أن الأمم الاسلامية لو نفضت عن نفسها كابوس الاحتلال الأجنبى وتحررت من تدخل الدول الأجنبية فى شئونها ، وصلح حال الاسلام ، وتوافق مع مقتضيات الحياة فى العصر الحاضر ، لأصبح المسلمون قادرين على تدبير أمورهم تدبيرا حسنا ، دون أن يعتمدوا على الأمم الأوروبية أو يصطنعوا وسائلها .

الاسلام دين عام للعالم اجمع

وكان يرى أن الاسلام — فى جميع المسائل الجوهرية — دين عام شامل للعالم أجمع قادر تمام القدرة بما فيه من قوة روحية على ملاءمة الظروف المتغيرة فى كل جيل .

وكان من خاصة مزاج الرجل — ان الوسائل التى تخيرها لتحقيق غاياته — كانت وسائل الثورة السياسية ، فقد خيل اليه أنها أسرع الطرق وأفضلها فى تحرير الشعوب الاسلامية وتغذيتها بالحرية الضرورية لتنظيم شئونها ، أما وسائل الاصلاح التدريجى والتعليم فكان يرى أنها بطيئة جدا غير محققة العاقبة .

---

(١) ص ١٤ من كتاب الاسلام والتجديد فى مصر.

كان يريد أن يرى قبل موته تحقيق النتائج فكافح لقلب النظام القائم ، وكان يرى جواز خلع وقتل أمراء المسلمين الذين يشجعون الاعتداء الأوربى ، أو يرضون عنه ، فيقيمون بذلك الحوائل بين الناس وبين خلاصهم على ما يرجون .

ومع هذا فقد كان لجميع غاياته المتطرفة ، وللوسائل التى يصطنعها وجه انشائى ، يبدو واضحا فى أعماله ، وينبغى ألا نغفل حسابه . كان يحبا بالرجاء الصادق فى تجديد الاسلام ، والأمل القوى فى امكانه ذلك الأمل الذى يلهب النفوس بعدواه .

وبينما السيد جمال الدين يقول بالثورة السياسية لتحقيق الاصلاح المنشود كان تلميذه الأستاذ الامام محمد عبده يرى أن اليقظة الدينية والسياسية والاجتماعية انما تحقق بالعلم الصحيح ، ومما لا ريب ان كلاهما قد ساهم أكثر من غيرهما فى تمزيق ثوب المحافظة والرجعية التى التقى بها الاسلام منذ العصور الوسطى .

مقصد السيد السياسى

قال الأستاذ الامام محمد عبده عن مقصده السياسى ما يلى :

أما مقصده السياسى الذى قد وجه اليه أفكاره وأخذ على نفسه السعى اليه مدة حياته ، وكل ما أصابه من البلاء أصابه فى سبيله ، فهو انهاض دولة اسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام على شئونها حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة ، والدولة بالدول القوية فيعود للاسلام شأنه ، وللدين الحنيف مجده ، ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية وتقليص ظلها عن رءوس الطوائف الاسلامية ، وله فى عداوة الانجليز شئون يطول بيانها (١) .

---

(١) بغض السيد للانجليز ومقته لهم أمر مشهور ومن قول أديب اسحاق فى ترجمة السيد : « وكان السيد شديد الكراهية لدولة الانكليز جهر بذلك غير مرة ونشر فى جريدة مصر فصولا ناطقة بذلك » .

وقال سليم العنحورى فى شرح ديوان (سحر هاروت) يشير الى البغض الشديد الذى يحمله السيد جمال الدين للانجليز حتى ضرب الناس فى هذا البغض المثل وقالوا فيه الشعر .

ومن هذا الشعر قول الخورى :

ترنو الى بمقلة غضبى اذا بصرت بطود سال كالوديان
فكأننى بيكونسفيلد زمانه وكأنها فى بغضها الأفغانى

وبيكونسفيلد هذا هو الوزير الانجليزى السياسى الكبير وكان يدعى فى أول الأمر دزرائيلى ١٨٠٤–١٨٨١ .

هذا هو مقصد السيد السياسى — ولم يكن السيد يقصد دولة تجمع أمر المسلمين جميعا لأن هذا كما قال عسير ومن أجل ذلك بنى ما يقصده فى معرض تنبيه المسلمين وحثهم على الوحدة ، فقال فى مقال عنوانه « الوحدة الاسلامية » (١) ما يلى :

(لا التمس بقولى أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدا ، فان هذا ربما يكون عسيرا ، ولكن أرجو أن يكون سلطان جميعهم (القرآن) ووجهة وحدتهم (الدين) وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فان حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه الا أن هذا بعد كونه أساسا لدينهم تقضى به الضرورة ، وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات ، هذا آن الاتفاق ، هذا آن الاتفاق (٢) ألا ان الزمان يواتيكم بالفرص وهى لكم غنائم » .

دعوة السيد السياسة المتطرفة

وتكلم آدمس عن دعوته السياسة المتطرفة فقال :

ومن الميسور أن نفهم كيف أن دعوته السياسية المتطرفة وجدت أرضا خصبة ، وأفئدة متحفزة لتلبيتها بين شباب الوطنيين الذين لم يهيىء لهم ميدان الهياج السياسى وسيلة سريعة وأداة سهلة لتحقيق الاستقلال القومى فحسب ، بل هيأ لهم فوق ذلك الفرصة للافصاح عن العواطف الصحيحة والتفكير الحى العميق ، بينما نجد أن الاصلاحات الأساسية التى نادى بها ودعا اليها ، والتى كان ينبغى لها قسط أوفر من الهدوء والاتزان . قل أنصارها ومؤازرتها .

على أن آراءه الانشائية التى كانت حجر الزاوية فى تعاليمه يبدو أثرها واضحا كل الوضوح فى حياة محمد عبده وعمله : وهو أحد تلاميذه ، وقد تشرب روح أستاذه تشربا عميقا .

---

(٢) كان قد اشتهر بين الناس أن السيد يريد من وراء جهده أن يكون للمسلمين دولة واحدة تحت راية واحدة ولكنه فى الحقيقة لم يقصد ذلك ، ولم يصرح به لا فى العروة الوثقى ولا فى غيرها ولا جاء ذكره على لسان أحد من تلاميذه بل لقد صرح بما ينفى ذلك وذلك فى المقالة التى نشرنا عنوانها هنا وقد نشرت فى العدد التاسع من العروة الوثقى الذى صدر فى ٢٥ رجب سنة ١٣٠١ ، ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤ .

(١) هذا تنبيه صارخ صاح به السيد منذ ثمانين سنة وكأنه ينادينا به فى هذا الوقت العصيب الذى يجب على كل شىء فى أن يقول فيه : آن الاتفاق ! آن الاتفاق .

السيد جمال الدين وجه كل عنايته للسياسة

قال الأستاذ الامام محمد عبده :

السيد جمال الدين رجل عالم وأعرف الناس بالاسلام ، وحالة المسلمين ، وكان قادرا على النفع العظيم بالافادة والتعليم ، ولكنه وجه كل عنايته الى السياسة فضاع استعداده هذا واتى أعجب لجعل نبهاء المسلمين وجرائدهم — كل همهم فى السياسة ، واهمالهم أمر التربية الذى هو كل شيء ، وعليه يبنى كل شيء !

ان السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الاسلام أكبر فائدة ، وقد عرضت عليه حين كنا فى باريس أن تترك السياسة ونذهب الى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات ، ونعلم ونربى من نختار من التلاميذ على مشربنا ، فلا تمضى عشر سنين الا ويكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الاصلاح المطلوب فينتشر أحسن الانتشار ! فقال : انما أنت مثبط !

لم يتكلم الأستاذ الامام فيما ذكره آنفا من تاريخ السيد جمال الدين عن صفته العسكرية وهى ناحية مهمة من صفاته — يجب أن تعرف . ولعل الامام قد اكتفى بما ذكره من خوضه لغمرات الحروب حينما كان الوزير الأول والقائد الأكبر فى جيش محمد أعظم ببلاده ذلك بأن من البديهى أن من يقتحم بشجاعة ميادين القتال ، ويبرز ببطولة الى حلبات الصيال ، ويتمرس بالحروب ، انما يكون ولا ريب قد استوفى حظه من الخبرة العسكرية والدراية بالفنون الحربية .

ولكى يكمل الكلام فى صفات السيد جمال الدين هنا فقد رأينا أن نشير الى هذه الصفة اشارة وجيزة حتى يكون تاريخنا لهذا العظيم تاما مستوعبا .

نشأة جمال الدين العسكرية
وبدء حياته العملية

قد علم من حياة السيد جمال الدين ، أنه بعد أن تثقف فى دراساته فى بلاده وفى بلاد الهند بمختلف الثقافات العلمية حتى صار اماما فى كل علم بدأ حياته فى بلاده يخوض غمرات الحروب الطاحنة اذ كان القائد الأكبر لجيش الأمير دوست محمد خان ثم لجيش ابنه محمد أعظم وقد ظلت هذه الحروب مستعرة عشرات الأعوام كما علمت .

ومما لا خلاف فيه أن النشأة الحربية لا تصدر الا عن شجاعة وجرأة واقدام .

ولم تكن هذه الحياة غريبة عليه ولا عجيبة منه وقد قال فى ذلك جورجى كوتشى فيما أرخ له به من قبل « قد بدت عليه منذ الصغر مخايل الذكاء النادر والشغف بكل ما له صلة بالفنون العسكرية » فهو بهذا يكون قد نشأ بفطرته شجاعا باسلا ، ومارسها بطلا قائدا فاذا أضفت الى ذلك أنه نشأ من بيت عريق فى المجد والشرف تزينه السيادة والامارة ، والحكم على بعض بلاد الأفغان فترة من الزمن — وتربى على مهاد العز والسؤدد ، وما طبع عليه من عزة النفس التى كانت من أخص صفاته ، ولازمته طول حياته ، أمكنك أن تعرف جوانب كثيرة من شخصيته العظيمة .

واذا كانت حروبه فى بلاده قد انتهت بما لا يهوى فان ذلك لم يكن عن ضعف فى جيشه ، ولا وهن فى نفسه ، وانما كان مرده الى خيانة الخائنين ، والى ما بذله الانجليز من الأموال الكثيرة فى شراء الذمم الوضيعة ودس الدسائس وقد فصل ذلك من قبل الأستاذ الامام فارجع اليه ان شئت .

و لاريب فى أن هذه الفترة فى حياة السيد جمال الدين قد علمته دروسا قاسية ، اذ كشفت له عن مبلغ كيد الانجليز ومطامعهم وأغراضهم فى استعمار الأمم الشرقية عامة والاسلامية خاصة ، ولهذا كله انغرس فى قلبه روح المقت والبغضاء وشديد العداء للانجليز وظل يحاربهم طول حياته .

جمال الدين هو الباعث الرئيسى الأول للروح العصرية فى الإسلام

واذا كان السيد جمال الدين الأفغانى هو الموقظ الأعظم للشرق ، وباعث نهضته ، فانه كذلك الباعث الرئيسى الأول للروح العصرية فى الاسلام .

قال مؤلفو تاريخ العرب المطول :

ويعتبر جمال الدين الباعث الرئيسى الأول للروح العصرية فى الاسلام (١) .

وقال المستشرق الألمانى الكبير كارل بروكلمان فى كتاب تاريخ الشعوب الاسلامية تحت عنوان « حركة التجديد الدينى ـ جمال الدين الأفغانى » .

مهما يكن من أمر فقد كان الاسلام ـ ولا يزال ـ هو المهيمن على الحياة الدينية فى مصر وانما يرجع الفضل فى ذلك — فى المحل الأول الى تأثير جمال الدين (٢) .

وقال العلامة غولدسيهر المستشرق المجرى المشهور وشيخ المستشرقين فى العلوم الشرعية :

كان للسيد جمال الدين تأثير عظيم فى حركات الحرية ، والمنازع الثورية التى جدت فى العشرات الأخيرة من هذه السنين فى الحكومات الاسلامية ، وكانت حركته ترمى الى تحرير هذه الممالك من السيطرة الأوربية ، وانقاذها من الاستغلال الأجنبى ، والى ترقية شئونها الداخلية بتأسيس ادارات حرة ، الى أن قال :

فجمال الدين بقلبه ولسانه كان أصدق ممثل لفكرة الجامعة الاسلامية .

---

(١) ص ٨٨٨ ح ٣ .
(٢) ص ١٠٢ و١٠٣ ح ٤ .

اليقظة الإسلامية
فى القرن الثامن عشر

* لا يعرف فضل المصلحين فى أى عصر من العصور الا بمقدار ما يؤدون للناس من عمل ، وما يقومون به من اصلاح ، ولا تبدو أعمالهم على حقيقتها الا بالوقوف على أحوال أممهم ، وما آلت اليــه بلادهم من تأخر وانحطاط عند ظهورهم .

ومثل السيد جمال الأفغانى وهو المصلح الأعظم للشرق ، لا يعرف فضله على بلاد الشرق عامة ، والأمم الاسلامية خاصة ، الا اذا عرفت أحوال هذه الأمم من كل نواحيها الدينية والاجتماعية والسياسية فى القرن التاسع عشر الذى ظهر فيه برسالته ، وان أصدق من فصل القول فى ذلك وأتى به على أكمل وجه ، لهو الكاتب الكبير لوثروب استوادرد فى كتابه (حاضر العالم الاسلامى) .

وقد رأينا أن نورد هنا خلاصة مما قاله هذا المفكر النابه حتى تتجلى للناس رسالة السيد جمال الدين على حقيقتها ، ويدركوا مكانه بين سائر المصلحين ، وأنه فى رسالته وعمله وجهاده كان أمة وحده بين العالمين .

قال العلامة لوثروب :

« كان العالم الاسلامى فى القرن الثامن عشر قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ ، ومن التدنى والانحطاط أعمق دركة ، فاربد جوه ، وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ، ورجا من أرجائه ، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب ، وتلاشى ما كان باقيا من آثار التهذيب العربى ، واستغرقت الأمم الاسلامية فى اتباع الأهواء والشهوات . وماتت الفضيلة فى الناس وساد

(*) من كتاب حاضر العالم الاسلامى للكاتب الكبير لوثروب استودارد نقله الى العربية الاستاذ عجاج نويهض ، وفيه فصول وتعليقات وحواش لأمير البيان الامير شكيب ارسلان ص ٢٥٩ ج ١ وما بعدها الى ص ٣١١ .

الجهل ، وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ، وانقلبت الحكومات الاسلامية الى مطايا استبداد وفوضى واغتيال ، فليس يرى فى العالم الاسلامى ذلك العهد سوى المستبدين الغاشمين كسلطان تركيا ، وأواخر ملوك المغول فى الهند ، يحكمون حكما واهنا .. وقام كثير من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التى هم فى حكمها وينشئون حكومات مستقلة مستبدة ، كحكومة الدولة التى خرجوا عليها ، فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون اخضاع من فى حكمهم من الزعماء هنا وهناك ، فكثر السلب والنهب ، وفقد الأمن،وصارت السماء تمطر ظلما وجورا .

وجاء فوق جميع ذلك رجال الدين المستبدون يزيدون الرعايا ارهاقا فوق ارهاق فقلت الأيدى وقعدت عن طلب الرزق ، وكاد العزم يتلاشى فى نفوس المسلمين ، وبارت التجارة بوارا شديدا وأهملت الزراعة أيما اهمال .

وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء ، فألبست الوحدانية ـــ التى علمها صاحب الرسالة الناس ـــ سجفا من الخرافات وقشور الصوفية ..

وكثر عديد من الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان الى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات ، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ، ويرغبونهم فى الحج الى قبور الأولياء ، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور ، وغابت عن الناس فضائل القرآن ، فصار يشرب الخمر ويتعاطى الأفيون فى كل مكان ، وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء . ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرهما من سائر مدن الاسلام . فصار الحجّ المقدس الذى فرضه النبى على من استطاعه ضربا من ضروب المستهزآت . وعلى العموم فقد بدل المسلمون غير المسلمين ، وهبطوا مهبطا بعيد القرار . فلو عاد صاحب الرسالة الى الأرض فى ذلك العصر ورأى ما كان يدعى الاسلام لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين كما يلعن المرتدون وعبدة الأوثان (١) .

(١) علق الأمير شكيب على هذا الوصف بقوله : لو أن فيلسوفا نفريسا من فلاسفة الاسلام ، أو مؤرخا عبقريا بصيرا بجميع أمراضه الاجتماعية ، أراد تشخيص حالته فى هذه القرون الأخيرة ما أمكنه لن يصيب المحز وأن يطبق المفصل تطبيق هذا الكاتب الأمريكى ستودارد .

دعوة محمد بن عبد الوهاب

وفيما العالم الاسلامى مستغرق فى هجعته ، ومدلج فى ظلمتـــه ، اذا بصوت يدوى من قلب صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام يوقظ المؤمنين ويدعوهم الى الاصلاح والرجوع الى سواء السبيل والصراط المســتقيم ، فكان الصارخ المصلح المشهور محمد بن عبد الوهاب (١) الذى أشعل نار الوهابية فاشتعلت ، واتقدت واندلعت ألسنتها الى كـــل زاوية من زوايا العالم الاسلامى . ثم أخذ يحض المسلمين على اصــلاح النفوس واستعادة المجد الاسلامى القديم ، والعز التليد ، فتبدت تباشير صبح الاصلاح ثم بدأت اليقظة الكبرى فى عالم الاسلام ، ثم تكلم عن الوهابيين فقال :

والوهابيون على ايغالهم فى الاعتصـــام بالفروض الدينيــة وقواعد الآداب ، كانوا على ضعف شديد فى المدارك ، وبعــد فى التعصب (٢) . فلذلك كان من حسن حظ الاسلام أنهم باءوا بخسران سلطتهم السياسية . فقصروا مساعيهم ودعوتهم على التعاليم الدينية الأدبية فحسب .

وقام على أثر ذلك عــدد من النقدة اتخذوا الوهابية دليــلا لكلامهم وقالوا : ان الاسلام بجوهره وطبائعه غير قابل للتكيف على حسب مقتضيات العصور ومماشاة أحوال الترقى والتبدل وليس الفا لتطــورات الأزمنــة وتغيرات الأيام (٣) .

---

(١) ولد محمد بن عبد الوهاب فى نجد سنة ١١١٥ هـ و ١٧٠٣ م ببلدة العيينة ، ومات فى سنة ١٢٠٦ هـ - ١٧٩١ م .

(٢) ذلك أن من مبـــادىء الوهابيين عدم مجاراة العصر فى التقدم العلمى وعمارة الارض ومسايرته فى الاستمتاع بنعم الحياة التى لم يحرمها الله مخالفين فى ذلك تعاليم القرآن الكريم اذ قال تعالى « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وقال تعالى « سخر لكم ما فى السموات والارض » وقال « خلق لكم ما فى الأرض جميعا » .

(٣) ومن أجل جمود الوهابيين الذى يتمثل فى شيوخهم ، يحسب الذين لا يعرفون حين الاسلام ومبادئه السامية ان هذا الدين جامد لا يستطيع أن يساير الحياة فى تقدمها ورقيها فاذا كانت هذه الطائفة قد نفت عن عقيدة التوحيد شوائب الشرك فانها بجمودها قد أساءت الى سمعة الاسلام بين من لا يفقهون .

حكم الأستاذ الإمام محمد عبده والسيد رشيد رضا

فيمن يسمون بالوهابية

قال الأستاذ محمد عبده :

« هذه الفئة زعمت أنها نفضت غبار التقليد ! ولكنها أضيق عطنا ، وأحرج صدرا من المقلدين ، وان أنكرت كثيرا من البدع فانها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتعبد به بدون التفات الى ما تقتضيه الأصول التى علق عليها الدين ، واليها كانت الدعوة ، ولأجلها منحت النبوة ! فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية السليمة أحباء (١) » .

وعلق تلميذه الفقيه المحدث السيد رشيد رضا على كلام أستاذه بقوله : « يعنى (أى الأستاذ الامام) بهذه الفئة (أهل الحديث وما يسمون بالوهابية) فقد كان يحمد منهم ترك البدع وينكر عليهم ضيق العقل دون ما أرشدت اليه النصوص من علوم الأكوان ، ومقدمات المدنية والعمران ، التى تعتز بها الأمة وتعلو كلمة الملة » .

وقال رحمه الله فيهم وفى أمثالهم فى مقدمة رسالة يسر الاسلام (٢) .

« انهم ممن يدعون مذهب السلف ، وينظمون أنفسهم فى سلك أهل الحديث ، يأخذون بظواهر كل ما رواه الرواة من الأخبار والآثار ، الموقوفة والمرفوعة ، أو التى توصف بأنها موضوعة أو مصنوعة ، وان كانت شاذة أو منكرة ، أو غريبة المتن ، أو من اسرائيليات مثل كعب ووهب أو معارضة بالقطعيات التى لا يعرفونها من نصوص الشرع ، ومدركات الحس ويقينيات العقل ، ويكفرون أو يفسقون من أنكرها أو خالفها .

حال الشرق فى الناحية السياسية

هذه كانت حال الشرق الدينى فى القرن التاسع عشر ، وهو العصر الذى ظهر فيه السيد جمال الدين ، أما الناحية السياسية فقد بينها لوثروب أصدق بيان فى قوله (٣) :

---

(١) ص ١٠٧ من رسالة الاسلام والنصرانية .

(٢) حرف ز من المقدمه .

(٣) ص ٢١ و ٢٢ ج ١ حاضر العالم الاسلامى .

توالت الأيام على العالم الاسلامى وهو هاجع لا يستيقظ حتى القرن التاسع عشر فتململ فى مهجعه مستثقلا وطأة الغــرب . وفى خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمــل على جوانب العــالم الاسلامى ، وتخضع لها الأقطار فى شرق أوروبا وجزائر الهند ، وأما جل العالم الاسلامى ومعظمه من مراكش حتى أواسط آسيا فقد ترك وشأنه فما كان ليعتبر قدر هذه الفترة السانحة بل ظل مستغرقا فى هجعته مستهزئا (بكفرة !) أوروبا راضيا مسلما أن شقاءه انما هو بمشيئة من الله !! ولا يقيم لرقى أوروبا وزنا ، ولا يحسب لمستنبطاتها حسابا (١)

هكذا كانت حالة العالم الاسلامى ، لما استيقظ استيقاظه فى مطلــع القرن التاسع عشر فاذا بأوروبا تقف بازائه مجنــونة بثورتها الصــناعية ، ومدججة بأسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع ، وبين يديها الغاشمتين ، الطبيعة مسخرة مفضوحة أسرارها وآلات حربية جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلها من قبل !

فكانت النتيجة المتوقعة — حينما شرعت حملات أوروبا تغشى الشرق الاسلامى — أن أخذت أقطاره ، يسقط الواحد منها تلو الآخر فى أيدى الحاملين عليه فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبا الكبرى قد اقتسمت جميع العالم الاسلامى ، فاستولت بريطانيا على الهنــد ومصر وعبرت روسيا القوقاس ، وبسطت سلطانها على أواسط آســيا ، وفتحت فرنسا شمالى افريقيا ، وقامت سائر الدول الأوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الغنيمة الاسلامية .

وما زالت الحالة هكذا حتى جاءت الحرب الكونية العظمى (ســنة ١٩١٣ ـ ١٩١٨) فكانت شاهدا على آخــر دور من أدوار اذلال الشرق للغرب ، ولما وضعت شروط المعاهدات ـ بعد أن وضعت الحــرب العامة أوزارها ـ قضى على كيان الدولة العثمانية ،: فلــم تبق من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالا صحيحا فتم اخضاع العالم الاسلامى » .

(١) نعم كانوا يعللون انحطاطهم الذى هو نتيجة كسلهم وفساد أخلاقهم بكونه قدرا مقدورا لا حيلة فيه اعتذارا عما هم فيه من التهاون والعطلة وسوء الادارة .

انتشار اليقظة الإسلامية

وعرض لوثروب لليقظة الاسلامية فقال :

« أخذت اليقظة الاسلامية تنتشر انتشارا مزدادا ، ومبادىء التجدد والاصلاح الحقيقى تنمو نموا مطردا ، وكان مما لا شك فيه — وأمره طبيعى — أن عادت الحرية العقلية الى الظهور شيئا فشيئا . فى أوائل القرن التاسع عشر .. وذلك بظهور المصلحين الأحرار الذين ما فتئوا يؤيدون مذاهبهم وآراءهم الاصلاحية .. بأحاديث وآيات من الكتاب . فمن ذلك استشهادهم على قبول الاصلاح فى الاسلام بما هو مأثور عن صاحب الرسالة (عليه الصلاة والسلام) من قوله : « انما أنا بشر اذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به واذا أمرتكم بشىء من رأيى فانما أنا بشر » رواه مسلم عن رافع بن خديج (١) .

ومضى لوثروب يدافع عن مبادىء الاسلام ويدحض بأدلة قوية ما يزعمه متعصبو النقدة من أن الاسلام يجافى الحرية وينكر استكناه الحقائق العلمية الطبيعية ، الى أن ختم دفاعه بقوله :

« أيليق بنا أن نتعامى عما قاله محمد فى شأن العلم ! وأن ننكر تكريمه كل التكريم ، وهذه كلماته البليغة ما زالت شاهدا خالدا على ذلك ، وهاك بعضها :

« أطلبوا العلم ولو فى الصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » .

لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلى مئة ركعة (٢) .

« العلماء ورثة الأنبياء » .

ومضى لوثروب يتحدث عن قادة الاصلاح من المسلمين فى كل زمان فقال :

---

(١) وروى مسلم كذلك حديث الرسول « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

(٢) رواه ابن عبد البر من حديث أنس وفى بعض ألفاظه « مائة ركعة » ورواه آخرون بألفاظ أخرى .

« قد حان لنا أن نبسط الكلام على فاده الاصلاح من المسلمين مدققين النظر فى ذلك بتجرد عن الهوى بحيث يجب أن تكون أحكامنا مبنية على ما قاله هؤلاء المصلحون القادة من الأقوال — وما قاموا به من الأعمال، وليس على ما هو مدون عنهم فى بطون الكتب والتواريخ التى ذهب واضعوها فيها مذهب الغرض ، فقد قال أحد المصلحين المسلمين وهو جزائرى (١) قولا سديدا « لا تقاس حضارة أمة بما فى كتبها الدينية من السطور والعبارات ، بل بما تقوم به تلك الأمة من الأعمال » ..

ومن تدبر تاريخ الاسلام حق التدبر أيقن كل الايقان أن الاسلام لم يخل يوما فى جميع ماضيه — حتى فى أشد عصوره حلكا — من بعض المصلحين الاحرار ذوى العقول النيرة ، والمدارك الثاقبة والهمم الصادقة .. فيصرخون فى المسلمين صرخات الاصلاح الشديد ويرفعون علما من أعلام الهدى والارشاد .. وقد كتب الغزالى المشهور وهو من رجال القرن السادس عشر : « ليس بعزيز على الله عز وجل أن يكشف لعباده المخلصين — فى المستقبل ما لم يكشف مثله لغيرهم فيما مضى من العصور ، وأن ينزل من نعمه الروحانية على مستحقيها من الحكماء فى كل دور ، النعم التى تفيض نورا على أبصارهم وبصائرهم فتهديهم سواء السبيل » .

فهذه الصرخات النى توالى ، والمصابيح التى أوقدت — فى فترات مختلفة طيلة جميع الأجيال التى كرت على الاسلام من بعد انحداره عن الأوج ، قد كان من شأنها أن تمهد السبيل بعض التمهيد للمصلحين المتأخرين .

وقال لوثروب عن « رواد الاصلاح فى القرن التاسع عشر » .

« لم ينتصف القرن التاسع عشر ، حتى كان قد قام فى كل بلد من بلدان المسلمين فى الرقعة الاسلامية عدد من رواد الاصلاح ودعاته ينبهون ويوقظون ويحضون ويستحثون .. بيد أن هؤلاء كانوا نزرا فى بدء عهد الاصلاح الحديث . فلاقوا فى سبيل ذلك ما لاقى غيرهم من الذين ساروا

(١) هو اسماعيل حامد .

سيرهم ، اذ هب رجال الدين وسواد السذج يرمون المصلحين بالمروق من الاسلام فكان من طبيعة الأمر ظهــور النزاع والمشادة بين المسلمين فى سبيل الاصلاح » (١) .

وقال عن « المصلحين فى الهند فى القرن التاسع عشر » :

« وقد كانت الهند أول رقعة اسلامية رفعت فيها أعلام الاصلاح ، فقام فيها عصبة من المصلحين ذوى عزم شديد ، وعلى رأسهم (السر) السيد أحمد خان ، وانبروا يجاهدون فى سبيل الدعوة الكبرى للاصلاح الحــر فألفوا الجمعيات ، ونشروا الكتب والصحف ، وأنشأوا الكلية العلميــة الاسلامية فى عليكرة .. ثم أخذت دعوة الاصلاح تنمو نموا سريعا فى الهند وتزداد قوة ورسوخا ، وقام فيها من القادة المشهورين عدد كبير .. مثــل مولوى شيراغ على والسيد أمين على العبقريين ، اللذين اشتهرا فى العالم كله بما أخرجاه للناس من الــكتب القيمة البــاحثة فى شئون الاســلام وروحه .. »

وقد كتب أحد هؤلاء القادة العظماء وهو السيد « خدابخش » فى بعض كتبه يقول : « ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يبغض شيئا بغضه للشرائع والقوانين الجامدة التى تقيد العقل فتقوده صاغرا أعمى . ليس القرآن الكريم الا كتاب هــدى للمؤمنين ، وليس عثرة فى ســبيل ترقى المجتمع والآداب والشرائع والقوانين والمدارك العقلية » .

ثم جاء بكلام نعى فيه حالة الاسلام ، منه « لعمرى ان هذا الاســلام اليوم ليس هو الاسلام الذى أتى به صاحب الرسالة ، بل ان الاسلام الذى جاء به النبى لبرىء من هذه السلاسل المؤلفة من حلقات الوظائف والمناصب الدينية ، وعار عن هذا التعصب القاتل والجهل الشديد والأوهام والأباطيل الكفرية » . ثم أنهى كلامه قائلا : هل الاسلام عدو للترقى والتقدم ترى ؟ انى لأعوذ بالله من قائل نعم ! »

وقال : « فمتى وضع الاسلام فى البوتقة وأخرج منه ما علق به من جميع هذه الأباطيل الخــداعة ، كان ذلك الدين الســاذج الحلو المساغ ،

(١) هذه هى سنة الحياة .

فالاسلام على أصله ووصفه انما هو ركنان لا ثالث لهما : توحيد الله تعالى ، والايمان بأن محمدا رسول الله ، وما عدا ذلك فليس من الاسلام » .

ثم تكلم عن (مذهب هؤلاء المصلحين فى الاصلاح) فقال :

« وفى ذلك العهد كانت دعوة الاصلاح الحر قد طفقت تنتشر فى كل قطر من الأقطار الاسلامية .. فقد ظهر الأحرار فى تركية وكانوا القابضين على أزمة الدولة خلال غالب المدة بين حرب القريم والعهد الحميدى .. ومدبرى شئون المملكة وساسة أمورها وقام فيها أحرار عظماء مثل الوزيرين رشيد باشا ، ومدحت باشا المجاهدين الكبيرين فى سبيل تحرير الدولة العثمانية من ربقة ذلها .. حتى كانت ثورة سنة ١٩٠٨ فذهبت عاصفتها بصرح الاستبداد وقوضت أركانه » .

ثم قال تحت عنوان .. مذهب هؤلاء المصلحين فى الاصلاح :

« على أن هؤلاء المصلحين الأحرار الذين أتينا على ذكرهم انما هم على مذهب الاعتقاد بوجوب تنشئة الاصلاح فى المسلمين تنشئة متدرجة مماشية لمقتضى العصر ، وبأن الاسلام لقابل أحسن قبول لكل تحول وتطور ، ومستعد لطبائعه لايلاف تبدلات العصور والأدوار . والتكيف على حسب ترقى الحضارات ، فهم من هذا النحو محافظون كل المحافظة مستمسكون جهدهم واستطاعتهم بالاسلام الصحيح ، وهو عندهم فى المجتمع روحه وغذاؤه ، ومن العمران مادته الحيوية ومنهله العذب » .

الجامعة الإسلامية

وبعد ذلك انتقل لوثروب فى الفصل الثانى من كتابه الى الكلام عن الجامعة الاسلامية فقال :

« اليقظة الاسلامية شأن كل انقلاب عظيم نشأت نشوءا ملتبسا فاشتبه بعض متجهاتها ببعض اشتباها كبيرا ، ولا عجب فذلك انما هو من طبيعة كل دور من أدوار الانتقال والتحول ، فقد بدأت اليقظة الاسلامية بالدعوة الوهابية الدينية ثم أخذت تجتاز أدوارا عديدة متشعبة المناحى ، .

ثم قال : « ان روح الاصلاح ما فتئت تدب فى كل عرق من عــروق العالم الاسلامى دبيبا طبيعيا هائلا فتدفعه الى الأمام دفعا متواصلا .

وتكلم عن الجامعة الاسلامية فقال : ان معناها الشامل ومفهومها العام، انما هو شعور بالوحدة العامة ، والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين فى المعمور الاسلامى ، وهى قديمة بأصلها ومنشــئها منذ عهــد صاحب الرسالة » .

ثم استطرد الى الكلام عن الدعوة الوهابية وسقوطها بعد استيلائها على الأماكن المقدسة فى الحجاز فقال : لما سقطت الوهابية دون مبتغاها أخذ الاضطراب السياسى يشتد فى العالم الاسلامى اشتدادا واسع المضطرب ــ فى الهند ، وأفغانستان ، وغيرهما .

ولم تكن أوربة حتى ذلك العهد قد حــاولت فتحا كبيرا فى العالــم الاسلامى ، سوى استخلاصها بعض الأصقاع من تركية الأوربية وجــزائر الهند .

وأما هول الفتوح العظمى فلم يكن قد ظهر بعد ، غير أن أشباحه كانت تقترب شيئا فشيئا ــ وما كاد ينتصف القرن التاســع عشر حتى تبدلت الحال تبدلا تاما ففتح الفرنسيس الجزائر واستولت روسية على عبر القوقاس وبسطت انكلترا نفوذها على الهند من أقصاها الى أقصاها . مما جعل قادة المسلمين الحكماء فى كل صقع يوقنون كل الايقان أن الاسلام انما يحيق به خطر عظيم وبلاء شامل من جراء انتشار سيطرة الغرب عليه .

وفى هذه الغضون أخذت الجامعة تسير فى تيارات مقاومة الغــرب وصده وعدائه ــ وهى ما برحت تسير هذا المسير حتى اليوم .. وما انفكت روح العداء للغرب تهيج فى الجزائر الثورة المعروفة بثورة (الكابيل) سنة ١٨٧١ وهب رجال الدين المعروفون بالأولياء فى كل بلاد أفريقية الشمالية يستثيرون المسلمين ويستنفرونهم للحرب والجهــاد ومن هذا النوع كانت ثورة المهدى فى السودان المصرى وهى الثورة التى دامت طويلا وفتت فى عضد الانكليز فتا كبيرا وأنزلت بهم خسائر فادحة ...

وانفجر فى أفغانستان بركان حقد وعداء للغرب عظيم فتناولت حممه مسلمى الهند فألهبت صدورهم الهابا .

ولما وصلت الحال فى العالم الاسلامى الى هذا الحـد ، أدرك قادة الجامعة الاسلامية الحكماء . أنه اذا رام العالم الاسلامى حقا تحرير نفسه من النير الغربى ، وتحطيم هذه السلاسل الثقيلة التى يرسف فيها منذ عهد بعيد ، ودك هذه السيطرة المذلة دكا ، وجب عليه أن يعمل عملا منظما شاملا ويسعى سعيا أكيدا ثابتا ، جامعا للوحدة العامة والرابطة الكبرى وأيقن هؤلاء أيضا أنه لا بد للعالم الاسلامى ـ اذا شاء هذا ـ من دراسة علوم الغـرب واكتناه عظمته وقوته وتقدمه ونهج مناهجه وسلوك سبله فى جميع مايؤدى الى النهضة الصحيحة القائمة على أسس العلـم وأركانه ، فانما هذا هـو السبيل الذى لا سبيل الا هو للافلات من ربقة استعمار الغرب والتحرر من حكم الفرنجة . وفوق جميع هذا أيقن قادة الجامعة الاسلامية ، ان استقلال العالم الاسلامى عن الغرب النصرانى ـ الاستقلال السياسى ـ يجب على كل حال ان يسبقه التجدد الروحى العقلى العلمى الأدبى ، والتربية النفسانية الصحيحة ، وانه متى صلحت نفوس المسلمين ، وزكت وطابت واعزت ،وباتت تعاف الذل وتأبى الضيم ، سهل اذ ذاك كل عمل فى سبيل التحرر والاستقلال

وعند هذه النقطة فى الدائرة التقت غاية دعاة الجامعة الاسلامية ، وغاية الاحرار ، اذ أدرك الفريقان كلاهما استفحال الخطب الجلل ؛ والشقاء الاكبر فى العالم الاسلامى وما يعانيه المسلمون من الذل والهوان ـ فابتغيا تجدده الروحانى ، واصلاحه النفسانى غير أنه نشأ الخلاف بينهم فى وسائل هذا التجدد والاصلاح وكيفيتهما ، فقال الاحرار : ان المسلين لا مندوحة لهم عن الاخذ عن الغرب ، واقتباس الأفكار منه واتباع طريقته فى جميع ما هو لازم وضرورى لبلوغ الغاية العلياء .

وقال ارباب الجامعة الاسلامية : ان الاسلام بذاته صالح كل الصلاحية لكى يستمد منه جميع ما هو لازم لذلك ـ فلهذا ينبغى ان يقصر أمر الاخذ عن الغرب على محاكاته فى انتهاج مناهجه العملية ؛ والاستعانة بوسـائله المادية فحسب .

كان للجامعة الاسلامية أسان

كان مبدأ سير الجامعة الاسلامية السير المنظم على الخطط المقررة حوالى منتصف القرن التاسع عشر — اذ كان للجامعة أسان قامت عليهما ، هما الطرق الدينية الحديثة النظام كالطريقة السنوسية — والدعوة التى قامت بها فرقة من جلة العظماء وأكابر المفكرين الحكماء يرأسها (جمال الدين الأفغانى) .

وبعد ان تكلم لوثروب عن الأساس الأول وأطنب فى فضل الطريقة السنوسية ومبلغ انتشارها ، وعن سير النهضة الاسلامية الحديثة الكبرى فى افريقية وفى بلاد التتر الروسية وفى الصين والتركستان ، وجزائر الهند الصينية وغيرها من البلاد اخذ يتكلم عن الاساس الثانى فقال :

الدعوة الكبرى
التى قام بها جمال الدين الأفغانى

ننتقل للكلام على الأساس الآخر — وهو الدعوة الكبرى — التى قام بها جمال الدين الأفغانى وقد عرفت به من بعده .

ولد السيد جمال الدين الأفغانى فى مطلع القرن التاسع عشر وهو أفغانى الأرومة لا فارسى (١) ينحدر نسبا ، كما يدل لقب سيادته على هذا ، من العترة النبوية الطاهرة ، ويجرة فى عروقه الدم العربى البحت الكريم .

كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهية من أعظم الدهاة ، دامغ الحجة ، قاطع البرهان ، ثبت الجنان ، متوقد العزم شديد المهابة ، كأن فى ناسوته أسرار المغناطيسية . فلهذا كان المنهاج الذم نهجه عظيما ، وكانت سيرته كبيرة فبلغ من علو المنزلة فى المسلمين ماقل أن يبلغ مثله سواه ، وكان سائحا جوابا طاف العالم الاسلامى قطرا قطرا ، وجال غربى أوربة بلدا بلدا ، فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ، ومن الاطلاع العميق والتبحر الواسع فى سير العالم والأمم علما راسخا ، واكتنه أسرارا

(١) كما يعترى المعترون .

خفية ، واستبطن غوامض كثيرة ، فأعانه ذلك عونا كبيرا على القيام بجلائل الأعمال التى قام بها .

وكان جمال الدين بعامل سجيته وطبعه وخلقه ، زعيما مسلما كبيرا ، فكأنه على وفور استعداده ومواهبه ، انما خلقه الله فى المسلمين لنشر الدعوة فحسب ، فانقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم فليس هناك من قطر من الأقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين الا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية لا تخبو نارها ولا يتبدد أوراها .

ولقد كان أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة فى الشرق الاسلامى ، وتمثل عوافبها فيما اذا طال عهدها . وامتدت حياتها ، ورسخت فى تربة الشرق . وأدرك شؤم المستقبل وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبه الكبر ، اذا لبع الشرق الاسلامى على حال مثل حاله التى كان علىها . فهب جمال يضحى نفسه ، ويفنى حياته فى سبيل ايقاظ العالم الاسلامى وانذاره بسوء العقبى ويدعوه الى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصيح فيها النفير (١) فلما اشتهر شأن جمال خشيت الحكومات الاستعمارية أمره وحسبت له ألف حساب فنفته بحجة أنه هائج المسلمين ولم تخف دولة جمالا وتضطهده مثل ما خافته واضطهدته الدولة البريطانية فسجنته فى الهند مدة ثم أطلقت سراحه فجاء الى مصر حوالى (٢) سنة ١٨٨٠ — وكانت له يدفى الثورة العرابية التى أوقدت نارها فى وجه الغربيين .

فلما احتل الانكليز مصر سنة ١٨٨٢ نفوا جمالا للحال فزايل مصر وأنشأ يسيح فى مختلف البلدان حتى وصل الى القسطنطينية فتلقاه عبدالحميد بالمبرة والكرامة وقربه منه ورفع منزلته فسحر جمال السلطان الداهية بتوقد ذكائه ونفسه الكبيره ، فقلده السلطان رياسة العمل فى سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية (٣) . ويغلب أن ما ناله السلطان عبدالحميد من النجاح فى

(١) قد حانت هذه الساعه بالصيحه التى انبعثت من الثورة المصرية فى سنه ١٩٥٢ واستطار شررها فعم العالم الاسلامى كله وامتد الى الامم والشعوب الشرقيه فشملها جميعا ، واصبح الشرق كله على الاستعمار نارا تلظى ..

(٢) اخطأ لوثروب فى هذه التواريخ لان السيد جاء الى مصر سنه ١٨٧١ ، ونفى من مصر سنه ١٨٧٩ اى قبل الاحتلال البريطانى الذى وقع سنه ١٨٨٢ .

(٣) انتسب الكلام عن هذه الفترة الى تحقيقات الامير شكيب ارسلان .

سياسته فى سبيل الجامعة الاسلامية انما كان على يد جمال الدين المتوقـد الهمة المشتعل العزم . والتحق جمال الدين بالرفيق الأعلى ١٨٩٧ شيخا عاملا كبيرا فى سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الأخير من أنفاسه (١) .

ملخص تعاليم جمال الدين

وهنا لخص لوثروب تعاليم جمال الدين الأفغانى فقال :

العالم النصرانى على اختلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العمـوم ، وللاسلام على الخصـوص ، فجميع الدول النصرانية متحدة معا على دك الممالك الاسلامية مااستطاعت الى ذلك سبيلا .

« الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصـارى كمون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم . كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية لم يزل التعصب مستقرا فى عناصرها متغلغلا فى أحشائها ، ومتمشيا فى كل عرق من عروقها ، وهى أبدا ناظرة الى الاسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى المقوت ، وحقيقة هذا الأمر وتنيجته واقعتان فى كثير من الشئون الخطيرة ، والمواضع الكبرى حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الاسـلامية مستوية مع الأمم النصرانية .

تنتحل الدول النصرانية أعذارا لها فى كرها وهجـومها وعدوانها على الممالك الاسلامية واذلالها واكراهها ــ بقولها أن الممالك الاسلامية هذه ، انما هى من الانحطاط والتدلى بحيث لاتستطيع أن تكون قوامة على شئون نفسها بنفسها وفوق جميع هذا ، فهذه الدول النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحيـة ، وتتذرع بألوف الذرائع من نواح أخرى حتى بالحـرب والحديد والنار (٢) للقضـاء على كل حركة حاولها المسـلمون فى بلادهم وديارهم فى سبيل الاصلاح والنهضة .

(١) سيأتيك بيان مفصل عما جرى للسيد فى الاستانة .

(٢) لا يزال هذا دأب الغرب وأصدق شـاهد على ذلك ما تقترفه انجلترا بجنوب اليمن والبوريمى وغيرهما . وقد تخلصت الجزائر أخيرا من بين براثن فرنسا وأصبحت مستقلة .

جميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عداء الاسلام ، وروح هذا العداء متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهدا خفيا مستترا متواليا لسحق الاسلام سحقا .

تأخذ النصرانية شواعر كل مسلم وآماله ورغباته التى تجول فى صدره ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء . فان ما يدعونه الفرنجة عندنا فى الشرق تعصبا مذموما محرما ، هو عندهم فى بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة والقومية المقدسة والوطنية المعبودة ، وان ما يدعونه عندهم فى الغرب اباءة النفس ، والشمم ، والشرف الوطنى ، والعزة القومية ، يعدونه فى الشرق لموا مكروها وافراطا فى حب الوطن ضارا ، ومقتا وشنأة للأجنبى الغربى .

جميع هذا يوضح أن العالم الاسلامى يجب عليه أن يتحد اتحادا دفاعيا عاما مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الذياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول الى هذه الغاية الكبرى . انما يجب عليه اكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته .

هذه دعوة جمال الدين على الايجاز التى أفنى حياته فى سبيل نشرها بالبلاغة الساحرة ، والحجج الدامغة ، فكانت كالغيث الجود أصاب التربة الجدباء — ولا عجب أن يكون جمال الدين ذلك الرجل الموقظ الكبير ، وتكون كل نسمة تفخها فى المسلمين عاصفة زعزعا .

وقد بات اعتداء الدول الفرنجية وعدوانها وبغيها منتشرا فى كل قطر من أقطار العالم الاسلامى فتفاقم الخطب واشتد البلاء .

وبعد أن تكلم لوثروب عن تاريخ تركيا وثورتها فى سنة ١٩٠٨ ثم ثورة ايران . واغارة ايطاليا على طرابلس سنة ١٩٩١ والحروب التى شنتها الدول البلقانية النصرانية على تركيا فى سنة ١٩١٢ (١) . واستيلائها على أملاكها فى أوروبة ـ واتفاق الانجليز وروسية على خنق الثورة الفارسية واستيلاء فرنسا على مراكش ، وغير ذلك مما يشابهه ـ بعد أن ذكر ذلك كله قال : ـ

(١) علق الأمير سكسب عى ذلك بعوله : عندما اعلنت الدول البلقانية الاربع الحرب على تركية ، نشرت بلاغا لم يتمك قرنه انه بلاغ ملوك الصليبيين فى القرون الوسطى .. أى اعلان حرب دينية ولم نجد من الأوربيين من انكر هذا الأمر .

وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان ينبىء به على غير انقطاع دعاة الجامعة الاسلامية عن الحرب الصليبية الجديدة لدك الممالك الاسلامية دكا — وصدق جميع ما كان يذيعه جمال الدين الأفغانى الحكيم العظيم .

وقال الكاتب الكبير تشارلز آدمس فى كتابه : الاسلام والتجديد فى مصر ما نختصره هنا :

لم ينشأ الدافع الأول الى حركة الاصلاح من مصر نفسها بل كان صدى لتعاليم السيد جمال الدين الافغانى وأثرا من آثاره وكان جمال الدين ممثلا نابها لفكرة الجامعة الاسلامية والمدافع القوى الشكيمة عن الاصلاح الشامل فى الاسلام وكذلك كان العامل الجوهرى الأول فى احياء حركة التجديد فى مصر .

أثر السيد فى الهند

كان أول بلد ظهر اثر السيد جمال الدين الافغانى فيها ، بعد أن جاهد بسلاحه فى بلاده — هى الهند ، ومن أجل ذلك كان علينا ان نكتب كلمة موجزة عن صلته بها ، وأثره فيها .

ظل اثر السيد فى كل بلد رحل اليها أو حل بها ، أمرا ظاهرا واضحا يعطيها ما استطاع من علمه وجهاده ، ان بلسانه أو بقلمه ، أما الهند فقد أخذ منها قبل أن يعطيها ، ذلك بانه قد تثقف فى صدر حياته بعلومها وتلقى العلم عن أساتذتها وفلاسفتها كما بينا ذلك فى موضعه من هذا الكتاب وبعد أن استوعب هذه الدراسات كلها ، ونال بغيته منها ، أخذ يتنقل بين البلاد العربية ليدرس اداتها ، ويكتنه اخلاق أهلها ، فاكتسب من هذه السياسة فوائد غزيرة زادته حنكة واختبارا بحقائق العمران — وكانت الغاية التى يرمى اليها من هذه الاسفار الطويلة الشاقة ان يأخذ بأطراف العلوم كلها ليخرج الى العمل والجهاد فى الحياة مزودا بجميع الثقافة العلمية والخبرة بدراسة النواحى الاجتماعية ، ذلك ان العلم وحده لا يغنى عن الخبرة الشاملة بشئون الحياة وطبائع العمران ، وبعد أن استكمل من عتاد الحياة وتسلح بجميع العدد التى تؤهله للجهاد والاصلاح وكان قبل ذلك قد غرس بالحياة العسكرية كما علمت ، تهيأ للعمل لما خلق له .

وعندما اضطر الى مغادرة بلاده بعد الوقائع الحربية التى غامر فيها مما بيناه لك من قبل ارتحـــل الى بلادالهند وكان يريد أن ينزل فيها عندأحد أصحابه من تجار الافغان الى أن يأخذ طريقه الى البلاد الحجازية لأداء فريضة الحج ولكن الحكومة الانجليزية لم تمكنه من ذلك ، واعدت له نزلا خاصا يقيم فيه ولا يبارحه الى سواه فاذعن مضطرا وقد أخذه الدهش عندما وصل الى التخوم الهندية ، وآنس أن الحكومة تستقبله على الحـــدود استقبالا فخما ، وزاد من دهشه ان لم يجد فيمن استقبلوه أحدا ممن كان ينتظر أن يقابلوه . وعندما رأى ذلك قال :

« مأرب لا حفاوة من كريم » وما كاد يصل الى نزله حتى سئل عن الزمن الذى يريد أن يقضيه فى الهند ، فأجاب لا أكثر من شهرين فوضعت الحكومة رقباء يسألون كل زائر عن سبب زيارته ! .

وكانت شهرته قد سبقته الى تلك الديار لما عرف عنه من العلم والحكمة وما ناله من المنزلة العالية بين قومه ، وما اشتهر عن بطولته فى حروبه ببلاده — ولم يكد يتم أسبوع حتى أصبح زو'ره مئات بل آلافا وارتجت له أقطار الهنـــد وهرع اليه أكابر علماء الهنـــد وراجاتها وغصت الســـاحات بالوفود وبينهم من ليس فى استطاعة الحكومة الهندية أن تمنعه من الاجتماع مع السيد .

— وطبيعى أنه لم يكن ليخفى على الحكومة الانجليزية عداؤه الشديد لسياستها وما قد يحدث وجوده فى الهند من اثارة روح الهياج فى النفوس — وكانت الهند يومئذ تغلى بنار الفتن على الرغم من اخمادثورة سنة ١٨٥٧(١)

(١) لما استتب الامر للانجليز وبسطوا سلطانهم فى الهند حسبوا يعاملون الناس بالاحتقار والازدراء ويبعثون فى نفس كل هندى احساسا بالنقص وشعورا بنقصه امام كل انجليزى . ولم يكتفوا بذلك بل اهدروا حقوقهم واستهانوا بمصالحهم وما يحفظ حياتهم ولم يراعوا شعورهم فى عاداتهم وتقاليدهم .

وكان لذلك كله وغيره مما وقع من مظالم الانجليز اثره فى النفوس من الضغن والحقد وانتهاز الفرص للتخلص من هذا العدو الواغل عليهم وهم فى عقر دارهم .

حتى كانت سنه ١٨٥٧ فانفجر غضب النفوس بثورة مسلحة قام بها الجيش ومن ورائه الاهلون جميعا متحدين اذ اتفق فيها الهندوكى والمسلم على العمل على استخلاص بلادهم من الغاصبين . ولكن وا أسفاه فقد أخمدت هذه الثورة بسبب خيانة بعض امراء الاقاليم الذين آثروا ممالأة الانجليز ومساعدتهم لكى يحفظوا بسلطانهم على اماراتهم وان كان فى ذلك ضياع استقلال بلادهم . واذا كانت هذه الثورة قد اخمدت فى ظاهر الامر فان الشعور القومى ظل يغلى فى النفوس ومضى احرار البلاد يسعون فى سبيل تحرير بلاد الهند حتى ظفروا باستقلالها فى سنه ١٩٤٧ .

من أجل ذلك لم تطق الحكومة الانجليزية صبرا على وجوده بين أهل الهند ، ولما ضاقت به ذرعا أرسلت اليه أحد كبار حكامها ــ وعنده أكابر من الراجات والعلماء وخاطب السيد قائلا :

ان الحكومة الهندية كانت قد تساهلت معكم للاقامة شهرين ولكنها رأت أن تتقدم اليكم اليوم بأن حالة البلاد لا تساعد على بقائكم أكثر مما مكثتم .!!

فأراد الحاضرون أن يحتجوا على هذا الانذار ، وعلت وجوههم علامات الغضب فأومأ السيد بيده اليهم طالبا سكوتهم وحال بينهم وبين رجل الحكومة قائلا :

انى ما أتيت الى الهند لأخيف حكومة بريطانيا العظمى ! ولا أنا على استعداد اليوم لاحدث شغبا عليها ولا لأنتقد شيئا من أعمالها ، ولكن تخوفها من زائر أعزل مثلى ومصادرتها لزائرين هم أضعف منى ، يسجل على حكومة بريطانيا وهن عزيمتها وضعف شوكتها وقلة عدلها وعدم أمنها فى حكمها وانها فى حقيقة حكمها لهذه الاقطار الشاسعة الواسعة أضعف بكثير من شعوبها ، ثم التفت الى زائريه وقال :

« يا أهل الهند وعز الحق وسر العدل ، لو كنتم وأنتم تعدون بمئات من الملايين « ذبابا » مع حاميتكم البريطانيين ، ومن استخدمتهم من أبنائكم فحملتهم سلاحها لقتل استقلالكم واستنفاد ثروتكم ــ وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الآلاف ــ لو كنتم أنتم مئات الملايين كماقلت«ذبابا»! لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى، ويجعل فى آذان كبيرهم المستر «غلادستون» وقرا . ولو كنتم وأنتم مئات الملايين من اليهود قد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة وخضتم البحر وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى لجررتموها الى القعر وعدتم الى هندكم أحرارا ! فما أتم كلامه حتى أذرف الحاضرون الدموع ! فنهض وقال بصوت عال : اعلموا أن البكاء للنساء ؟ والسلطان محمد الغزنوى ما أتى الى الهند باكيا ! بل شاكا للسلاح ــ ولا حياة لقوم لايستقبلون الموت فى سبيل الاستقلال بثغر باسم .

ونهض مسرعا مع رجل الحكومة لكى يذهب معه حيث شاء ، فقال له : مهلا الآن فموعد السفر غدا !!

وفى الصباح سيرته الحكومة الانجليزية من هناك فى أحد مراكبها على نفقتها الى السويس فجاء الى مصر وكان ذلك فى سنة ١٢٨٥ هـ (سنة ١٨٦٨ م) وأقام بها نحو أربعين يوما ثم تحول عن الحجاز عزمه وسافر الى الاستانة وهناك نلتقى به عند الكلام على أثره فى تركيا .

وهذا هو سفره فى المرة الأولى الى مصر والى الاستانة كذلك .

واذا كان قد خرج من الهند مرغما فان صلته به لم تنقطع ، ذلك بأنه بعد أن نفخ فيها روح الاستقلال والجرأة على كسر قيود الاستعباد ، ظـل يغذى ذلك الروح بالكتابة وتلقين الافكار الجريئة لمن يلقى من رجالها فى مصر وفى أوروبا وسائر البلاد بمقالات نشرت بالصـحف والمجلات ــ وناهيك بالعروة الوثقى التى كانت تشعل نار الثورة فى كل البلاد التى قرئت فيهـا وكان مما لقيهم السيد جمال الدين وبث فيهم أفـكاره الثورية زعيم الهند الكبير (ياترجى) الذى أجج نار الحركة الهندية والذى دعـا الى الاتحاد للمطالبة بحقوق الهند والعمل على اخراج الانجليز منه (ص ٢٤ من كتاب غاندى لسلامة موسى) .

ولما عاد السيد من تركيا الى مصر سنة ١٨٧١ وظل فيها ثما نسنين ملأها نارا وسعيرا على الحكام المستبدين ، والمسـتعمرين الظالمين ، والدجـالين الجاهلين ، فتعاونت عليه هذه الفئات الثلاث . وبخيانة توفيق باشا وتحريض الانكليز وشيوخ الدين نفى الى الهند وكان ذلك فى سنة ١٨٧٩ وظل فيها الى أن اخفقت الثورة العرابية ومن ثم أباحوا له أن يسافر الى أى جهة شاء غير البلاد الشرقية فسافر الى لندن ثم منها الى باريس كما تراه مفصلا فى تاريخه .

وفى نفيه الاخير الى الهند كتب مذكرات كثيرة فى موضوعات مختلفة بالفارسية والافغانية ، وكتب شذرات عن البابية التى كان يعتبرها شؤما ووبالا وفى حيدر أباد الركن كتب (رسالة الرد على الدهريين) المشهورة التى نقلها

الى العربية الاستاذ الامام محمد عبده (١) ولقد كان السيد موقنا باستقلال الهند من بعده حتى انه قال مرة لتلميذه الشيخ عبدالرشيد التتارى : يا ولد ، انك ستصلى صلاة الجنازة على القيصرية الروسية ، وستحضر تشييع جنازة الامبراطورية البريطانية فى الهند ! وقد كان .

فقد تمت البشارة الأولى فى سنة ١٩١٧ فذهبت القيصرية الروسية الى غير رجعة ، وتمت البشارة الثانية باستقلال الهند فى سنة ١٩٤٧ وهكذا تنفذ البصائر الى ما لا تراه النواظر .

---

(١) قد قمنا بطبع هذه الرسالة القيمة أخيرا بمقدمة قيمة للعالم الفيلسوف الأستاذ صلاح الدين السلجوقى سفير افغانستان بالجمهورية العربية المتحدة سابقا .

رسالة السيد في مصر

قد تبين من تاريخ السيد جمال الدين الافغاني انه لم يقض من الزمن في أي بلد ذهب اليه ، أو حل به ، أو عاش فيه ، مثل ما قضى في مصر ـ فقد لبث فيها ثماني حجج كاملة جاهد فيها جهادا عنيفا متصلا لم يجاهد مثله في أي بلد آخر .

واذا كان أثره في غير مصر عظيما ؛ فان أثره وجهاده في مصر كان أعظم وأبقى على وجه الدهر ـ ذلك بأن تعاليمـه التي بثها فيها ، تعـد ولا ريب كتعاليم الرسل ، تبقى ميراثا خالدا لجميع الاجيال على مدى الأزمان ، فجيلنا ينتفع بها ، وسائر الاجيال القادمة ستستضيء دائما بضيائها .

واني استخير الله في أن أبين على وجه الاجمال ـ ما استطعت ـ آثاره في مصر ومدى جهاده في سبيلها ، وسأبذل الجهد في جلائها . واظهار معالمها

واذا كنت لا أستطيع أن أبلغ المدى في بيانها ولا يمكن لجهدي الوصول الى اظهارها على حقيقتها ، فاني أرجو أن أقارب في ذلك ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ! وأنى لي أن أبلغ الى ذلك المرتقى البعيد ؛ وقد كان السيد كالكوكب السيار الذي يرسل ضياءه من السماء على كل رجا من الارجاء .

علمت من قبل ان السيد جمال الدين الافغاني قد خرج من بلاده على نية أداء فريضة الحج ـ وما كاد يقضي ببلاد الهند التي كانت طريقا له الى البلاد الحجازية بضعة أيام حتى أرغم على مبارحتها فهبط مصر أول مرة وكان ذلك في سنة ١٨٧٠ فقضى بها حوالى أربعين يوما ثم تحول عزمه عن الحجاز وسافر الى الاستانة في المرة الأولى ـ ولم يلبث هناك غير بضعة شـهور ثم خرج بعدها مضطرا لأمور جرت بينه وبين شيوخ الدين الجامدين تقف عليها فيما بينه الأستاذ الامام محمد عبده من قبل في كلامه عن سيرته .

وعلى أثر ذلك عاد السيد من الاستانة الى مصر — وكان ذلك فى سنة ١٨٧١ ومن يوم أن حل بها أخذ يجاهد فيها بلسانه وقلمه فى أحاديث يبثها ، وخطب يلقيها ، ودروس يلقنها ، ومقالات يكتبها ، مما سيتبين لك مفصلا فيما بعد .

حالة مصر فى منتصف القرن التاسع عشر

واذا كان العظيم لا يعرف أثره ، ولا يظهر مقدار فضله ، ومبلغ جهاده الا اذا عرف حال العصر الذى نشأ فيه ، ومدى جهاده وعمله فى سبيل ترقيه .

ولما كنا قد بينا لك من قبل أمر نشأته وعلومه وما يتصل بشخصيته ثم اتينا على وصف حال العالم الشرقى كله عامة فى القرن الثامن عشر الذى اتصل به القرن التاسع عشر الذى ظهر فيه السيد جمال الدين الافغانى — وكنا نتحدث عن أثره وجهاده فى مصر فانه لابد لنا أن نبين حال مصر فى منتصف القرن التاسع عشر ، وليس أصدق فى ذلك مما ذكره الأستاذ الامام محمد عبده التلميذ الاكبر للسيد جمال الدين فى وصف هذه الحال لأنه عاصرها ، وشاهد أحداثها .

أهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ — سنة ١٨٧٦ م

قال رضى الله عنه يصف ما كانت عليه مصر فى زمن اسماعيل (١)

هذه كانت شدائد مهلكة وظلمات حالكة ، يضل بها الرشيد ويتعثر فيها العزم الشديد ، ولكن كان يلوح من خلالها ضياء لو كمل ظهوره . وانتشر نوره لاهتدى به الضال ، وحسن به الحال .

ذلك أن أهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣ (١٨٧٦) كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى وما يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب ارادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان الى أمانته وعدله أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه فى

---

(١) ص ٣٥ وما بعدها ج ١ تاريخ الأستاذ الامام .

ادارة بلاده . أو ارادة يتقدم بها الى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحا لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصرفون فيما تكلفهم به الحكومة وتضربه عليهم ، وكانوا فى غاية البعــد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت اسلامية أو أوربية ـ ومع كثرة من ذهب منهم الى أوربا وتعلم فيها فى عهد محمد على باشا الكبير الى ذلك التاريخ الذى ذكرناه وذهاب العدد الكثير منهم الى ما جاورهم من البلاد الاسلامية أيام محمد على باشا الكبير وابراهيم لم يشعر الأهالى بشىء من ثمرات تلك الأسفار ولا فوائد تلك المعارف التى اكتسبت بها ، ومع أن اسماعيل باشا قد أبدع مجلس الشورى فى مصر سنة ١٢٨٣ . وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأنا فى مصالح بلادهم وأن لهم رأيا يرجع اليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن له ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل هذه الهيئات الشورية ، لأن مبدع المجلس قيده فى النظام وفى العمل .

أما النظــام فلأنه قد نص فيه على أن نظــر المجلس منحصر فيما تراه الحكومة من خصائصه ، وما يعن لها أن ترسله اليه للمداولة فيه .

وأما فى العمل فلأنه كان يرسل من قبله عند المداولة من يخبر الأعضاء بارادة جنابه ! فيقررون ما يريد بعد مداولة صورية ، فكانوا يشعرون بأن الارادة المطلقة هى التى كانت ولا تزال تصرفهم فى آرائهم .

هل كان يمكن لأحد أن يعمل على خلاف مايأمــر به ؟ هل كان يمكن لشخص أن يميل بفكره عن الطريق التى رسمت له . أو الوجهة التى يتوجه اليها الحاكم ؟ لو حدثه الفكر السليم بأن هناك وجهة خيرا من تلك ، هل كان يمكنه أن ينطق بما حدثه به فــكره ؟ كلا فانه كان بجانب كل لفظ نفى عن الوطن ، أو ازهاق للروح ، أو تجريد من المال !!

حال الفلاح فى عصر اسماعيل

وقال رضى الله عنه يصف حال الفلاح فى عصر اسماعيل (١)

كان أهالى بلادنا محملين من الاثقال النقدية ما لا يطيقون من ضرائب على الأرض متنوعة متكثرة متجددة على الدوام بتجدد الأشهر والاعوام ،

(١) ص ٥٦ و٥٧ ج ٢ من تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده .

تفرض على الانفس وتوابعها من غير نظام ، لا تنتهى الى غاية (١)ولا تقف عند حد حتى بلغت بهم نهاية لا يستطيعون معها الأداء بشيء مما فرض عليهم ، ثم لم يكن لاقتضاء هذه الفرائض الثقيلة منهم وقت معين ، ولا قاعدة معروفة بل ذلك كان على حسب اشتهاء الحاكم وارادته الغير مرتبة ، فتارة يجبرون على أداء جميع أموال السنة بأنواعها فى أول شهر منها ، وتارة يطالبون بأموال السنة القابلة فى منتصف السنة الحاضرة ، ولا محيص لهم عن الأداء ، فان من تأخر عنه عومل بالضرب المهلك ، والحبس المؤيس ، أو انتزع منه جميع ما بيده قهرا ، وما شاكل ذلك من المعاملات الخشنة .

ولا يجد للخلاص من جميع ذلك سبيلا سوى الالتجاء الى التجار وارباب البنوكة (٢) الذين هم كانوا أعظم أعوان الظلم فى ذلك الوقت ، وأشد أنصاره فاذا رأوا حاجة الأهالى اليهم تدللوا وتمنعوا لعلمهم ان الكرباج وراءهم فلا قدرة لهم على الصبر ، ولا سبيل الى التخلص من ألم العذاب — ولو مؤقتا — الا بالرضا بكل ما يرسمونه عليهم من الفائدة — فكان التاجر لا يؤدى نقوده سلما ولا قبل الحصاد بعشرين يوما الا ستين فيما يساوى مئة وقت الحصاد ، فتكون الفائدة أربعين أو أزيد فى

---

(١) زادت الضرائب وتعددت لما تورط اسماعيل فى القروض ولم يستطع لها اداء فكانت الحكومة من اجل ذلك تبتدع كل يوم انواعا جديدة من الضرائب حتى على دواب الركوب والمواشى والاغنام والاشخاص وحتى على الملابس ، ولقد بلغت هذه الضرائب فى عهد اسماعيل حوالى اربعين صنفا .

هذا غير السخرة وهى عمل الفلاح مرغما فى أعمال الحكومة وفى مزارع الاعيان فكان يسخر هو واولاده ودوابه وطعامه وطعام دوابه فيها بغير اجر !!

ومن أراد زيادة فى البيان عن الضرائب التى فرضت على الفلاحين وأثرها السيىء عليهم ، وغير ذلك مما جرى فى عصر اسماعيل فليرجع الى كتاب « اسماعيل » للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى ليرى العجب العجاب . والى كتاب «الفلاح» للاستاذ يوسف نحاس فيرى المؤلم والممض.

وبمناسبة هذه الضرائب وما كان يلاقيه الفلاح من بلائها وويلاتها — اذكر حديثا جرى بينى وبين احد أهالى بلدتنا الذين تقدموا فى السن فقد قال : انه كان من الضرائب المضروبة عليهم ضريبة على « الزعبوط » الذى يلبسه الفلاح وكان مقدارها ريال وعند ادائها يختم على كم الزعبوط بخاتم يثبت أن صاحبه قد ادى ضريبته ، وكان هذا الخاتم بفعل الغسل ، يصيبه شيء من المحو — فكان الجباة — الذين يمرون دائما بالاسواق لجباية ضريبة الزعابيط وغيرها — اذا وجدوا خاتما قد ناله أثر من المحو يقولون لصاحبه (مسح) اى انه قد محى !! وفى هذه الحالة لا بد من اداء ريال آخر !

ولم يكن الجباة يقبلون عذرا ولا رجاء ومن أجل ذلك كان الفلاحون عندما يغسلون الزعبوط يربطون على مكان الختم حتى لا يصيبه بلل الماء .

(٢) كان هؤلاء المرابون يلازمون المحصلين حتى اذا اعتذر احد الاهلين عن اداء ماعليه لعسره، قال المحصلون له : هذا هو المرابى ، وهو مستعد لانقاذك !

وحينئذ يتدلل المرابى ، ويتمنع حتى يرضى الفلاح بقضائه وقدره .

الشهر الواحد ، وصاحب البنك لا يعطى الا بفائدة عشرة فى المائة بل أزيد ففى كل شهر — ومن الناس من يأخذالمائة بمائتين فى أربعة أشهر ،وجميع هؤلاء حاضرون أحياء نعلمهم وهم يشهدون.

كانت تلك الأيام ويلا ووبالا على الحكومة وعلى الأهـالى جميعا ، وكانت سعدا وربيعا للتجار ، وارباب البنوكة الغرباء الدخلاء الذين انتشروا بين أبناء البلاد انتشار الذباب بين الاغنام ، فأثقلت كواهل الفلاحين وغيرهم من الوطنيين بالديون الهائلة ، واضطرهم العجز لبيع أملاكهم ، ورهن عقاراتهم وأراضيهم ، أو الانسلاخ منها بالكلية فأحاط بهم الفقـر وصاروا فى أسوأ حال .

وبينما الناس على هذا ! لا كاتب ينبههم ، ولا خاطب يعظهم ، اذ عرض أمر قلما يلتفت اليه ، أو تحوم الأفكار حواليه ، وان كان مما يعرض فى كل مكان ، وجرت به السنة الالهية فى كل زمان .

مبدأ النهضة المعنوية بمصر

ثم يتابع الأستاذ الامام حديثه عن مبدأ النهضة المعنوية بمصر فيقول :

جرت سنة الله فى خلقه بأن عظائم الأمور تتولد من صغارها ، كما أن ضخام الأشجار تبسق من بذورها !

جاء الى هذه الديار فى سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) رجل غريب ، بصير فى الدين عارف بأحوال الأمم ، واسع الاطلاع ، جم المعارف ، جرىء القلب، وهو المعروف بالسيد جمال الدين الأفغانى ، وركن الى الاقامة فى مصر فتعرف اليه فى بادىء الأمر بعض طلبة العلم ، ثم اختلف اليه كثير من الموظفين والأعيان ، ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد ، فكان ذلك داعيا لطلب الاجتماع به لتعرف ما عنده ، ثم اشتغل بالتدريس ببعض العلوم العقلية ، وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم ، وهو فى جميع أوقات اجتماعه مع الناس لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل أو يطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس الى معالى الأمور ، أو يستلفت الفكر الى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ، وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف الى بلادهم أيام البطالة والزائرون يذهبون بما ينالونه الى أحيائهم . فاستيقظت مشاعر واتنبهت عقول وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة فى البلاد خصوصا فى القاهرة .

كان ذلك والحاكم القوى فى علو مكانه أرفع من أن يناله هذا الشعاع فى ضعف شأنه ، ولا زال هذا الشعاع يقوى بالتدريج البطىء وينتشر فى الانحاء على غير نظام، الى أن نشبت الحرب بين الدولة العثمانية ودولة الروسيا سنة ١٢٩٣ (سنة ١٨٧٦ م) حتى وجد الناس من أنفسهم لذة فى الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم مع

دولة الروسيا ، فتطلعوا الى ما يرد من أخبار الحرب ، وكثرة الأجانب فى هذه البلاد سهلت ورود الجرائد الأوربية الى طلابها الأوربيين ، ومخالطتهم للعامة والخاصة مهدت الطريق الى العلم بما فيها ، فزاد تشوق الناس الى الوقوف على حوادث تلك الحرب ، وسرى هذا الشعور الى بعض الجرائد العربية التى كانت لا تزال الى هذا العهد قاصرة على ما لا يهم . فانطلقت فى ايراد الحوادث ونشرها وظهر فيها الميل الى اطراء ما كانت تأتى به العساكر الروسية وازدراء ما كان ينسب الى الجنود العثمانية ، فوجد من الناس الناقم على تلك الجرائد والناصر لها ، وحدث بين العامة نوع من الجدل لم يكن معروفا من قبل ثم استحدثت جرائد كثيرة لمجاراة ما سبقها فى نشر الأخبار ومناوأتها فى المشرب واندفعت الرغبات الى الاشتراك فيها الى حد لا يمكن منعه ، وقضى سلطان الوقت على سلطان الارادة القاهرة .

لم يكن ماينشر فى الجرائد محصورا فى حوادث الحرب ، بل اجترأ الكثير منها على نشر ماعليه سائر الأمم فى سيرتهم السياسية والمعاشية ، وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدا فى الحكومة المصرية من سوء الأحوال المالية ، وكثر المتحدثون بما يكثر فى تلك الجرائد ــ وأخذ الشيخ جمال الدين فى حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير وانشاء الفصول الأدبية والعلمية فى مواضيع مختلفة لا تخرج جميعها عن اصلاح الافكار . وتهذيب الأخلاق ، فتسابقت الى ذلك الكتاب وتبارت الأقلام ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر فى الجرائد الى درجة يظن الناظر فيها انه فى عالم خيال ، أو أرض غير أرض الخيال ، ومن يطلع على أعداد جريدة مصر وجريدة التجارة وجريدة مرآة الشرق (١) والأهرام وصداها يرى حقيقة ما ذكرناه .

هذا وصف موجز لما كانت عليه مصر فى زمن اسماعيل كتبه الأستاذ الامام عن خبرة ومشاهدة (٢)

(١) سيأتيك بيان اوسع عن الجرائد التى أسسها أو أوعز بانشائها .
(٢) يرجع الى تفصيل أحوال البلاد وما أصابها من ظلم أسماعيل الى كتاب عصر اسماعيل للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى .

إسراف إسماعيل وما ترتب عليه من التدخل الأجنبي

كان اسماعيل يسير فى حياته الشخصية سيرة تبذير واسراف بغير رقيب ولا حسيب ، اذ لم يكن للبلاد مجلس نواب يحاسبه على اسرافه وكان المجلس الذى أنشأه لا يستطيع أن يعترض على شىء من تصرفاته ، ومن أجل ذلك لم يكتف بانفاق موارد الدولة كلها ولا بما كان يفرضه على الشعب كل يوم من ضرائب متنوعة باهظة ، وانما لجأ الى الاقتراض الفاحش كما يشاء له هواه وقد أحصى بعض الماليين مقدار ما تسلمه من القروض أثناء حكمه بما قيمته ٩٦ مليونا من الجنيهات ، وابلغها بعضهم الى ١١٠ مليونا من الجنيهات ولم يقنعه كل ذلك بل استولى هو وبطانته على ما فى خزائن بيت المال والأوقاف الخيرية من الأموال المودعة على ذمة الخيرات أو لحساب القصر والأيتام ، وبلغ ما أخذ من هذا الباب ٥٣٧٠٠٠ جنيه (١) .

ولقد بلغ من اسرافه أن انفق مرة فى الاستانة حوالى مليون جنيه على ولائم وحفلات ورشاوى ، وبذل فى المعرض العام الذى أقيم بباريس سنة ١٨٦٧ ما يبلغ مليون جنيه وأضاع فى حفلات افتتاح قناة السويس نحو مليون ونصف مليون جنيه .

وقد كان من عواقب هذا الاسراف الذى فاق كل حد أن فتح الباب للتدخل الأوروبى فى أحوال مصر ، هذا التدخل الذى جر على البلاد من الكوارث ماجر وقد وقع ذلك فى أواخر سنة ١٨٧٥ وأوائل سنة ١٨٧٦ وقد حدث حينئذ ان اشترت انجلترا أسهم مصر فى القناة ثم قدوم بعثة مستر «كيف» الانجليزية لفحص مالية مصر فى سنة ١٨٧٥ وأعقب ذلك انشاء صندوق الدين فى مايو سنة ١٨٧٦ ليتسلم المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية كأنه حكومة داخل الحكومة المصرية ، ثم انشىء نظام الرقابة على المالية المصرية ، يخضع الخديوى لمشورتها ، ولا يعقد قرضا الا بموافقتها ، وهذا النظام يقضى بأن يتولى الرقابة على المالية المصرية مراقبان : أحدهما انجليزى والاخر فرنسى ، وأنشئت غير ذلك لجان مختلفة أخرى لها سلطات كبيرة وقد تطورت

---

(١) ص ٥٠ و٥١ و٥٢ من الجزء الثانى من عصر اسماعيل .

هذه الرقابة الثنائية الى تأليف وزارة مختلطة برياسة نوبار (باشا) الأرمنى ، وفيها وزيران أوروبيان أحدهما انجليزى لوزارة المالية ، والآخر فرنسى لوزارة الأشغال .

كل هذا وغـيره مما فصلناه قد حدث فى مصر مـدة اقامة السـيد جمال الدين الافغانى بها ، فكان له أثر فى انفعاله وجهاده من أجلها .

كانت مصر فى عهد مظلم

نقلنا لك ذلك الوصف البليغ الذى وصف به حالة مصر فى عهد اسماعيل الاستاذ الامام محمد عبده وهو اذا كان كافيا فانا نعززه بشهادة رجل عظيم أجنبى عرف بانصافه وحدبه على مصر وأهلها ذلكم هو المستشرق الكبير مستر بلانت وحسبنا أن نورد هاتين الشهادتين خشية التطويل .

قال مستر بلانت :

لما عاد الى القاهرة من الآستانة ، (أى جمال الدين) كانت مصر فى عهد مظلم لأن فساد الحكم، ولاسيما فى عهد اسماعيل قد لوث جميع الطبقات، وأطفأ جذوة الشجاعة والاستقلال فى صدور العلماء — وما لبثت النار والغيرة اللتان يتدفق بهما حديثه أن جمعتا حوله طائفة من الشبان المريدين كما حدث فى الاستانة وأهم هؤلاء المريدين الشيخ محمد عبده الذى قدر له أن يلعب فيما بعد دورا هاما فى الشئون العامة والشيخ ابراهيم العجمى (١) الصحفى المعروف ، والى هذين استطاع الشيخ أن يفضى بكنوز علمه بلا تحفظ وأن يغرس فيهما روح النقد التى طبع عليها ويبعث فيهما كثيرا من جرأته — والحق أن الشجاعة كانت ضرورية لكل رجل يتكلم فى مصر بالصراحة .. ولم يكن اسماعيل يسمح بأقل معارضة وكان حكمه مطلقا حتى فقدت الألفاظ المستقلة فى أفواه الرجال وكانت السلطات الدينية العليا . والموظفون الكبار دمى طائعة

---

(١) الذى ينطبق عليه هذا الوصف هو ابراهيم اللقانى الذى كان المريد المخلص للسيد بعد الأستاذ الامام محمد عبده — ص ٢٧٤ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام .

سكوتهم على الظلم وآثروا الموافقة ما داموا يحصلون على أنصبتهم من الأسلاب . وعلى هذا الحال السيئة ، ان عقلية أو أدبية ، أشرقت تعاليم جمال الدين الجريئة كما يشرق الضوء الغريب وضمنت له شجاعته اصغاء الناس بغير تدخل الحكومة ..

وقد أبيح لجمال الدين أن يصل محاضراته خلال السنوات التى بقيت من حكم اسماعيل ، ولم يلق القبض عليه الا فى عهد توفيق ــ وبعد انشاء المراقبة الانجليزية الفرنساوية وقد نفي بلا محاكمة ــ ولكن بعد أن أدى رسالته ــ واعتنق كل ذكى نبيه فى الأزهر قواعد الاصلاح الحر .

أثره العلمى والأدبى فى مصر

كان الأدب العربى فى نثره وشعره ــ عندما هبط السيد جمال الدين مصر ــ لا يخرج عن نثر سخيف ، وشعر بارد ، فى الغزل والمديح والاستعطاف وما الى ذلك من الاغراض التى لم يكن الشعراء يحسنون غيرها ، ولم يكن يدرس فى مصر من العلوم غير التى تدرس فى الأزهر كالفقه والتوحيد والتفسير ونحوها ــ وكانت هذه العلوم تدرس فى هذا المعهد على الطريقة العتيقة التى ألفها ، وهى تنحصر : فى المتن والشرح والحاشية والتقرير ــ ونقل ما فى الكتاب الى الرءوس بغير فهم ولاادراك ، ولكن لم يكد السيد جمال الدين الافغانى يصل الى مصر حتى انبعثت ثورة فى الأدب والعلم ، واهتدى اليه كثير من طلبة العلم ، واستوروا زنده فأورى ، واستفاضوا بحره ففاض درا ، وقد وجه السيد عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول ، فنشطت بذلك الباب ، واستفاءت بصائر ، وحمل تلامذته على العمل فى الكتابة ، وانشاء الفصول الأدبية والحكمية والدينية ، فاشتغلوا على نظره وبرعوا ، وتقدم فن الكتابة فى مصر ، ويطيب لنا أن نسوق هنا كلمة لشاعر مصر الكبير محمد حافظ ابراهيم ، وهو من نوابغ تلاميذ الاستاذ الامام ، يخاطب بها رجال الأدب فى عصره ، ويبين فضل السيد جمال الدين على اللغة العربية وأثره فى احياء آدابها (١) .

---

(١) راجع ماكتبه الاستاذ الامام محمد عبده عن اثره العلمى فيما سبق .

قال رحمه الله (١)

انى اراكم بين متفصح على أخيه ، ومتنبل على قرينه ، وليس هذا صنع من يريد ما تريدون — تحاولون رد هذه الدولة (٢) الى شبابها ، بعد أن خلا من سنها ، ولو لم يتداركها الله بهذا الأفغانى (٣) لقضت نحبها ، ولقيت ربها قبل أن يمتعها بكم ، ويمتعكم بها .

أدركها الافغانى ولم يبق فيها الا الذماء فنفخ فيها نفخة حركت من نفسها ، وشددت من عزمها ، أدركها وهى شمطاء قد نهض منها بياض المشيب فى سواد الشباب ، فشاب قرناها قبل أن تشيب ناصية القرن الخامس (الهجرى) فسودت يده البيضاء ما بيضت من شعرها سود الليالى ، وتعهدها همته بصنوف العلاج حتى استقامت قناتها ، وبدا صلاحها ، وقد كان الناس فى هذا العهد يدينون باللفظ ويكفرون بالمعنى ، فمازال بهم حتى أبصروا نور الهدى ، وخرجوا بفضله من ظلمات القرون الوسطى — وقام بعده نفر ممن تأدبوا عنه فكانوا كالسيوف فرجت للرماح ضيق المسالك فانفسح للمتأدبين المجال وجال كل جولته وتنبه الوجدان ، وتيقظ الشعور وتحرك الفكر ، حتى افضى الى حركة النفس ، وظهر أثر جمال الدين فى النفوس العالية ، وأصبحت تبتدر كلامه الاسماع الواعية ، فكان من ذلك أن انطوى أجل التقليد ، وان بعث الله على يديه ميت اللغة ، وأحيى رفات الانشاء . وغادر رحمة الله عليه مصر ولم يضع لنا كتابا نأخذ عنه ، أو مؤلفا نغترف منه ، ولكنه ترك لنا رؤوسا تؤلف ، وأفكارا تصنف ، وكأنه أحس بذلك حين أحس بالموت فكان يقول وهو يجدد نفسه : خرجنا منها ولم ندع لنا أثرا ظاهرا بين السطور ، ولكن لم نغادرها حتى نقشنا ذلك الأثر على صفحات الصدور ، فان لم ترثوا عنا فى بطون الكتب فقد ورثتم عنا فى صدور الرجال ، فاذا حثوتم التراب على رجل الافغان فعليكم برجل مصر (٤) .

---

(١) نشرت هذه الكلمة فى كتاب (ليالى سطيح) ص ٦٢ ـ ٦٤ .
(٢) أى دولة الادب .
(٣) هو السيد جمال الدين الافغانى
(٤) أى الاستاذ الامام محمد عبده .

خرج من الدنيا كما خرج سقراط ، لم يغادر كلاهما مؤلفا ، ولم يدع مصنفا ، فلولا محمد عبده ما عرف رجل الافغان ، ولولا أفلاطون ، ما ذكر رأس فلاسفة اليونان .

واذا أردنا أن نجمل القول فى أثر السيد جمال الدين العلمى والادبى فانا نقول مع من قال : ان مجيئه الى مصر كان يشبه أن يكون فتحا علميا كتأسيس معهد من معاهد العلم العالية .

موقف الأزهر من السيد جمال الدين

١ كان أول ما بدأ به السيد جمال الدين الافغانى حينما قدم الى مصر ، أن زار الجامع الأزهر ،ذلك المعهد الدينى الكبير الذى يضم طلابا من أكثر البقاع الاسلامية ، لكى يلقى فيه دروسه ، فتنكر له شيوخه ووقفوا بجمـودهم فى وجهه ، فلم يمكنوه من الوصول الى غرضه ، وبذر بذور علمه فى أرضه ، وقد ذكر ذلك صريحا تلميذه النجيب الكاتب الأديب أديب اسحاق فى ترجمته حيث قال : لما قصد السيد وادى النيل عام ١٨٧٢ بعد مبارحته الاستانة جرت بينه وبين بعض علماء الازهر مناظرة ، أفضت الى المنافرة ، فانقطع الى منزله وصار له فيه حلقة تدريس يحضرها كثير من الطلبة بل من المدرسين ، ثـم صارت حلقته ملتقى النبهاء ، من رجال الحكومة والوجهاء ، فكان يكاشف بعضهم بآرائه الحرة ، ويسلك بسائرهم طريق النجاة من الخرافة والجهل (١)

ولما رأى شيوخ الازهر أن دروسه قد أقبل عليها بقوة كثير من الطلبة الدينيين والمدنيين ، وان عدد المستمعين يزداد يوما فيوما وان أفكاره النبيلة التى كان يبثها قد أخذت سبيلها الى الاذهان ، وذاع صيته فى كل مكان ، اشتعلت فى قلوبهم نار الحقد والحسد وأخذوا يطعنون فيه وفى تلاميذه .

قال الاستاذ الامام محمد عبده رضى الله عنه : قد صاحبته من ابتداء شهر محرم سنة ١٢٨٧ (٣ ابريل سنة ١٨٧٠) وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمة والفلسفة والكلامية ، وأدعو الناس الى التلقى عنه. كذلك أخذ مشايخ الازهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الأقاويل بل

---

(١) ص ٨٦ من كتاب الدرر .

يزعمون أن تلقى تلك العلوم ، قد يفضى الى زعزعة العقائد الصحيحة وقد يهوى بالنفس فى ضلالات تحرمها خيرى الدنيا والآخرة (١) .

وكان أكبر الطاعنين على السيد والامام ـ الشيخ عليش الذى كان يعده الشعب المصرى حينئذ من كبار العلماء الأولياء .

ومما كفروه من أجله دراسة الفلسفة لأن ذلك يعد فى نظرهم كفرا حتى قال شاعرهم فى متن الجوهرة التى تدرس فى معاهدهم :

ومن يقل بالطبع أو بالعلة   فذاك كفر عند أهل الملة (٢)

---

(١) كان شيوخ الازهر يضعون امام تدريس العلوم الحديثة هذين الحدين احدهما قولهم : الجمهور على غير ذلك ! والثانى : هذا امر لم تجر به العادة ! ولموقفهم هذا أنشئت مدرسة دار العلوم لتخرج معلمى اللغة العربية ومدرسة القضاء الشرعى لتخرج القضاة الشرعيين .

(٢) اليك ملخصا لكلمة نشرها الاستاذ احمد لطفى السيد بعد أن القاها على طلبة الازهر : ان اتصالى بالازهر لم ينقطع منذ خمسين سنة ، حينما كان الازهر لا يزال حتى بعد السيد جمال الدين الافغانى وتلاميذه تغشاه غاشية من سلطان هذه القاعدة :

ومن يقل بالطبع او بالعلة   فذاك كفر عند اهل الملة

وحين بعث من رقدها تلك الفكرة القديمة العباسية « من تمنطق فقد تزندق » .

وحين كانت علوم الجغرافيا والتاريخ والحساب وما اليها تسمى « بالعلوم الحديثة » وحين كان استاذى الامام محمد عبده يحتال لارضاء الازهر بأن يسمى علم الطبيعة « علم خواص الاشياء التى أودعها الله فى الاجسام » .

ثم ذكر حكاية ننقلها بنصها لطرافتها :

كان الشيخ محمد عبده واستاذى الشيخ حسونة النواوى وجلة من العلماء على مائدة احد اصحابه ، فامسك الشيخ محمد عبده قطعة من الخبز ومسح بها ملعقته ، فقال له أحد العلماء : أحلال هذا أم حرام ؟ فقال له : سيدنا وسيدك الشيخ حسونة النواوى يحكم فى هذا بينى وبينك . (عن جريدة الاهرام الصادرة فى ٢٣ ابريل سنة ١٩٤٥) .

ومما يدلك على أن شيوخ الازهر كانوا يحرضون تلاميذهم على السيد جمال الدين وتلاميذه كما قرر ذلك الاستاذ الامام ما قصه الاستاذ ابراهيم الهلباوى الذى كان زميلا للاستاذ الامام فى طلب العلم بالازهر ، على الاستاذ طاهر الطناحى مدير مجلة الهلال ، قال رحمه الله :

لعلك تعجب اذا قلت لك : انى كنت من أعدى أعداء الشيخ محمد عبده وأستاذه السيد جمال الدين الافغانى . ولما وفد السيد على مصر سنه ١٨٧١ وكانت سنه لا تزيد على الثانية والثلاثين اخذ يلقى دروسا فى العلوم الدينية والادبية والفلسفية بروح جديدة واسلوب جديد لم نعهده فى الازهر ... فكان طبيعيا أن ينقم عليه شيوخنا ويحرضوننا عليه وعلى أتباعه ، وكنت يومئذ من أشد الناس كرها لجمال الدين وتلاميذه وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده ، وقد بلغ بى طيش الصبا أن توجهت الى أستاذنا الشيخ عليش ، وكان من أعلام الازهر ومشاهير العلماء . فزعمت له أن محمد عبده يصلى العصر بغير وضوء . فأرسل معى جمعا من الطلاب فوجدناه يصلى فقطعنا صلاته ، وأخذناه عنوة الى الشيخ ، وهناك أمر بضربه فانهلنا عليه ضربا موجعا .

=

وثم سبب قوى آخر أوغر صدور شيوخ الأزهر على السيد جمال الدين لا مناص لنا من ذكره هنا ، ذلك انه كان يحارب الخرافات والاوهام والتوسل بالأموات مما انتشر بلاؤه بين الناس جميعا فى بلادنا، جاهلين ومتعلمين، وكان لا يمل فى ذلك ولا يلين ، ومما مكن لهذه العلة فى بلادنا — أن العوام ليسوا وحدهم هم الذين يرتكبون هذه الخرافات وانما كان شيوخ الدين يؤمنون العامة فى اقترافها ، ويفتونهم باتيانها ، بل انك لتجدها مقررة فى كتبهم التى يدرسونها .

= وبعد سنتين دخل علينا ذات ليلة ضابط من الجيش ومعه جندى وكنا نسكن فى « ربع عنان » وقال للجندى : من اعتدى عليك من هؤلاء المشايخ ؟ فقال الجندى : ان المعتدى « عجمى » فادركت أنه يعنى جارنا السيد جمال الدين ، وذهبت معهما لادلهما عليه . ولما وصلنا الى مسكن السيد سأله الضابط عن ضرب الجندى فأجابه : اخلع نعليك أولا وأنا أقص عليك الحادث . فامتثل الضابط وخلعنا نعالنا وجلسنا فاستدعى السيد جمال الدين تابعه « ابا تراب » وأمره أن يقص عليه الحادث فتبين أن الضارب أبو تراب ، وان الجندى كان يلبس الملابس البلدية ويسير فى الربع حاملا شيئا معه فظنه لصا ، واعتذر ابو تراب عما حدث وانتهز الضابط فرصة وجوده عند جمال الدين وسأله :

هل صحيح انه وجدت جماعة فى عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم تأبى الايمان بدين محمد ولا تقيم الشعائر الدينية اكتفاء بما تقوم به من سقاية الحجاج وعمارة المسجد الحرام ؟

فالتفت السيد الى وقال : اتحفظ القرآن يافتى ؟

قلت : نعم .

فقال : اقرأ : « اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ، لايستوون عند الله الخ الاية فقرأتها واعجب الضابط بهذا الجواب .

اما انا فقد أزالت هذه الحادثة كل ما كان فى نفسى من السيد جمال الدين ، وآمنت بانه من افاضل العلماء ، وقد أحببته واحببت الشيخ محمد عبده وسائر اتباعه وصرت تلميذا للاول ثم تلميذا للثانى وصديقا حميما الى ان توفاه الله .

هذه شهادة أحد الطلبة النابغين الذين تخرجوا على جمال الدين بعد ان كان — بتحريض شيوخه — من أعدى الناس له .

رسالة السيد الدينية
وما قام به منها فى مصر

جاء السيد جمال الدين الى مصر لينشر تعاليمه واصلاحه الدينى والسياسى والفكرى والاجتماعى وكانت رسالته الدينية ان يعيد المسلمين الى ما كان عليه السلف الصالح فيأخذون دينهم من منبعه الصافى ـ وهو القرآن الكريم ـ بعد أن هجروه وجعلوه فى كتب استحدثوها فى العقائد والعبادات ، يقضون فى دراستها السنين الطويلة ـ وانك لتجد فى هذه الكتب ان العقيدة السمحة قد ذهب نورها تحت المتون والحواشى وأصبحت نحلا وفرقا مختلفة والعبادة التى كان يعلمها النبى صلوات الله عليه فى مجلس واحد للمسلم قد صارت مذاهب متعددة تدرس فى سنين متعددة مما لا يعرفه الاسلام أيام النبى صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه أصحابه ـ ولا أكون بعيدا عن الصواب اذا قلت : ان الصحابة لو بعثوا اليوم ، وامتحنوا فى هذه الكتب لخرجوا من امتحانهم فيها بالمكعب وهو (الصفر !) ولا حول ولا قوة الا بالله .

وقد جمدوا على هذه الكتب وبدلوا بها دينهم كما قال العلامة أبو شامة (١) ان بعض العارفين قد سئل عن معنى المذهب ؟ فأجاب : ان معناه دين مبدل .

من أجل ذلك كانت دعوة السيد جمال الدين الدينية شاقة فى رد الناس الى التوحيد الخالص ولا ريب فى أنه أول من دعا اليه فى مصر منذ قرون طويلة . ذلك بان هذه العقيدة كانت بتوسلات أهلها ـ وبخاصة مشايخ الدين منهم مشوبة بالشرك الاكبر وكذلك كان أول من فتح باب الاجتهاد بعد أن أوصده شيوخ الدين حوالى ألف سنة (وأوجبوا كما

(١) ص ١٠ من كتاب المؤمل للرد الى الامر الاول .

علمت تقليد الأئمة الاربعة ، وبذلك جمد الدين فى أيديهم ، وأصبح لا أثر له فى حياة الناس فى هذا العصر بعد أن كان صالحا لكل زمان ومكان

وقد أجمع كل الذين أرخوا للسيد جمال الدين ، أنه هو الذى جدد الدين فى هذا العصر وانه كما قال مؤلفو تاريخ العرب المطول :

يعد الباعث الرئيسى الاول للروح العصرية فى الاسلام ـ وقد ساهم هو ومحمد عبده فى تمزيق ثوب المحافظة والرجعية التى التف بها الاسلام منذ العصور الوسطى .

وكذلك كان أول من دعا الى الحكم الجمهورى وندد بحكم الفرد الظالم المستبد كما بين ذلك مستر بلانت مما ستراه قريبا .

ولا بأس أن نورد هنا صفحتين من كتاب (التاريخ السرى لاحتلال مصر ، لمستر بلانت بين فيهما تأثير السيد جمال الدين — الدينى فى مصر :

قال مستر بلانت :

« أسعدنى الحظ ـ فيما أريد أن أتعلمه من شئون الاسلام ـ بأن عرفت من (روجرزيك) أحد المستشرقين الممتازين اسم عالم شاب متصل بالأزهر يدعى (الشيخ محمد خليل) فأخذ يتردد على يوميا ليعطينى درسا فى اللغة العربية وقد ظهر أنه أكثر من أن يكون مجرد أستاذ لتعليم القرآن . وكان من طلاب تلك المدرسة النقية التى كان أستاذها يومئذ أستاذه الشيخ محمد عبده .

وكان تقيا فخورا بدينه مجردا من الرياء والتعصب المذهبى ، وكان مذهبه فى التفسير أوسع المذاهب ، يعتبر جميع الديانات التى تنص على وحدانية الله صحيحة .

ولم تكن اليهودية والمسيحية فى نظره الا صورة مشوشة لذلك الدين الحقيقى ، دين ابراهيم ونوح ، ولذلك لم يسمح بسماع أى قدح فى أصحاب هذين الدينيين لقربهم فى اعتقاده من المسلمين . وعنده أن المثالب والحزازات انما هى ميراث الحروب القديسة ، ويعتقد أن العالم سيرقى الى حالة اجتماعية كاملة حيث تنزع الأسلحة ، ويتوثق الاخاء بين الأمم والمذاهب .

ويمكن تصوير سرورى العظيم ، اذ شرح لى هذه الآراء وأيدها بذكر التقاليد أو القواعد معلنا — أنها تعاليم الاسلام الحقيقية — أقول يمكن تصوير سرورى اذ وقفت على هذه الآراء التى هى قريبة جـدا من آرائى ولاسيما حين أكد لى أنها من الآراء التى يعتنقهـا الجيـل الحـاضر من الأزهريين وغيرهم من الطلبة فى العالم الاسلامى .

وحكى لى كيف نشأت هذه الآراء فى الأزهر وكيف أن نشوءها فى أول عهده بالتعليم فى تلك الجامعة الكبرى .

ومن أغرب ما يروى — أن الفضل فى نشر هذا الاصلاح الدينى الحى بين العلماء فى القاهرة لا يعود الى عربى أو مصرى أو عثمانى ، ولكن الى رجل عبقرى غريب يدعى : السيد جمال الدين الأفغانى .

وهو رجل لم تتجاوز تجاريبه العالمية قبل حضوره الى مصر دائرة آسيا الوسطى — وهو أفغانى المولد ، تلقى تربيته الدينية فى بخـارى وفى ذلك المكان السحيق ، وبغير أن يتصل بأى أستاذ من الذين يعيشون فى مراكز الاقطار الاسلامية الراقية ، استنبط فى درسه وتفكيره ، الآراء التى تعزى اليه اليوم .

وبعد أن تكلم مستر بلنت عن مولد السيد وتعليمه قال :

وكانت حركات الاصلاح فى العالم الاسلامى التى انحصرت الى ما قبل ذلك فى التقهقر القديم ولم تسر فى طريق التطور .

وقد جاء فى القرنين الأخيرين كثير من الواعظين ، ووجد كذلك فى مصر وتركيا مصلحون ولكنهم لم يوفقوا بين اصـلاحاتهم وبين قواعـد القرآن وتقاليده .

نبوغ جمال الدين

أما نبوغ جمال الدين ففي اجتهاده فى حمل الممالك التى وعظ فيها على أن تعيد النظر فى الموقف الاسلامى كله ، وأن تستبدل بالتمسك بالقديم ، التحرك الى الأمام حركات أدبية منسجمة مع العلم العصرى — وقد مكنه علمه التام بالقرآن والسنة — من اقامة الحجة على أنهما لو أحسن تأويلهما معا — لكان الاسلام كفؤا لاحداث تطور راق عظيم .

وقد كان حاد الذكاء قوى الحافظة حتى قيل : انه يستطيع أن يقرأ كتابا برمته فى أى موضوع ثم لا يشرد من ذهنه كلمة منه بعد ذلك .

ومن قوله : « ان الاسلام السنى يوفق بين نفسه وبين أرقى ما تصبو اليه النفس الانسانية ، وما تحتاجه الحياة العصرية .

نقده للمذاهب المسلم بها

وكان يوحى الشجاعة بجرأته ، وينقد المذاهب المسلم بها حتى مذهب أبى حنيفة (١) فيقبل الناس نقده بما لا يمكن أن يتيسر لرجل غيره .

وكان همه أن يطلق العقول من الأغلال التى قيدتها طول الأجيال الماضية ويقيم الحجة على أن الدين الاسلامى ليس شيئا ميتا ولكنه نظام يصلح الانسانية المتطورة فى جميع العصور ، فهو لا يأبى التطور .

الاسلام جمهورية لكل مسلم

ثم قال مستربلانت وهو يقص فى كتابه «مقدمات الثورة» المصرية :

وكان الشيخ جمال الدين وتلاميذه قد حكسوا أن استبداد أمراء المسلمين الآخذ فى الزيادة مخالف لتعاليم الاسلام الذى هو فى الحقيقة جمهورية لكل مسلم فيها حق الخطابة فى مجتمعها ، كما أن سلطة الحاكم فيها لا تعتمد الا على حسن قيامه بتنفيذ الشريعة وبيعة الناس — وقد طعن علماء الأزهر على اسماعيل فقالوا : انه معتد على القانون وظالم سياسى

(١) كان السيد فى أول أمره على مذهب أبى حنيفة كما قرر ذلك تلميذه الامام . ثم صار لا يقلد أحدا . ولعل ما ذكره مستر بلانت قد نقله عن السيد جمال الدين لأنه كان صديقا حميما له وسيأتى لك فيما بعد قوله فى الاجتهاد .

المحفل الماسوني الذي أنشأه جمال الدين

رأى السيد جمال الدين من تمام منهجه فى غرس تعاليمه فى أرض مصر وتعميم نشرها لكى تصل الى كل طبقات الشعب وبخاصة الطبقة العالية ان ينضم الى المحفل الماسونى الاسكتلندى الذى كان بمصر ـ لأنه كان يجمع صفوة القوم من مصريين وأجانب ، وذلك لكى يتمكن بذلك من بث أفكاره فيهم ، ولما وجد أن أعضاء هذا المحفل لا يريدون أن يتدخلوا فى السياسة ـ وان فيه أشياء لا يرضى عنها وعمله كله متصل بالسياسة استقال من هذا المحفل وأنشأ محفلا آخر سرعان ما بلغ أعضاؤه أكثر من ثلاثمائة عضو من نخبة المفكرين والوجهاء ومن مريديه ـ وقد كان يمرن فى محفله هذا تلاميذه على الخطابة ويلهمهم مبادئه الثائرة ، ويوقظ فيهم عواطف الوطنية ويدعوهم الى الشغف بحياة الحرية ، والنظم الدستورية ، ويعدهم للعمل ، وكان كل ذلك بمطلق الحرية ، والمحافل الماسونية فى نظمها كتم الأسرار ـ وبذلك هيأ من هؤلاء التلاميذ طبقة ملئت قلوبها وعقولها بالحرية والجرأة والاقدام والشجاعة

وأول عمل قام به بعد ذلك أن جعل من تلاميذه هؤلاء شعبا عهد الى كل شعبة وزارة من وزارات الحكومة تلفت من فيها الى احقاق الحق ، واقامة العدل وعدم الظلم . وبخاصة مع الموظفين اذ كان الموظف المصرى يتناول ربع أو خمس مرتب زميله فى العمل من الشراكسة وغيرهم ممن كانوا غير مصريين، ولنضرب لك مثلا : شعبة وزارة الحربية فقد ذهبت هذه الشعبة الى ناظرها أى وزيرها وكان يسمى (ناظر الجهادية) وطلبت منه أن ينظر بعين العدل(١) والانصاف الى الضباط المصريين الذين طال مكثهم فى السودان أكثر مما

---

(١) يتبين من ذلك أن أول من طالب بانصاف الضباط المصريين هو السيد جمال الدين الأفغانى .

تستوجبه القوانين المسنونة وكانت الخدمة بالسودان بحسب هذه القــوانين يتناوبها جميع الضباط ، وطنيين وشراكسة ، ولكن الضباط الشركسيين لـم يكونوا يذهبون الى السودان !! وانما كان الذين يذهبون اليه هم الضباط المصريون وحدهم ولذلك كانوا يقضون سنين طويلة بغير أن يستبدل بهم غيرهم .

وطالبوه كذلك بأن يساوى بين الضباط المصريين وغيرهم فى المرتب وغير ذلك ومما ذكره جورجى كوتش فى تاريخ السيد جمال الدين : من أعمال المحفل الماسونى : ان السيد جمال الدين حينما جاء الى مصر ، رأى الحالة المالية تسير الى الانحطاط من يوم الى يوم بسوء تدبير اسماعيل (باشا) حتى لقد بلغت حدا تأخرت فيه رواتب الموظفين والجنود سنتين (وقد) ذهب الضباط وتلاميذ المدارس الحربية الى قصر عابدين والىوزارة المالية ليصونوا مصالحهم وسبوا رئيس الوزراء نوبار باشا ومستر ويلسون المستشار المالى حتى اضطر اسماعيل باشا الى حبس زعماء الثورة فى سجن الطونجانة العام

عندئذ قصد جمال الدين فى نفر من رجــال المحفل الماســونى الى مسيو تريكو الممثل السياسى لفرنسا والى رئيس الوزراء الجديد طالبا باسم الماسونية المصرية أن يسرح المسجونون فسرعان ما أجيب مطلبه (١) .

نتائج عمل الشعب الماسونية

ما كادت هذه الشعب تقضى زمنا قصيرا فى اداء عملهــا حتى اهتزت الاندية والدواوين بتأثيرها واتجهت تسوجاتها الى قصر عابدين وكان الخديوى يومئذ توفيق باشا فهاله الأمر ، وكان من قبل قليل المبالاة بالماسونية ؛ حتى انه استنكر أن يكون استاذا أعظم للمحافل الماسونية المصرية الوطنية . وكان قبل ذلك قد تردد فى قبول جمال الدين زائرا له !

(١) راجع عصر اسماعيل للرافعى .

محاجة السيد لتوفيق باشا
فى أمر اعطاء الشعب حق الشورى

ولكنه بعد تلك الحركة التى اهتزت لها أركان المدينة ، أسرع فى استزارة جمال الدين وبعد أن تردد أياما فى هذه الزيارة ! ذهب اليه وبعد تلطف وتجمل من الخديوى قال لجمال الدين ما معناه :

انى أحب كل خير للمصريين ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ! ولكن مع الأسف ان أكثر الشعب خامل جاهل ، لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة !

فقال جمال الدين مجاوبا :

ليسمح لى سمو أمير البلاد آن أقول بحرية ، واخلاص ، ان الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به الى الشعب المصرى وأفراده ، ينظرون به لسموكم ، وان قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم فى اشراك الأمة فى حكم البلاد على طريق الشورى ، فتأمرون باجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين ، وتنفذ باسمكم وبارادتكم ، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم ، هذا أهم ماجرى فى هذه المقابلة ولكن توفيق باشا كان غير راض ، وأسر فى نفسه أن يبطش بجمال الدين (١) .

وخرج جمال الدين من مجلس الخديوى ومضى الى تنفيذ خطته فى المحفل الماسونى وأخذ يخطب خطبا تستفز الخامل ، وتوقظ الغافل ، وتصير الجبان شجاعا والرعديد أسدا ضاريا . ثم أشار على تلامذته ومريديه بنشر الفصول الناطقة بالحقوق المهضومة لأهل البلاد المصرية ، وكان فى مقدمة من كتب فى ذلك الكاتب الكبير أديب اسحاق كما علمت .

---

(١) ص ٤٦ من خاطرات جمال الدين .

وعلى أثر ذلك اشتدت الحركة الوطنية وأخذت الحكومة تحتاط لتلك الحركة ، ثم أخذت الأفكار تتنبه من أثر أقوال السيد جمال الدين وخطبه والفصول التى يبثها هو ومريدوه وتجمع كلها على نفرة جمـال الدين من سياسة بريطانيا وانتقاده اياها ، وقد ترجمت أقواله وكتاباته وأرسلت الى جرائد انجلترا فاهتموا بها حتى تولى مستر غلاستون نفسه أمر الجدال فى موضـوعها كما بينا لك ولما بلغ محفل السـيد جمال الدين الى هـذه الدرجة من الاهمية والتأثير داخل الخوف مستر فيانى قنصل انجلترا الجنرال فعمل على بث الرقباء الى المحفل فكانوا يوافونه بما أخاف به الحكومة ، وأرهب الخديوى ، وكان الخديوى فى نفسه أشياء تحذره من وجود السيد جمال الدين اذ كان يعتقد انه سيجعلها (جمهورية) كما ستعلم بعد فأصدر أمرا بنفيه .

السيد جمال الدين
والثورة العرابية

مما لا مراء فيه ، أن حركة الاصلاح التى دبت فى جميع نواحى الحياة العلمية والسياسية والاجتماعية فى مصر ، انما كانت من أثر السيد جمال الدين وان تعاليمه قد نفذت الى عروق جميع أفرادها فأثمرت ثمرها ، وآتت أكلها ، وبدا فى كل جهة أثرها ، فاستيقظت النفوس وانبعثت الهمم ، لتبلغ مآربها التى تؤدى الى استقلال الأمة واسعادها وفى الآثار البالغة فى ذلك ، تلك الوثبة الوطنية التى استطار شررها فى البلاد سنة ١٨٨٢ والتى أطلق عليها اسم (الثورة العرابية) .

وقد أجمع كل المؤرخين أن الثورة العرابية كانت أثرا من آثار السيد جمال الدين الأفغانى .

قال الأستاذ برنار ميشيل فى ترجمتـه للأستاذ محمد عبده — عن السيد جمـال الدين الأفغانى : أيان ذهب كان يترك وراءه ثـورة تغلى مراجلها ــ ولسنا نعدو الحق ، أو نكون مبالغين، اذا قرنا أن جميع الحركات الوطنية الحرة ، وحركات الانقضاض على المشاريع الأوروبية التى نشاهدها فى الشرق ترد أصولها مباشرة الى دعوته .

وقال الكاتب الكبير تسارلز آدمى فى كتابه (الاسلام والتجديد) .

لم ينشأ الدافع الأول الى حركة الاصلاح فى مصر نفسها بل كان صدى تعاليم السيد جمال الدين الأفغانى وأثرا من آثاره — وكان كذلك العـامل الجوهرى الأول فى احياء حركة التجديد فى مصر .

وكانت عناصر التحرير التى نشر لواءها جمال الدين فى مصر وقوى سلطانها فى البلاد ، تتوسم انفاذ اصلاحات عظيمة على يدى توفيق ، ويظهر أنه قبل ارتقائه الى العرش كان قد عاهد جمال الدين وخاصنه على أنه اذا آل اليه الأمر أبدهم فى جهودهم الاصلاحيه ، ولكنه لم يكد يرتقى العرش حتى أصدر أمره فى سنة ١٨٧٩ بنفى جمال الدين من مصر الى حيدر أباد الدكن .

قد انتهت الى الثورة العرابية .. وعندما كانت الثورة قائمة فى مصر على قدم وساق ــ دعته حكومة الهند من حيــدر أباد وألزمته بالاقــامة فى كلكتا وأقامت عليه الرقباء حتى اذا خفتت الحركة الوطنيــة المصرية ، أباحت له حكومة الهند مغادرة البلاد .

وقال المستشرق الألمــانى الكبير كارل بركلمــان فى تاريخ الشعوب الاسلامية عن أثر السيد فى مصر (١) :

انتقل السيد جمال الدين الى مصر فاستقبل استقبالا حارا ، وهنا نشط فى حرية — ومن غير أن تكون له صفة رسمية حتى الثورة العرابية — وبعث فى نفوس الشبان المصريين الأمل فى التحرر من السيادة الأوربية ، اذا ما اقتبسوا ثقافة الغرب المــادية ومناهجه العلمية ، ابتغــاء الدفاع عن الاسلام بوصفه دينا أكثر امعانا فى مضمار الرقى .

وقال مستر بلانت بعد وصف مصر عند عودة السيد جمال الدين اليها فى سنة ١٨٧١ . من أنها كانت فى عهد مظلم وان عهد اسماعيل قدلوث جميع الطبقات وأطفأ جذوة الشجاعة والاستقلال فى صدور العلماء :

ما لبثت النار والغيرة اللتان يتدفق بهما حديث السيد جمــال الدين الأفغانى ان جمعتا حوله طائفة من الشبان المريدين كما حدث فى الاستانة ، وأهم هؤلاء المريدين الشيخ محمد عبده الذى قدر له أن يلعب فيما بعد دورا هاما فى الشئون العامة .

والشيخ ابراهيم العجمى (٢) الصحفى المعروف ، والى هذين استطاع الشيخ أن يفضى بكنوز عمله بلا تحفظ وأن يغرس فيهما روح النقد التى طبع عليها ويبعث فيهما كثيرا من جرأته — والحق أن الشجاعة كانت ضرورية لــكل رجل يتكلم فى مصر بالصراحة .. ولم يكن اســماعيل يسمح بأقل معارضة وكان حكمه مطلقا حتى فقدت الألفاظ المستقلة فى أفواه الرجال وكانت السلطات الدينية العليا ، والموظفون الكبار قد طال ســكوتهم على الظلم وآثروا الموافقة ما داموا يحصلون على أنصبتهم من الأسلاب . وعلى

(١) ص ١٠٢ و١٠٣ ج٢ .

(٢) لعله يقصد ابراهيم اللقانى فهو الذى ينطبق عليه هذا الوصف وكانت له جريدة اسمها (مرآة الشرق) وكانت من الصحف التى كان السيد جمال الدين يكتب فيها .

هذه الحال السيئة ، ان عقلية أو أدبية ، أشرقت تعاليم جمال الدين الجريئة كما يشرق الضوء الغريب وضمنت له شجاعته اصغاء الناس بغير تدخل الحكومة .

وقد أتيح لجمال الدين أن يصل محاضراته خلال السنوات التى بقيت من حكم اسماعيل ، ولم يلق القبض عليه الا فى عهد توفيق — وبعد انشاء المراقبة الانجليزية الفرنساوية — وقد نفى بلا محاكمة ، ولكن بعد أن أدى رسالته ، واعتنق كل ذكى نبيه فى الأزهر قواعد الاصلاح الحر .

ضعف توفيق من أمه ونشأته

ولما وصل مستر بلانت فى كلامه عن غدر توفيق بالسيد جمال الدين بعد أن عاهده على تنفيذ الاصلاح الذى يطلبه حتى قال له مرة (أنت موضع أملى فى مصر) قال : وقد كان توفيق ضعيفا ، ولدنه لاسماعيل احدى سراريه فلم يعامله اسماعيل المعاملة الخليقة بولى العهد ، كما أن والدته كانت تتركه فى خوف مستمر من صولة والده ، فلم تربطه بهذا الوالد رابطة الاخلاص والتقرب ، وكانت نشأته بين سيدات الحرم أكثر مما هى بين الرجال . فنشأ ضعيفا لا يسعه الا الاذعان لأية ارادة أقوى من ارادته . ولكنه يسعى بعد ذلك لتنفيذ ما يريد بالطرق الخفية ، ومن ثم كان شديد الغيرة محبا للانتقام وقد ذكر عنه : انه لم يخلص لشىء قط ، وانه لم يثق به أحد الا غدر به (١) .

غدر توفيق بالسيد جمال الدين وأمره بنفيه من البلاد

كان السيد جمال الدين — عندما رأى استبداد اسماعيل باشا فى الحكم ، واسرافه فى الدين مما مكن الدول الاستعمارية من التحكم فى البلاد ومرافقها — قد توسم الخير فى ولى عهده توفيق باشا وبخاصة عندما وجده ينتقد سياسة أبيه اسماعيل ، وتم وثوقه به بعد أن تعاهدا معا على اقامة حكم الشورى وان تحكم البلاد حكما عادلا . وكان هذا التعاهد فى اجتماعهما بالمحفل الماسونى .

(١) ص ٩٤ — ٩٦ .

ولكن توفيق باشا لم يكد يتولى الحكم حتى خاس بعهده مع السيد ، ولم يكتف بذلك بل أضمر له الغدر الذى كان من طبيعته ، وبخاصة عندما أدرك أن حكم الشورى يسلبه الحكم الاستبدادى الذى ورثه عن أبيه وأجداده ، واستعرت نار الغدر عنده بما صبه الواشون فى أذنه وفى أولهم قنصل انجلترا العام ، من أن السيد جمال الدين يعمل على استبدال الحكم الجمهورى بالحكم القائم ، وان من مصلحته أن يخرجه من البلاد فلم يلبث أن أصدر أمره بنفيه وكان ذلك بقرار من مجلس النظار منعقدا برياسة الخديوى — وكان نفيه غاية فى القسوة والغدر اذ قبض عليه ليلة الأحد سادس رمضان سنة ١٢٩٦ هـ ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ وهو ذاهب الى بيته هو وخادمه الأمين « أبو تراب » وحجز فى الضبطية ولم يسكن حتى من أخذ ثيابه ، وحمل فى الصباح فى عربة مقفلة الى محطة السكة الحديدية ومنها نقل تحت المراقبة الشديدة الى السويس وأنزل منها الى باخرة (١) أقلته الى الهند وسارت به الى بمباى ، ولم تتورع الحكومة عن نشر بلاغ رسمى من ادارة المطبوعات بتاريخ ٨ رمضان سنة ١٢٩٦ هـ ، ٢٦أغسطس سنة١٨٧٩م، ذكرت فيه نفى السيد بعبارة جارحة ملؤها الكذب والافتراء بما لا يجدر بحكومة تشعر بشىء من الكرامة والحياء أن تسف اليه ؛ فهى قد نسبت اليه السعى فى الأرض بالفساد ، ويعلم الله أنه لم يكن يسعى الا الى يقظة الأمة وتحريرها من ربقة الذل والعبودية (٢) .

---

(١) كان نقله الى الباخرة فى صبيحة الثلاثاء ٨ رمضان سنة ١٢٩٦ — ٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٩ . وقد أقلعت به الباخرة الى بوشهر فى الهند ومنها الى حيدر اباد وفى ركى لقى الصدر الأعظم مختار الدولة فلقاه بحفاوة بالغة .

(٢) هذه هى صورة الامر القاضى باخراج السيد جمال الدين من مصر نقلا عن جريدة الاهرام . قالت هذه الجريدة بعددها الصادر فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٠ ما نصه :

ورد الينا الاخطار الرسمى الآتى من ادارة المطبوعات بنشره بأمرها وهو بحرفه :

قد استقرت الحكومة بأن هناك جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا رئيسها شخص يدعى جمال الدين الافغانى مطرود من بلاده .. ثم من الاستانة العلية لما ارتكبه من أمثال هذه المفسدة فى ديارنا المصرية .. فالتزمت هذه الحكومة الحازمة أن تتخذ الطرق اللازمة فى قطع عرق الفساد فتعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية ، ووجهته من الطريق السويسى الى الاقطار الحجازية لازالة هذا الفساد من هذه البلاد عبرة للمعتدين ولئن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين .

وكان شيوخ الدين فى الاستانة يصفونه بأنه (سر سرى) يعنى متشرد تائه فى البلاد .

المؤلف : فى هذا البلاغ الذى ملىء بالافتراء والكذب تبدو يد رجال الدين الذين كانوا يرمونه بالكفر والزندقة ، ومنه تفوح رائحة الجمود والغباء والرجعية .

وذكرت أنه « رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » وحذرت الناس من الاتصال بهذه الجمعية .

ومن المؤلم حقا أن يتقرر النفى ويصدر مثل هذا البلاغ من حكومة يرأسها الخديوى توفيق باشا وهو على ما نعلم من سابق تقديره للسيد ، ومن وزرائها محمود باشا سامى البارودى ناظر الأوقاف وقتئذ ، وقد كان من أصدق مريديه وأنصاره !

ومما يوجب الدهش حقا أن نرى محمود سامى البارودى يشترك فى الأمر الذى صدر بنفى السيد جمال الدين الأفغانى . وكان من أخلص أنصار السيد ، ومن الذين عاهدوه على العمل معه للوصول الى أغراضه التى كان يجاهد فى سبيلها فهو بذلك قد نقض عهده مع أستاذه وقد ذكر ذلك السيد جمال الدين فى أسى للأمير شكيب أرسلان فيما ستقرأه فيما بعد — وكيف يرضى ضميره بذلك ؟!

واذا كان البارودى — وهو هو — يفعل مثل هذه الفعلة ! فترى أين أين يوجد الوفاء ورعاية الذمام اذن ؟؟!!

مصر بعد نفى السيد جمال الدين

واذا كان البارودى — وهو من هو — يفعل مثل هذه الفعلة ! فترى وما بثه فى العقول والأفكار — كل ذلك لم يستطع أحد أن ينفيه معه ! اذ ما تزال حتى الى الآن وبعد الآن تعمل عملها ، وتؤتى ثمرها وظلت النفوس ثائرة تطلب الاصلاح من جميع نواحيه حتى بلغت البلاد بفضل هذه التعاليم الى ما أراده لها السيد جمال الدين من الاستقلال عن النفوذ الأجنبى وأصبح حكمها بيدها .

وان مما لا ريب فيه أن السيد جمال الدين الأفغانى بشهادة جميع المؤرخين هو أبو كل الثورات فى مصر وبخاصة الثورية العرابية التى كانت ولا ريب من اثارته ، ولا يمكن لأحد أن يستريب فى ذلك .

عمل جمال الدين بأوربة

اذا كان الطغيان الذى تألف من الاستعماريين الظالمين ، والحكام المستبدين الغاشمين ، ورجال الدين الجامدين ، قد تألب كله على السيد جمال الدين حتى تمكن من نفيه من مصر الى الهند فى سنة ١٨٧٩ فان روحه التى بعثت نهضة العلوم والآداب ورفعت راية الحرية على ربوع مصر — قد ظلت بين هذه الربوع لا تفارق أهلها ، ولا ينحسر عنه مدها .

ان تعاليم السيد جمال الدين ، كتعاليم الرسل لا تزول بنفى أصحابها ولا بموتهم ، وانما تبقى بعدهم خالدة على وجه الدهر تهدى الناس بنورها . ويفيئون دائما الى ظلها .

وتعاليم جمال الدين قد غرسها فى بيئة استضاءت بأنوارها وارتوت بحكمتها ، وتحررت عقولها من قيود الجمود والخرافات والأوهام .

وها نحن اليوم — وقد مضى على نفى السيد جمال الدين من مصر — حوالى ثمانين عاما ، لا نزال نجنى ثمار تعاليمه وستظل هذه التعاليم باقية نبراسا هاديا للشرق كله ما تعاقب الملوان ، وما طلع القمران .

لبث السيد جمال الدين منفيا ببلاد الهند الى أن أخفقت الثورة العرابية واحتل الانجليز مصر ، ومن ثم سمحت الدولة الانجليزية له ، بأن يغادر البلاد الهندية الى أى بلد شاء غير البلاد الشرقية !!

فقصد الى أوروبا ، وأول بلد وردها ، وحل فيها ، مدينة لندن (١) ، وبعد أن أقام بها أياما قليلة انتقل الى باريس ، ومن هناك دعا الأستاذ الامام محمد عبده وكان هو الآخر منفيـا بسورية ، بسبب الحوادث العرابية ، فوافاه فى باريس وأصـدرا معا جريدة العروة الوثقى التى سـميت باسم الجمعية التى أنشأتها (٢) .

قال الأستاذ الامام محمد عبده :

لما كلفت هذه الجمعية السيد جمـال الدين أن ينشىء جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة سألنى أن أقوم على تحريرها فأجبت ونشر من الجريدة ثمانية عشر عددا وقد أخذت من قلوب الشرقيين عموما ، والمسلمين خصوصا ما لم يأخذه قبلها وعظ واعظ ، ولا تنبيه منبه ، وذلك لخلوص النيـة فى تحريرها ، وصحة المقصد فى تحبيرها ، ثم قامت الموانع دون الاستمرار فى اصدارها ، حيث قفلت أبواب الهند عنها ، واشتدت الحكومة الانجليزية فى اعنات من تصل اليهم ، ثم بقى بعد ذلك مقيما بأوروبة أشـهرا فى باريس وأخرى فى لندرة الى أوائل شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠٣ (الموافق أول فبراير سنة ١٨٨٦) وفيه رجع الى البلاد الايرانية .

---

(١) ذهب السيد الى لندن ثلاث مرات كان يقصد فى احداها باريس لاصدار العروة الوثقى فألم بلندن المامة خفيفة لم تتجاوز خمسة عشر يوما وقد أرادت انجلترا أن يكون فى الوفد الذى عزمت على ايفاده الى المهدى بقصد مذاكرته فى أمر الصلح وكانت ثورته السغل الشاغل لانجلترا حينئذ ولم يتم ذلك لموت المهدى والمرة الثانية عندما جمع مستر بلانت بينه وبين الانجليز للمفاوضة فى امر السودان ، كما تبين لك . والمرة الثالثة عندما حمل حملته الشعواء على شاه ايران بعدما رأى منه سوء المعاملة وهو مريض فى شاه عبد العظيم وابعاده الى الحدود التركية كما سنفصله لك بعد .

(١) كانت هذه الجمعية سرية ، وكانت منبثة فى جميع الأقطار الاسلامية ، وكان أعضاؤها مختارين من المسلمين المثقفين المتحمسين لدينهم ، وكان فيهم الأمير عبد القادر الجزائرى وانجاله ومن اختار من رجاله ــ وكان لها فروع فى جميع البلدان ، يجتمع كل فرع منها للبحث فى شئون المسلمين ، وفى آخر الاجتماع يتبرع أعضاؤه بما يتيسر له من المـال ، ويضعه خفية فى صندوق حفر له ثقب حتى لا يعلم أحد ما يدفعه الآخر .

وكان لها رسل يذهبون فى خفاء الى الأقطار المختلفة مزودين بالتعاليم التى لا يمكن للجريدة ان تنشرها ، فرسول الى موسكو وآخر الى الحجاز ، وكان الأستاذ الامام ممن ذهبوا الى تونس ومصر على حين انه كان يومئذ محكوما عليه بالنفى من مصر وكان لهذه الجمعية يمين يقسم بها كل من يدخل فيها ويرجع اليه فى الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده

العروة الوثقى (١)
لا انفصام لها
جريدة سياسية أدبية تصدر يوم الخميس

مدير السياسة	المحرر الأول
جمال الدين الحسينى الأفغانى	الشيخ محمد عبده
ترسل الجريدة الى جميع الجهات الشرقية	من شاء أن يبعث الينا بتحارير أو رسائل فى أى موضوع كان رغبة نشره فى الجريدة ، أو التنبيه على أمر مهم فليرسلها الى ادارة الجريدة بهذا العنوان (٢) :
قد عينت أجرة البريد خمسة فرنكات فى السنة لمن تسمح بها نفسه	

6, Rue Mcriel a Paris

وهذه صورة ما كتب فى فاتحة العدد الأول :

العدد الأول من

العروة الوثقى

لا انفصام لها

يوم الخميس فى ١٥ من جمادى الأولى سنة ١٣٠١

ذكر الأمير شكيب أرسلان أنه سمع الأستاذ الامام محمد عبده يقول :

ان الأفكار فى العروة الوثقى كلها للسيد جمال الدين ، ليس لى منها فكرة واحدة والعبارة كلها لى ليس للسيد منها كلمة واحدة .

أنشئت هذه الجريدة — كما قلنا — فى باريس ، وصدر العدد الأول

---

(١) هذه هى صورة ما كان مكتوبا على راس كل عدد من جريدة العروة الوثقى .

(٢) هذا هو عنوان الجريدة كما جاء مبينا بكل عدد كما قرر الأستاذ عبد القادر المغربى فى كتابه (جمال الدين الافغانى) ص ١٥ وقال الدكتور احمد أمين فى كتابه زعماء الاصلاح ص ٣٠٥ ان ادارة جريدة العروة الوثقى كانت فى غرفة صغيرة فى سطح منزل فى باريس ومن هذه الغرفة كانت تنبعث الآراء والافكار التى كانت تشتعل بالنار وكان الاستعمار وبخاصه الانجليز والفرنسيين يخشونها أشد خشية وكانت تقض مضاجعهم وتقلق راحتهم وتفعل فيهم اكثر مما تفعل الجيوش الجرارة والاساطيل الماخرة ولا غرو فان الذين ينشرون هذه الافكار هما جمال الدين ومحمد عبده .

• منها فى ١٥ من جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م وكان مدير سياستها السيد جمال الدين ، ورئيس تحريرها الأستاذ الامام محمد عبده ـ رحمهما الله وصدر منها ثمانية عشر عددا فى ثمانية أشهر ـ وكان آخر عدد صدر منها فى ٢٦ من ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤ م . ثم توقفت مرغمة لاضطهاد الانجليز لها كما سنعرف ذلك فيما بعد .

الجريدة ومنهجها

بينت الجريدة منهجها فقالت :

ستأتى فى خدمة الشرقيين على ما فى الامكان من بيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات ، والاحتراس من غوائل ما هو آت .

ويستتبع ذلك البحث فى أصول الأسباب ، ومناشىء العلل التى قصرت بهم الى جانب التفريط ، والبواعث التى دفعت الى مهامه خيرة عميت فيها السبل ، واشتبهت بها المضارب وتاه فيها الخريت (١) وضل المرشد ، حتى لا يدرى السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة والمزعجات المدهشة ، والمدهشات القاتلة .

— وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين ، ولبست عليهم مسالك الرشد ، وتزيح الوساوس التى أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم ، وشفاء أدوائهم وظنوا أن زمان التدارك قد فات ، وأن العلة بلغت حدها .

— وتحاول اشراب الأفهام أن لا حاجة فى الوصول الى نقطة الخلاص المرعوبة : الى قطع دائرة عظيمة ، تصورها يوجب فتور الهمم ، وانحطاط العزائم ، وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة انما عرض من الأدبار عن المطلوب وهو تحت الجناح ، يكفى فى الوصول اليه عطفة نظر ، وقطع بعض خطوات قصيرة .

(١) الخريت بكسر المعجمة وتشديد الراء الدليل الحاذق بخروب الارض وهو معرفة طرقها ومصائقها .

وان الظهور فى مظهر القوة لدفع الكوارث انما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهى ما تمسكت به أعز دولة أوروبية وأمنعها ، ولا ضرورة فى ايجاد المنعة الى اجتماع الوسائط ، وسلوك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى (١) .

— وتنبه على أن التكافؤ فى القوى الذاتية والمكتسبة ، هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية ، فان فقد التكافؤ لم تكن الرابطة الا وسيلة القوى لابتلاع الضعيف ، وتجهل اهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة المدبج بأشكال المجاملة شفافا ينم عما وراءه — وتنقب عن المسالك الدقيقة التى يسرى بها الطامعون فى دياجير الغفلات .

— وتهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموما ، والمسلمون خصوصا ، من التهم الباطلة التى يوجهها اليهم من لا خبرة له بحالهم ، ولا وقوف على حقائق أمورهم ، وابطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون الى المدنية ما داموا على أصولهم التى فاز بها آباؤهم الأولون .

— ولا تهن فى تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون فى شئونهم ، مع اختيار الصادق ، وانتقاء الثابت .

— وتراعى فى جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم ، وتسكين الألفة فى أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها ، والسياسات القويمة التى لا تميل الى الحيف والاجحاف بحقوق الشرقيين .

— ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين اليها : لا تظهر اذا أدلجوا ، ولا تنجد اذا أغوروا ، وتذهب مذاهب الرشد ؛ وتصيب بحول الله مواقعه عند من سبق فى أزلى علم الله هدايته ؛ والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

وترسل الى الذين تعرف أسماءهم — مجانا بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير ، والغنى والفقير ، ومن لم يصل اليه اسمه فما عليه الا أن

---

(١) يريد دولة روسيا التى جمعت كلمة شعوبها وبعثت بحملتها مع حربة مسلحة تحت آلاف العمال واحدة بأحدث نظمه .

يكتب الى ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ، ومحل اقامته على النهج الذى يريده والله الموفق .

وهاك مختصرا لفاتحة العدد الأول

فى جريدة العروة الوثقى

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا عليك توكلنا ، واليك أنبنا واليك المصير ، هذا ما تمده العناية الالهية من قول الحق ، متعلقا بأحوال الشرق ، وعلى الله المتكل فى نجاح العمل .

— خفيت مذاهب الطامعين أزمانا ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت ، أوغل الأقوياء من الأمم فى سيرهم بالضعفاء ، حتى تجاوزوا بيداء الفكر ، وسحروا ألبابهم حتى أذهلوهم عن أنفسهم ، وخرجوا بهم عن محيط النظام ، وبلغوا بهم من الضيم حدا لا تحتمله النفوس البشرية .

— ذهب أقوام الى ما يسوله الوهم ، ويغرى به شيطان الخيال ، فظنوا أن القوة الآلية وان قل عمالها يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وان اتفقت آحادها .

والذى يحكم به العقل الصريح ، ويشهد به سير الاجتماع الانسانى من يوم علم تاريخه الى اليوم ، أن الأمم الكبيرة اذا عراها ضعف الافتراق فى الكلمة ، أو غفلة عن عاقبة لا تحمد ، أو ركون الى راحة لا تدوم ، أو افتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليها قوة أجنبية أزعجتها ، أو نبهتها بعض التنبيه ، فاذا توالت عليها وخزات الحوادث وأقلقتها آلامها فزعت الى استبقاء الموجود ، ورد المفقود ، ولم تجد بدا من طلب النجاة من أى سبيل ، وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية ، وهى ما تكون بالتئام أفرادها ، والتحام آحادها ، وان الالهام الالهى والاحساس الفطرى ، والتعليم الشرعى ، يرشدها الى أن لا حاجة لها الى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شىء عليها .

ان النفوس الانسانية ، وان بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت اذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة ، لا تحتمل الضيم الا الى حد يدخل تحت الطاقة ، ويسعه الامكان ، فاذا تجاوز الاستطاعة ، كرت النفوس الى قواها ، واستأسد ذئبها ، وتنمر ثعلبها ، والتمست خلاصها ، ولن تعدم عند الطلب رشادا .

ربما تخطىء مرة فتكون عليها الدائرة ، لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمهـا تدارك ما فرط والاحتراس من الوقوع فى مثـله ، فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة .

— ان مجاوزة الحد فى تعسيم الاعتـداء تنسى الأمم ما بينهـا من الاختلاف فى الجنسية والمشرب ، فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر ألزم من التحزب للجنس والمذهب ، وفى هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية الى الاتفاق أشد من دعوتها اليه للاشتراك فى طلب المنفعة .

— أبعد هذا يأخذنا العجب اذ أحسسنا بحركة فكرية فى أغلب أنحاء الشرق فى هذه الأيام . كل يطلب خلاصا ، ويبتغى نجاة ، وينتحل لذلك من الوسائل والأسباب ما يصل اليه فكره .. وأن العقلاء فى كثير من أصقاعه يتفكرون فى جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لهـا القيـام بحقوق الكل (١) .

— بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته ، ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته — وخصوصـا المسلمين منهم — ولم تبق طبقة من الطبقات الا وقد مسها الضر من افراط الطامعين فى أطماعهم ...

— لقد ركبوا الشطط وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة ، وتشتت الأهواء ، وهو أنفذ عواملهم وأقتلها ، وما علموا أنه وان كان ذريع الفتك الا أنه سريع العطب ، وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب الى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين .

---

(١) هذا تنبيه بالغ لوجوب تأليف جامعة شرقيه لمقاومه الاستعمار الغربى ولم يفكر فيه أحد قبله ــ وهذا التنبيه كأنه كتب فى هذه الأيام التى تدعو فيه الجمهوريه العربيه المتحدة الى تأليف هذه الجامعه ــ رحم الله السيد وأجزل له الثواب .

ـــ ان الحالة السيئة التى أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموما ، ان مصر تعتبر عندهم من الأراضى المقدسة ، ولها فى قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظرا لموضعها من الممالك الاسلامية ، ولأنهـا باب الحرمين الشريفين ، فان كان هذا الباب أمينا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، والا اضطربت أفكارهم — وكانوا فى ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الاسلامية .

ـــ ان الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها ، المتصـلة بجامعة الاعتقـاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء وحولت أنظـارهم لمـا سيكون من عاقبة أمرهم . مع ملاحظة العلل التى أدت بهم الى ما هم فيه ، فتقاربوا فى النظر وتواصلوا فى طلب الحق ، وعمدوا الى معالجة الحق ، وعلل الضعف راجين أن يسترجعوا ما فقدوا من القوة — ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف — وأن فى الحاضر منها لنهزة تغتنم ، واليها بسطوا أكفهم ، ولا يخالونها تفوتهم ، ولئن فاتت ، فكم فى الغيب من مثلها والى الله عاقبة الأمور .

ـــ تألفت عصابات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل فى عدة أقطار خصوصا البلاد الهندية والمصرية ، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ، ويوحدون كلمة الحق فى كل صقع ، لا ينون فى السعى ، ولا يقصرون فى الجهد ، ولو أفضى بهم ذلك الى أقصى ما يشفق منه حى على حياته

ـــ ولمـا كانت بدايتهم تستدعى مساعدة من يضارعهم فى مثل حالهم ، رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم ، ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها ، من أهالى أوروبا .

ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر ، وأقرب الى الظفر يستدعى أن يكون للداعى فى كل قلب سليم نفثة حق ، ودعوة صـدق ، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم بين من خفى عنه شأنهم من اخوانهم ، واختاروا أن يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم ، وهو اللسان العربى ، وأن

تكون فى مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم ، وتوصيل أصواتهم الى الأقطار القاصية ، تنبيها للغافل ، وتذكيرا للذاهل .

فرغبوا الى السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى ، أن ينشىء تلك الجريدة بحيث تتبع مشربهم ، وتذهب مذهبهم ، فلبى رغبتهم ، بل أدى حقا واجبا عليه لدينه ووطنه وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها فكان ما حمل الأول على الاجابة ، حمل الثانى على الامتثال ، وعلى الله الاتكال ، فى جميع الأحوال .

رعب الانجليز من العروة الوثقى ومقاومتهم إياها

لما استقرت قدم السيد جمال الدين فى مصر سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١م) وأنشأ يربى التلاميذ والمريدين لاعدادهم للعمل السياسى الذى هو غرضه من الحياة ، كان من أول ما نشره فى جريدة مصر التى أنشأها بعض مريدين من السوريين مقالات عنوانها (البيان فى الانكليز والأفغان) وصف فيها قومه الأفغانيين بقوله :

« هذه الأمة المعروفة بعزة النفس ، وشدة البأس ، التى لم ترض الدخول تحت حماية الحضجر (١) المبتلى بجوع البقر والاستسقاء الذى لم يشبعه ابتلاع مائتى مليون من النفوس (٢) ولم تروه مياه الكنج والتيمس بل فغر فاه ليلتهم بقية العالم ، ويجرع مياه النيل ونهر جيحون » ا.هـ .

وكان من تأثير هذه المقالات أن ترجمتها بعض الجرائد الانجليزية وأظهرت الاعجاب به وبها ، وردت عليها .. فكان أول كاتب شرقى اهتمت الجرائد الانجليزية بكلامه .

ولما عزم على نشر جريدة العروة الوثقى فى باريس — كان قد اشتهر أمره عند ساسة الانجليز بما كان له من الأثر الفعال فى السياسة المصرية فى

(١) الحضجر بكسر ففتح الواسع البطن وهو من أسماء الضبع .
(٢) يعنى أهل الهند وهذا كان احصاؤهم عند كتابة المقالة — أما الآن فهم أكثر من ٣٠٠ مليون .

آخر مدة اسماعيل حتى جعلت قنصلهم فى مصر يغرى توفيق باشا باخراجه من مصر بعد أن كان من مريديه — كما تبين لك من قبل — ولكن كيدها له كذلك أن أوعزت الى حكومة الهند أن تحجر عليه فى كلكتة مدة الثورة العرابية .

لهذا كله حسب الانجليز لجريدته كل حساب ، وجهر بعض ساستهم بتحريض حكومتهم عليها حتى قبل صدورها — كما بينتـه جريدة العروة الوثقى نفسـها فى العدد الخامس الذى صدر فى ٤ جسـادى الآخرة سنة ١٣٠١ هـ (١٠ أبريل سنة ١٨٨٤ م) حيث قالت :

العروة الوثقى والجرائد الانجليزية

قالت الجريدة فى عددها الخامس :

« لو نادينا الغافلين أن انتبهوا ، والنائمين أن استيقظوا ، واللاهين بحظوظهم أو أمانيهم أن التفتوا ، ولو أنذرنا أهل مصر بأن الانكليز لو ثبتت أقدامهم فى ديارهم لحاسبوا الناس على هواجس أنفسهم ، وخطرات قلوبهم ، بل على استعداد عقولهم لمـا عساه يخطر ببالهم ، لقال الناس اننا نبالغ فى الانذار ، ونغرق فى التحذير . ولو بينـا لهم أن الانجليز يؤاخذون الأبناء بذنوب الآباء ، والأحفـاد بجرائم الأجداد ، ويطالبون الذرارى بدفائن أسلافهم — وان لم يكن للخلف علم بما ترك السلف — لعدوا هذا البيان منا ١٣٠١ هـ (١٠ أبريل سنة ١٨٨٤ م) .

ولو روينا لهم أن فى قلوب الانكليز حقـدا وضغينة على كل ايرانى سواء كان من الأفراد أو الوجوه ، ويسيئون معاملتهم حيث وجدوا من بلاد الهند ، ويمقتونهم مقتا شديدا .

ولو قصصنا عليهم ما يقـابل به الانكليز رعاياهم فى الهنـد عموما والمسلمين خصوصا ، وأنه يكتفى لنفى عالم من علماء المسلمين الى جزائر (اندومان) أن يعترف بأنه معتقد ببعض آيات من القرآن ، لأنكروا علينا ما نقول ، لبعدهم عن تلك الأقطار ، وعدم وقوفهم على أحوالها ، ولسنا الآن بصدد اقناع المصريين بما نعلم من أحوال الانكليز ، ولا نريد اقامة الدليل

على ما نعرفه من أحكام سلطتهم فلا نذكر ولا نبين ولا نحكى ولا نقص ، ولكن نعرض عليهم نموذجا من المعـاملة يكون للمتبصرين مرآة تحكى ما

يغيب عنهم من لوازم السلطة الانكليزية ، عزمنا على انشاء جريدتنا هذه ، فعلم بذلك بعض محررى الجرائد الفرنساوية فكتبوا عنها قبل صـدورها غير مبينين لمشربها ، ولا كاشفين عن حقيقة سيرها ، فلما وقف على الخبر محررو الجرائد الانكليزية المهمـة أخذتهم الحدة ، واحتـدمت فيهم نار الحمية ، وأنذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة فى سياسـة الانكليز ونفوذها فى البلاد الشرقية ، ولجوا فى اغرائها بها ، وألحوا عليها أن تعد كل وسيلة لمنع الجريدة عن الدخول فى البلاد الهندية ، والبلاد المصرية ، بل تطرفوا فنصحوها أن تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها . كل هذا منهم قبل صـدور أول عدد من جريدتنا ، وقبـل أن يقف ولا واحد منهم على مذهبها السياسى — مع أن هذه الجريدة لم تنشأ لاثارة الخواطر ؛ ولا لايقاد الفتن ، وانمـا أنشئت للمدافعـة عن حقوق الشرقيين عموما ، والمسلمين خصوصا ، وتنبيه أفكار بعض الغافلين منهم لما فيه خير لهم ، ولقد صدرت سالكة جادة الاعتدال ، ذاهبة مذهب الاستقامة والعدل ؛ كما يظهر لكل من اطلع عليها .

فليعتبر المعتبرون بهذا الاجحاف ؛ والاعتداء والقصاص قبل الجناية ومن كان سمندلى [1] الطبع فليهنأ له العيش (فى ظل ذى ثلاث شعب ؛ لا ظليل ولا يغنى من اللهب) .

ولكن فلتعلم الحكومة الانكليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا فى البلاد الشرقية سواء كان بهـذه الجريدة أو بوسيلة أخرى اذا دعا الحال ؛ فان أنصار الحق كثيرون .

---

(١) سمندلى الطبع نسبه الى السمندل (كعرحل) وهو كما قال فى القاموس طائر فى الهند لا يحترق بالنار وهذه استعارة والمراد أن من كان لا يشعر بألم نار الذل والامتهان بل كانت طبيعته النفسية كطبيعة السمندل الجسدية الذى لا يألم من مس النار فيهنأ به العيش فى ظل الاحتمى الذى شبه ظل يحموم جهنم الذى وصفه الله تعالى بقوله للمجرمين « انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب » .

مصادرة العروة الوثقى
بجميع بلاد الشرق

وبعد أن ظهرت جريدة العروة الوثقى ضاق الانجليز بها ذرعا ، فضيقوا الخناق عليها وسدوا جميع النوافذ فى وجهها . واليك ما نشرته فى العدد التاسع الذى صدر فى ٢٥ من رجب سنة ١٣٠٢ هـ (٢٢ مايو ١٨٨٤ م) عن منع الحكومة المصرية لها ، اذ كانت هذه الحكومة أول من حقق رغبة الانجليز ، قالت الجريدة تحت هذا العنوان :

العروة الوثقى

(انعقد مجلس النظار المصرى فى القاهرة ، واهتم بالبحث فى شأن (العروة الوثقى) ثم صدر قراره الى نظارة الداخلية المصرية [1] قاضيا عليها بأن تشتد فى منع هذه الجريدة عن دخول الأقطار المصرية ، وتراقب جولاتها فى تلك الديار ، فصدر أمر الداخلية الى ادارة (عموم البوسطة) يلزمها الدقة فى ذلك — وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر — أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغا من خمسة جنيهات مصرية الى خمسة وعشرين جنيها (وهى غرامة جسيمة ربما دعا اليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الانجليز فى مصر) .

أما نحن فلا نظن أحدا من النظار له رأى اختيارى فى هذا القرار ولا يختلج فى صدورنا أن مصريا من أى مشرب كان ، سواء المسلم أو غير المسلم منهم ، بل ولا شرقيا ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه جانبا من العدل ..

هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين ، والاستنجاد لهم ، ولها سعى

(١) كان ذلك فى عهد وزارة نوبار باشا اليهودي الذى اشتدت وطأته على الصحف ، ولم يكن يغتفر لمن يرفع صوته ضد الاحتلال الذى كان يعبده ويمكن له فى البلاد وللأسف فان اسم هذا الخائن لا يزال مسطورا على لوحات أهم شارع بمدينة القاهرة وكأنه أحد المعلمين أو الذين تركوا اثرا طيبا يجعلهم من الخالدين .

— بل كل السعى — لخيبة آمال أعدائهم ولا ترى من مشربها مدح زيد ، ولا القدح فى عمرو، فانالمقصد أعلىوأرفع من هذا ، وانما سكب مياه النصح على لهب الضغائن ، لتتلاقى قلوب الشرقيين عموما على الصفاء والوداد ، تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ، ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى التى فغرت أفواهها لالتهامهم ، ومن رأيها أن الاشتغال بداخل البيت انما يكون بعد الأمن من طروق الناهب .

هذا منهاج العروة الوثقى ، علمه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها الى الآن ، فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقيا مسلما أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره .

ولا نريد أن نقول للانكليز انهم ظلموا فى هذا الحكم ، فان الجريدة لم يوجد فيها الى الآن ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والأجنبية ، من كشف مساتيرهم ، وبيان الرزايا التى أصيبت بها الديار المصرية من حلولهم ، لأنهم الانكليز الذين اذا أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين فى الهند واقبال الناس عليه بالاعتبار أسرعوا بجلبه الى ديوان الشرطة (الضبطية) فعند وصوله اليها يفتح له الضابط مصحف قرآن ، أو كتاب حديث من الكتب المشهورة ، ثم يشير الى آية من آيات الجهاد ، أو حديث مما يدعو اليه ، ويسأله : هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث ؟ فاذا قال نعم ، قال له فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا !! فاذا أجابه بأننى درويش ملازم العزلة عن الناس ، وليس اعتقادى بهذا الا أنه كتاب دينى ، ضرب له الضابط أجل أربعة أيام أو أقل ، يبين فيها رأيه فى الآية أو الحديث ، فان مضى الأجل ، ولم يحرف العالم دينه ، ولم يبدل عقيدته ، ولم يبادر بارسال تحريفه وتبديله وخروجه عن دينه الى مطبعة من المطابع ليطبع وينشر ، بعثت به الحكومة الى جزيرة (أندومان) نفيا مؤبدا ولو رأيت تلك الجزيرة ، لرأيتها غاصة بأمثال هؤلاء المظلومين !!

فدلو الانكليز التى تحاسب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم ، وما يمكن أن يهجس فى حديث نفوسهم ، لا ريب أنها تعد وجود لفظ الاسلام

فى جريدة كافيا لمنعها عن الدخول الى بلاد لها فيها قدم ثابت ، أو تسعى فى تثبيته ، بل تحسب أن من ألد أعدائها شخصا علق عليه هذا الاسم من أى جنس كان ، فلا غرابة فى صدور مثل هذا الجور منها . غير أننا نعلن لها ، أن همم الرجال لا تقعدها أمثال هذه المظالم ، وليس يعجزنا ادخال هـذه الجريدة فى كل بقعة تحوطها السلطة الانجليزية الظالمة ، ذلك بعزائم أولى العزم الذين قاموا بانشاء العروة الوثقى .

وختمت الجريدة هذه الكلمة البليغة بقولها :

لا يحزنن أسل الحق القائسون بأمر هذه الجريدة على ما صـــدر عن الحكومة المصرية من منع العروة الوثقى عن دخول القطر المصرى ، وليعلسوا أن الحكومة المصرية لا دخل لها فى هذا المنع ، فان حكومة شرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شىء فيهـا سوى الدفاع عن الشرقيين — وانما منشؤه حكومة انجلترا وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها .

العروة الوثقى تعمل للشرقيين عامة لا للمسلمين خاصة

كان قد اشتبه على بعض الناس أمر اللهجة الاسلامية فى العروة الوثقى وظنوا أنها خاصة بالمسلمين ، فأزالت هذه الشبهة بعبارة نشرت فى العـدد الثامن الذى صدر منها فى ١٨ رجب سنة ١٣٠١ هـ (١٥ مايو سنة ١٨٨٤ م) وهذا نصها :

لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها للمسلسين بالذكر أحيانا ومدافعتها عن حقوقهم ، تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم ، ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ، ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة ، فليس هذا من شأننا ولا مما نميل اليه ، ولا يبيحه ديننا ، ولا تسمح به شريعتنا ، ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموما والمسلسين خصوصا ، من تطاول الأجانب عليهم ، والافساد فى بلادهم ، وقد نخص المسلمين بالخطاب ، لأنهم العنصر الغـالب فى الأقطار التى غدر بهـا الأجنبيون ، وأذلوا أهلها أجمعين ، واستأثروا بجميع خيراتها .

لم يرد السيد أن يكون للمسلمين كلهم دولة واحــــدة

وكان قد اشتهر بين بعض الناس أن السيد يريد من وراء جهـاده أن يكون للمسلمين دولة واحدة ، تحت راية واحدة ، ولـكنه فى الحقيقة لم يقصد ذلك ولم يصرح به لا فى العروة الوثقى ولا فى غيرها ، ولا جاء ذكره على لسان أحد من تلاميذه — بل لقد صرح بما ينـافى ذلك ، وذلك فى المقالة التى عنوانها (الوحدة الاسـلامية) التى نشرت فى العدد التاسع من العـروة الوثقى وهاك ما قاله « لا ألتمس بقولى أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدا ، فان هذا ربما يكون عسيرا ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم (القرآن) ووجهة وحدتهم (الدين) وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فان حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه — الا أن هذا بعد كونه أساسا لدينهم تقضى به الضرورة ، وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات ، هذا آن الاتفاق [1] ، هذا آن الاتفاق ، الا أن الزمان يواتيكم بالفرص وهى لكم غنائم فلا تفرطوا » .

هذه هى جريدة العروة الوثقى التى جعلت شعارها :

« ايقاظ الأمم الاسلامية خاصة ، والمدافعة عن حقوق الشرقيين عامة ، ودعوتهم الى مقـاومة الاستعمار الأوربى ، والجهـاد فى سـبيل الحرية والاستقلال لله)

وقد أحدثت أثرا قويا فى الشرق عامة والعالم الاسلامى خاصة — فى الهند وفارس وأفغانستان ومصر والشـام وغيرها — لم ير مثله قط حتى كادت مكانتها تبلغ فى النفوس مكانة الكتب المقدسة .

وكانت هى الصحيفة الوحيدة فى الشرق عامة التى هاجمت المستعمرين بشجاعة وقوة لا مثيل لهما ، وقاومت الاحتلال البريطانى لمصر فى أول عهده مقاومة عنيفـة ، جمعت بين قوة الروح وبلاغة العبـارة مما جعل الانجليز يفزعون منهـا ويخشون بأسـها ، كمـا علمت وبلغ من ذعرها ، أن أمرت الحكومات التى تحت سيطرتها كالهند ومصر أن تعاقب من يحملها أو يقرأها .

---

(١) هذا سبه صارخ يصيح به السيد جمال الدين وكأنه يناديها فى هذا الوقت الذى يجب على كل شرقى ان يقول فيه : آن الاتفاق ، آن الاتفاق .

واذا كانت مقاصد العروة الوثقى هى الدفاع عن الشرق كافة فانها كانت تعنى العناية كلها بالمسألة المصرية ، والمسألة السودانية ، وبحسبك أن تعرف أن الأستاذ الامام محمد عبده قد ذهب من قبلها ليفاوض الانجليز فى قضية احتلالهم لمصر وكان بذلك أول مفاوض مصرى فى هذه القضية .

أول من جهر أن مصر للمصريين

وكذلك فاوض الانجليز السيد جمال الدين فى أمر مصر وكانت أول كلمة صدرت منه لهم قوله : (ان مصر للمصريين ، والسودان جزء متمم لها) . وبذلك يكون السيد جمال الدين هو أول من جهر أن (مصر للمصريين) لا كما يزعم البعض بجهلهم أن أول من قال ذلك هو أحمد لطفى السيد وسيأتيك مزيد بيان لهذا الأمر الذى لا ريب فيه .

مفاوضة الأستاذ الإمام
مع الإنجليز
وهي أول مفاوضة بين مصر وانجلترا

قالت العروة الوثقى [1] :

رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة) الى لندرة اجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لملتنا ، ومن يؤمل فيهم صدق النية ، فى رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الانكليزية ، وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية التى ما مرت عليها قدم ترقى الا سقطت منها فيما يعسر الخلاص منه . وليسبر أغوار المطامع الانكليزية التى لا يدرك منتهاها ، تلك المطامع التى بعدما التهمت ثلث المسكونة ، وطوقت كرة الأرض بالفتح والاستملاك ، لم تزل فى مد لا جزر معه ، ولا يزال رجال حكومة بريطانيا فى قرم شديد لابتلاع ممالك العالم ، وكلما أساغوا قطرا طلبوا اليه آخر ـ وليستطلع خفايا المقاصد من أثناء الأفكار وغضون الأقوال ، وليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين فى التلوين ، ويتبين كيف يتمكنون من ابراز محاسن الأعمال فى صفات ردبئة يستنكرها كل ناظر اليها ، واظهار السيئات فى ألوان بهجة تسر الناظرين – حتى يسكن بعد ذلك وضع ميزان قسط يتميز به الزيف من النضار الخالص ، كيلا يغتر الجاهل ولا يزل العالم .

لاقى (محرر الجريدة) كثيرا من رجال السياسة الانكليزية ، وأنفذ الناس رأيا فيها ، وقد جرت بينه وبينهم محادثات ضوبلة فى الأحوال المصرية ،

---

(١) ص ٤٥٧ .

ومن محادثاته الابتدائية ما نشر فى بعض الجرائد الانكليزية كجريدة « البال مال غازيت » وجريدة « التروث » التى يحـررها النائب الشهير « مستر لابوشير » وجريدة التيمس ، وسيذكر شيء مما جرى بينه وبين بعض الأكابر من رجال الحكومة الانكليزية مما يستفيد منه الشرقيون عموما والمصريون خصوصا .. ونأتى على جملة واحدة من محادثة طويلة كانت بينه وبين اللورد (هرتنكتون) وزير الحربية الانكليزية ليأخذ كل مصرى منها حظه ، ويصيب كل شرقى سهمه ، ويقف جميعهم على مواقع الشرقيين من أنظار الحكومة الانكليزية !!

سأل اللورد هرتنكتون وزير الحربية الانكليزية : ألا يرضى المصريون أن يكونوا فى أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الانكليزية ؟ وألا يرون حكومتنا خيرا لهم من حكومة الأتراك ؟ وفلان باشا وفلان باشا ؟ فأجاب الشيخ (محرر جريدتنا) كلا ان المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون الا قليلا ، وفيهم من محبى أوطانهم مثل ما فى الشعب الانكليزى ، فلا يخطر ببال أحد منهم الميل الى الخضوع لسلطة من يخالفه فى الدين والجنس ، ولا يصح لحضرة اللورد وهو على علم بطبائع الأمم أن يتصور هـذا الميل فى المصريين !

فقال الوزير : هل تنكر أن الجهالة عامة فى أقطار مصر ، وان الكافة لا تفرق بين الحاكم الأجنبى والحاكم الوطنى ؟ وأن ما ذكرته من النفرة من سلطة الأجانب انما يكون فى الأمم المهذبة .

فأخذت الشيخ حدة تليق بمسلم لا يتهاون فى أداء ما فرضه الدين ، وأوجبته حقوق الملة وقال :

أولا : ان النفرة من ولاية الأجنبى ، ونبذ الطبع لسلطته مما أودع فى فطرة البشر وليس بمحتاج للدرس والمطالعة ، وهـو شعور انسانى ظهرت قوته فى أشد الأمم توحشا كالزولوس الذين لم تنسوا ما كابدتموه منهم فى الدفاع عن أوطانهم .

(وثانيا) : ان المسلمين مهما كانوا ، وعلى أى درجة وجدوا لا يصلون من الجهل الى الدرجة التى يتصورها الوزير ، فان الأميين منهم ومن لا يقرأون

ولا يكتبون ، لا يفوتهم العلم بضروريات الدين ومن أجلاها وأظهرها أن لا يدينوا لمخالفيهم فيه ، وأن لهم فى الخطب الجمعية ومواعظ الوعاظ فى مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الابتدائية ، وأن جميع ما يتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافهم ، ويحدث فيهم من الاحساسات الشريفة الانسانية ما لا ينحطون معه عن سائر الأمم ، خصوصا المصريين الذين ينطقون باللسان العربى ويفهمون دقائق ما أودع فى ذلك اللسان وهو لسان دينهم .

(وثالثا) : ان أرض مصر فى زمن محمد على قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ما هو موجود فى بلاد أوربا .

وأخذ كل مصرى نصيبا منهـا على قدره ، ولا تخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون كاتبون — والأخبار العموميـة توصلها اليهم الجرائد العربية ، ومن لم يقرأ يستنبىء الأخبار من القارئين فبهـذا أضافوا الى الشعور الطبيعى، والتقليد الدينى، محبة وطنية منشأها التهذيب العمومى — قوى بها الميلان الأولان ، ولا أظنهم يخالفون فى ذلك سـائر الأمم .

أين الخلماء الأذكياء ، أين الجهلة الأغبياء ، أين الأباة الأعلياء ، أين السفلة الأدنياء ؟ ليرى كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الانكليزية ! كل ذى شكل انسانى ، وصورة بشرية ، يدرك ما وراء هذه الأسئلة ، وما تشف عنه هذه الظنون العجيبة .

هذا اللورد تنكنتون وزير الحربية يظن أن الجهل يبلغ من المسلمين عموما ، والمصريين خصوصا الى حد سلب عنهم كل احسـاس انسانى ! وانهم فى حضيض الجهل لا يميزون فيه بين الغريب والقريب ! ولا بين العدو والحبيب ! هذا دليل على أن الانكليز (الا من أنار الله بصيرته ووفقه لفهم الصواب) يعتقدون أن الأمم الشرقية والأمة المصرية فى درجة الحيوانات السائمة ، والدواب الراعية ، لا تتألم الا من الجوع وفواعل الطبيعة المادية وليس لها من الاحساس الا نوع من الانفعالات البدنية ، ولا تعـرف من شئونها الا ما به تقوم حياتهـا الحيوانية ، فتألف راكبها والعامل عليهـا ومستخدمها فى الأعمال الشاقة مادام يقدم لها طعاما وشرابا ، وأنها تهش

وتبش لرؤية من يقدم لها غداءها وعشاءها ، ولئن كان من أشد البلاء عليها بما يسومها من مشاق الأعمال . فاذا عجزت عن العمل ذبحها وتغذى بلحومها !

ألا فاعجبوا اذا كانت هذه عقيدة رجال الحكومة الانكليزية فى الأمم التى يتسلطون عليها فأى معاملة تكون منهم لها ؟ ألا يعاملونهم معاملة العجماوات والحيوانات الرتع ! بلى ؟ وهكذا يعاملون ! وهذا تصرفهم فى البلاد الهندية ، يشهد بأفصح لسان على ما يعملون .

فالمصريون الآن بين أمرين أفضلهما أيسرهما ، اما أن يتكاتفوا ويتضافروا ويبذلوا أموالهم وأرواحهم فى حفظ شرفهم الانسانى ومكانتهم العربية وأداء حق عقيدتهم الدينية ، ويخلصوا أنفسهم من عبودية قوم لا ينظرون اليهم الا كما ينظرون الى البغال والحمير ! وان هموا بذلك وجدوا لهم فى اخوانهم المسلمين أنصارا ينتظرون الآن حركة منهم وهذا أشرف الأمرين ، وما هو عليهم بعسير — واما أن ينسلخوا عن جميع الخصائص الانسانية . ويخلعوا حلية الايمان ، ويتبرأ منهم شرف العرب ! وليحملوا ناف العبودية على أعناقهم ، وليقاسموا الحيوانات فى حظوظها ، وليستعدوا لكل ذلة وليقبلوا كل ضيم — وهذا أعسر الأمرين ، وأدناهما — وما أظن مصريا يختاره لنفسه ، ولئن اختاره (معاذ الله) فيذهب الله بهم ويورث الأرض قوما آخرين ، فان الله غيور على دينه ، غيور على العدل ، منتقم من الضالين وانا لله وانا اليه راجعون .

ولقد اتبع المصريون الأمر الأفضل والأحق من دعوة السيد جمال الدين والحمد لله ، وحققوا ظنه فتكاتفوا وتضافروا وبذلوا أموالهم وأرواحهم فى حفظ شرفهم الانسانى ومكانتهم العربية ، وأدوا حق عقيدتهم الدينية ، وخلصوا أنفسهم من ناف العبودية ، وظفرت البلاد بفضل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ باستقلالها ونالت حريتها ، بعد أن ظلت ترسف فى قيود العبودية نيفا وسبعين سنة ثم تم استقلالها باستخلاص قناة السويس من يد مغتصبيها فعادت ملكا لها ــ وبذلك أصبحت الجمهورية العربية المتحدة فى مصاف الأمم الراقية والدول العظيمة .

مفاوضة الانجليز مع السيد في السودان

لما اشتعلت ثورة المهدى فى السودان التى سنكتب عنها كلمة فيما بعد وأصبحت شغل الانجليز الشاغل جمع مستر بلانت الصديق الحميم للسيد جمال الدين الأفغانى بين السيد وبين اللورد ساليسبورى واللورد تشرشل للمفاوضة فى أمر السودان ولكن التوفيق بين وجهات النظر كان مستحيلا .

نرى بعد أن فرغنا من الكلام عن مفاوضة الأستاذ الامام محمد عبده مع الانجليز فى أمر مصر ، أن نصل القول بمفاوضة أخرى قام بها السيد جمال الدين مع الانجليز فى أمر السودان ، ذلك لما أنه ظهرت حادثة محمد أحمد السودانى الذى ادعى المهدوية — وأخذ أمره يستفحل ، اتخذ الانجليز من تلك الحادثة ذريعة للتدخل فى شئون مصر بحجة قمع ثورة المهدى السودانى — فكتب السيد جمال الدين فى العروة الوثقى مقالات شديدة يحذر فيها الانجليز من عملهم ويلفت فيها نظر كبير وزرائهم اذ ذاك (مستر غلادستون) الى سوء مصير الجنرال غردون ، وا نجاح الانجليز فى الشرق لا يكون بهذه الوسيلة ، وأثبت ذلك كله بأدلة قاطعة وبراهين ساطعة — وظلت حملاته فى مسألة السودان تشتد وتقوى فاهتم بها رجال السياسة فى العالم اهتماما شديدا وأقضت مضاجع كبار الانجليز — حتى اضطر اللورد (ساليسبورى) و (تشرشل) أن يستدعيا جمال الدين ليأخذا رأيه فى أمر المهدى وظهوره ، فسافر الى لندن واجتمع بهما وبين لهما سوء المصير ، من انتهاج سياسة الانجليز فى مصر والسودان خاصة ومواقع خطأ هذه السياسة نحو دول الاسلام فى الشرق عامة .

وبعد أخذ ورد فى الحديث مع السيد اختصر اللورد ساليسبورى الكلام فقال للسيد جمال :

ان بريطانيا تعلم مقدرتك ونحن نقدر رأيك قدره ، ونحب أن نسير مع حكومات الاسلام بمودة وولاء على قدر ما تسمح لنا به الظروف والأحوال . لذلك عولنا على أن نرسلك الى السودان سلطانا عليه لتستأصل جذور فتنة المهدى وتمهد السبيل لاصلاحات بريطانيا فيه :

فقال جمال الدين : تكليف غريب وسفه فى السياسة ، اسمح لى يا حضرة اللورد أن أسألك : « هل تملكون السودان ؟ حتى تريدوا أن تبعثوا اليه بسلطان ! » .

مصر للمصريين والسودان جزء متمم لها ، وصاحب الحق الخليفة الأعظم حي يرزق ، ولديه من القوة ما يذلل كل صعب وفتنة (١) ، ثم استطرد يقول له : ان الاصلاح وما تنويه بريطانيا أن تفعله وما تريده هناك من عمل — فعلى سبيل الاستطراد والتطفل ألفت نظرها ونظر كبير رجالها حضرة اللورد — الى ايرلاندا وما تعانيه من ضروب البلاء فيما تنشده لنفسها من طلب الاستقلال ليتسنى لها معه الاصلاح الحقيقى لبلادهم فلماذا لا تجيبون سؤالهم وتصلحون أمرهم ، وهم أقرب اليكم من حبل الوريد ، وبينكم وبينهم من الجامعات ما هو معدوم لكم فى مصر والسودان وغيرهما من ممالك الشرق » .

فبهت عند ذلك اللورد ساليسبورى وفوجىء بصدمة لم تكن فى حسبانه ، اذ كان ينتظر من جمال الدين سجود الشكر لسلطان أتاه بدون تعب ، فقال للسيد كلمات معناها : سننظر فى الأمر وودعه بقوله — مصحوب بالسلامة .

وقد اهتمت الجرائد الانجليزية بهذه المقابلة وما جرى فيها خصوصا ما كان منها مواليا لقضية الارلنديين من الانجليز الأحرار ، ولم يخرج جمال الدين من لندن الا وكانت أنديتها السياسية تضج بالحديث عما أجاب به السيد كبير وزراء الانجليز وكيف يخاطب شرقى وزيرا عظيما بمثل هذه اللهجة التى لم تكن معروفة عند أى شرقى قبله .

(١) كانت مصر حينئذ تابعة لتركيا باعتراف جميع الدول ومن كان يعمل بغير ذلك فانه يقع تحت طائلة العقاب وكان يعد خارجا على الخليفة !!

جمال الدين - أبو جميع ما فى مصر
من نهضات .. وهو أول من نادى
بأن مصر للمصريين

قرأت فى مفاوضة الانجليز مع السيد جمال الدين أنه صرح لهم بأن « مصر للمصريين » فهو بذلك يكون أول من جهر بهذا الشعار ، ثم جاء من بعده يستعلن به مثل أحمد عرابى ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، رحمهم الله جميعا .

وهذه الحقيقة يعرفها كل من أرخ لمصر من المؤرخين الميصفين ، واليك ما قاله أحد أولئك المؤرخين الكبار ، لوثروب استوارد الكاتب الأمريـكى الكبير فى كتابه القيم (حاضر العالم الاسلامى) (١) ــ وذلك عندما أنشـأ يتكلم ــ فى كتابه هذا ــ عن مبدأ الحركة الوطنية ، والنهضة القومية فى مصر ــ على عهد اسماعيل باشا :

فقد قرر : انه فى مطلع هذه الحـركة ظهر شعار (مصر) ينـادى به القوم الوطنيون الذى لم يسمع من قبل ؛ الا وهو :

مصر للمصريين

قال (٢) : وفى ابان مثار هذه الحركة الوطنية الوليـدة التى طفقت فواعلها تقوى وتشتد ، ظهر جمال الدين بسلطانه النفسانى الهائل ؛ وروحه الاجتماعية الكبرى ــ يوقظ مصر ، ويستثيرها بتعاليمه حتى غدت نفوس

(١) ص ٩٢ ج ٤ .
(٢) ص ٢٤٣ و ٢٤٤ خاطرات جمال الدين

القوم مترعة بنشوة الانفعال ، على أن جمال الدين هذا الرجل القطب الفرد لم يتجل من سلطانه ، ويبدو من بالغ تأثيره ، وعظم منزلته ، ما تجلى منه فى مصر ، وليس من المغالاة ان تقول : انه هو حقا :

أبو جميع ما فى مصر اليوم من نهضة وطنية ، ويقظة جنسية

فهو قد استطاع حق الاستطاعة ان يحكم بسلطانه ، ويستولى بشدة عارضته ، ليس على كبراء المحرضين الوطنيين مثل عرابى باشا فحسب ! بل أيضا على المصلحين المحافظين مثل الشيخ محمد عبده المصلح الكبير ، الذى أدرك وهن مصر ، وضعف أمرها ، فأنشأ يعسل ويجد ، ثبت الجنان ، رابط الجأش فى سبيل الاصلاح ، متوخيا وسائل الترقية ، وذرائع التنشـئة ، على سنن التدرج للوصول الى الغاية المطلوبة وادراك الغرض المنشود » .

ويطول بنا القول لو ذهبنا تفصل أعمال السيد جمـال الدين لمصر ، وبيان جهاده فى سبيلها .

وقد ظل يصيح صيحاته بين المصريين الى أن نفى من مصر متحسرا على ما وجده منها وفى ذلك يقول :

وعزة الحق ! ان ما كتبته عن حق مصر ، وما استنهضت من الهمم ، وما حذرت من سوء المصير ـ لو تلك على الاموات لتحـركت أرواحهم ولرفرفت على أجداثهم ، ولاحدثت لأعدائهم أحلاما مزعجة ، ومراء مروعة

كاد أن لا يخلو سطر من (العـروة الوثقى) الا وفيه ذكر (مصر) ولا براهين وأدلة على ظلم الانجليز الا ويتمثل فى (مصر) ولا خوف من شر مستطير يفكك أجزاء السلطة العثمانية الا وتراه من التعاون فى أمر (مصر)

ذلك لأن جرح مصر ، كان ولم يزل ـ له فى جسم الأمة الاسلامية ـ والعرب عموما نعولا ـ وبعروقها اتصالا .

ولا يفوتن أهل الشرق ـ العلم ـ بأن كل مدينة وكل مقاطعة اسلامية شرقية ـ هى بمنزلة (مصر) وان لم تسقط تحت أهل المطامع اليـوم ـ فالشراك لها منصوبة والسقوط (والعياذ بالله) قريب !

الا اذا نشطت العقول ، وعمـــال أولو العزائم ، ولمت الأمم الشرقية شعثها ووحـــدت كلمتها ـــ وطلبت حفظ ملكها بأســـبابه ، وعـــزة الحرية والاستقلال بمؤهلاتها .

ما قرعت آذان المسلمين والشرقيين عموما بالحجج القاطعة ، وهتكت أستار الطامعين بالبراهين الساطعة ؛ وأظهــرت فظائع حكمهم بمن حكموا محسوسا ـــ الا لأقرب البعيد من زمن الاستعباد ، واقصر طيات المسافة فى الذل والمهانة لمن لم تسقط بعد من المقاطعات الشرقية وله من الزمن ما يؤجل معه سقوطه .. ويلم شعثه ويسد بعضهم لبعض يدا عن أن تكون يد الله فوق أيديهم .

الثورة المهدية بالسودان

ظهرت الثورة المهدية فى السودان سنة ١٨٨١ والذى دعا اليها وكان قائدها هو محمد أحمد ــ المشهور بالمهدى ، وكان من أسبابها فى أول الامر مظالم الحكام وما عاناه الاهلون من العسف والظلم وفداحة الضرائب ، وثمة أسباب أخرى يطول شرحها ، وكان حكام السودان حينئذ ــ خليط من الترك والشراكسة والمصريين .

ومحمد حامد هذا المشهور بالمهدى والذى قام بهذه الثورة ولد فى ٢٧ رجب سنة ١٢٦٠ (١٢ أغسطس سنة ١٨٤٤) بجزيرة لبب التى تبعد عن مدينة دنقلة جنوبا بخمسة عشر كيلومترا ، وهو من سلالة عربية ، ومنذ صباه مال الى طلب العلم ثم تصوف ورحل بعد ذلك الى جزيرة (أبا) مع أسرته فبنى هياك مسجدا للصلاة وخلوة للتدريس . وأقبل عليه من فى الجزيرة ليأخذوا عليه العهود ، ولم يلبث أن ذاع صيته ، ولما كثر أتباعه ومريدوه اعتقد أنه المهدى المنتظر !! ثم أخذ ينشر دعوته ووزع منشورات على الناس بأنه المهدى المنتظر .

ولما طالبه حكمدار السودان ــ وكان يومئذ اسمه محمد رءوف باشا ــ بأن يرجع عن هذه الدعوة رفض ، وقرر أن يؤيد دعوته بالقوة ــ ومن هنا بدأت الثورة المهدية ثم ازدادت نارها بعد ذلك اشتعالا .

ولما كانت الدولة الانجليزية فى عصر توفيق قد ازداد نفوذها لضعف هذا الخديوى وبخاصة بعد الاحتلال المشئوم الذى وقع سنة ١٨٨٢ فقد أراد الانجليز أن يستعينوا بالسيد جمال الدين على اطفاء نار الثورة المهدية فكانت المفاوضة التى حدثناك عنها من قبل .

ومما يذكر هنا ان مصر تخلت عن السودان عندما تولى وزارتها نوبار باشا (الأرمنى) فى ١٠ بناير سنة ١٨٨٤ وقد تم تأليفها على قاعدة اخلاء السودان وقبول النصائح الانجليزية ..

أما المهدى فقد توفى فى شهر يونية سنة ١٨٨٥ .

ما قام به السيد
وهو بباريس

لبث السيد جمال الدين فى باريس ثلاث سنين أنفقهـا كلها فى أعمال جليلة . فكان خلالها لا يفتأ ينشر المباحث القيمـة ، والمقالات المهمـة فى مقاومة اعتداء الدول الاوروبية علىالامم الاسلامية ويراسل تلاميذه ومريديه فى مصر وغيرها .

وفتحت له أشهر الجرائد وأعظمها نفوذا فى أوروبا أبواب المراسلة فنشر فيها مقالاتممتعة عظيمة القيمة عنالسياسة الشرقية التى كانتتنازعها انجلترا والروسية وعن السياسة التركية والمصرية وحركة المهدى السودانى ونقلت صحف انجلترا هذه المقالات وتبينت مراميها فصادفت من بعض رجالالدولة الانجليزية قبولا وان كانت هذه المقالات قليلة الرفق بالسياسة الانجليزية .

وكان السيد جمال الدين ــ أنى سار ــ فى فرنسا وغـيرها من بلاد أوروبية يتصل بروابط متنة مع العلماء والكتاب ورجـال الدولة فى هذه البلاد .

وكانت العروة الوثقى قد نشرت مقالات تحذر الانجليز من سياستها فى السودان وفى مصر معددة خطيئاتها ، مما أقام رجال السياسة فى العـالم وأقعدهم واضطربت لها أندية لندن خاصة واضطرت انجلتـرا ازاء هذه الحملات ان تسعى فى مفاوضته كما علمت . ولقد كان للسيد جمال الدين فى باريس غير ما ذكرنا ــ عملان جليلان ، أحدهما : اشتراكه هو والاستاذ الامام محمد عبده فى تحرير جريدة العروة الوثقى التى تكلمنا عنها آنفا ، والآخر مقابلته للفيلسوف الكبير ارنست رينان ومساجلته اياه فى حقيقـة الدين الاسلامى وانه دين ينصر العلم ويمقت الجمود ــ لا كما يفهمه كثير من علماء اوربا ــ وكان منهم رينان نفسه .

السيد جمال الدين ورينان

لقى السيد جمال الدين الفيلسوف (رينان) ، ويذكر رينان هذا اللقاء فى كتاب له مؤرخ ١٨ مايو سنة ١٨٨٣ اذ يقول :

« لقد تعرفت بالشيخ جمال الدين من نحو شهرين فوقع فى نفسى منه ما لم يقع الا من القليلين ، وأثر فى تأثيرا قويا ، وجرى بيننا حديث عقدت من أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالاسلام موضوع محاضرة فى السربون . والشيخ جمال الدين خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية العظيمة التى أعلناها وهى النظرية القائلة ــ بأن قيمة الأديان بقيمة الأجناس التى تعتنقها ــ وقد خيل الى من حرية فكره ، ونبالة شيمه وصراحته ، وأنا أتحدث اليه أننى أرى وجها لوجه أحد من عرفتهم من القدماء ، وأننى اشهد ابن سينا أو ابن رشد أو أحدا من أولئك العظام الذين ظلوا يعملون خمسة قرون على تحرير الانسانية من الاسار » .

ولقد ألقى (رينان) محاضرته التى وعد بها وموضوعها (الاسلام والعلم) فى السربون فى ٢٩ مارس سنة ١٨٨٣ وكان لها أثر بعيد فى الشرق والغرب معا .

ومما جاء فى محاضرة رينان قوله :

ان فى الاسلام من حيث هو دين جهات رائعة وما دخلت مسجدا الا بلغ التأثر من نفسى ــ بل أقول ــ الا أسفت ان أكون غير مسلم ، اما بالنسبة الى العقل الانسانى فالاسلام لم يكن الا منارا (١) .

---

(١) رجعنا فى هذا البحث الى المحاضرة التى القاها الاستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله فى دار الجامعة المصرية يوم ٢٠ مارس سنة ١٩٢٣ عن الفيلسوف رينان وجمال الدين وقد نشرت بجريدة السياسة بالعددين ١٢٣ و١٢٤ الصادرين فى يومى ٢١و٢٢ مارس سنة ١٩٢٣ والمحاضرة طويله ونفيسة وكذلك رجعنا الى كتاب زعماء الاصلاح فى العصر الحديث للدكتور أحمد امين ص ٨٥ـ٩٣ .

وقد اشتملت محاضرة المسيو (رينان) — كما جاء فى رد جمال الدين — على نقطتين أساسيتين وأخذ يرد عليه فقال :

قد حاول المفكر العظيم أن يبرهن على أن الديانة الاسلامية كانت — بما لها من نشأة خاصة — تناهض العلم ، وأن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لعلوم ما وراء الطبيعة ولا الفلسفة ! .

ويظهر أن المسيو رينان يقول : ان هذه النبتة الصالحة ذبلت فى أيدى المسلمين كما يذبل النبات حينما تلفحه الصحراء الساخنة .

وأن المرء ليتساءل — بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها — أصدر هذا الشر عن الديانة الاسلامية نفسها ؟ أم منشؤه الصورة التى انتشرت بها الديانة الاسلامية فى العالم ؟ أم أن اختلاف الشعوب التى اعتنقت هذا الدين ، أو حملت على اعتناقه بالقوة وعاداتها ومواهبها الطبيعية هى جميعا مصدر ذلك ! .

لا ريب أن قصر الوقت المخصص للمسيو رينان قد حال دون اجلائه هذه النقطة .

وتعرض السيد بعد ذلك للكلام على نقطتى المحاضرة فبين عند الكلام على النقطة الأولى : أن الدين لم يكن عنه مناص فى سوق الأمم عند نشأتها الى كمالها « وأن كل أمة ابان نشأتها لا تكون قادرة على أن تسترشد بالعقل الصافى اذ تنتابها تصورات مفزعة لا قبل لها بالتخلص منها . ثم بين حاجة الأمم الى الأديان فقال :

ان الامم جميعا انما شبت عن طوق الهمجية وخرجت الى ما هو راق فى مراتب المدنية بتلك التعاليم الدينية اسلامية كانت أو مسيحية أو وثنية .

ثم أخذ السيد يبين أن ما وقع للمسلمين ، وقع مثله فى الأديان الأخرى فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المبجلون لم يلقوا أسلحتهم بعد . كما اعلم ، وهم عاكفون على محاربة ما يسمونه بالتدليس والضلال (يعنى العلم والفلسفة) !.

واما النقطة الثانية : فالكل يعلم ان الشعب العربى خرج من حال الهمجية التى كان عليها وأخذ يسير فى طريق التقدم الذهنى والعلمى ويغذ (١) السير بسرعة لا تعادلها الا سرعة فتوحاته السياسية ، وقد تمكن فى خلال قرن من التكيف بالعلوم اليونانية والفارسية ... فتقدمت العلوم تقدما مدهشا بين العرب وفى كل البلدان التى خضعت لسياستهم ، وقد كانت روما وبيزنطة المدينتين الرئيسيتين لعلوم اللاهوت والفلسفة ، بل مبعث أنوار المعارف الانسانية كلها ثم جاء الوقت الذى وقف فيه علماء هاتين المدينتين عن البحث ، وتهدمت فيه نصبهم التى أقاموها للعلم ، ودرجت كتبهم القيمة فى طى النسيان ، وقد كان العرب فى ذلك الجهل حين شرعوا يتناولون ما تركته الأمم المتمدنة ، فأحيوا بذلك تلك العلوم المندثرة ورتبوها . وخلعوا عليها بهجة لم تكن لها من قبل ، أو ليس هذا دلالة بل برهانا على حبهم الطبيعى . للعلوم ؟

صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما كان شهرتهم فى القدم ، لكن هذه العلوم التى أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها ووضحوها وبلغوا فيها مرتبة الكمال ونسقوها تنسيقا منطقيا يدل على سلامة الذوق . وينطوى على التثبت والدقة النادرين ، وقد كان الفرنسيون والألمان والانجليز لا يبعدون عن رومة وبيزانطة بعد العرب عنهما ـ وهم الذين كانت عاصمتهم بغداد ـ وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز العلوم التى كانت مدفونة فى هاتين المدينتين العظيمتين ، ولكنهم لم يفعلوا حتى جاء اليوم الذى ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة البرانيس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب ، وأحسن الأوروبيون اذ ذاك استقبال ارسطاطاليس بعد أن تقمص للصورة العربية،ولم يكونوا يفكرون فيه وهو فى ثوبه اليونانى على مقربة منهم ، أو ليس هذا برهانا آخر ناصعا على مزايا العرب الذهنية وحبهم الطبيعى للعلوم ؟ .. وبينما يسلم مسيو رينان بان البلدان الاسلامية فى غضون خمسة قرون من سنة ٧٧٥م الى

---

(١) يغذ ـ يسرع .

أواسط القرن الثالث عشر كانت تحتوى علماء ومفكرين عظاما ، وان العالم الاسلامى اذ ذاك كلن يفوق العالم المسيحى فى الثقافة الذهبية ، اذ فيه يقول ان أكثر الفلاسفة الذين شــهدتهم القرون الاولى للاســلام كانوا كتابهى السياسة من أصل حرانى أو أندلسى أو فارسى ، أو من نصارى الشام ! ، ومضى السيد يقول : ولست أريد أن اغمط علماء الفرس صفاتهم الباهرة ولا أن أغض الطرف عن الدور الجليل الذى لعبوه فى العالم الاسلامى — ولكن أرجو ان يسمح لى أن ألاحظ ان الحرانيين كانوا عربا ، وان العرب لما احتلوا اسبانيا لم يفقدوا جنسيتهم بل ظلوا عربا ، وان اللغة العربية كانت الى ما قبل الاسلام بعدة قرون لغة الحرانيــين ، وكونهم قد حافظــوا على دياناتهم القديمة وهى (الصابئة) ليس معناه انهم لم ينتموا الى الجنســية العربية ، وقد كانت أكثرية نصارى الشام (١) عربا غسانيين اهتدوا بهــدى النظرية ، اما ابن باجة وابن رشد ، وابن طفيل ، فلا يمكن القول بانهم أقل عربية من الكندى بدعوى انهم لم يولدوا فى جزيرة العرب ، وخصوصا اذا اعتبرنا ان لا سبيل الى تمييز أمة عن أخرى الا بلغتها .

ثم ماذا يكون لو قصرنا نظرنا على الاصــل الذى ينتمى اليه العظيم ولم نأبه للنفوذ الذى سيطر عليه ، والتشجيع الذى لقيه من الأمة التى عاش فيها ، لو فعلنا ذلك لقلنا ان نابليون لا ينتمى الى فرنسا ، ولما صح لالمانيــا أو انجلترا أن تدعى كلتاهما الحق فى العلماء الذين استوطنوها بعد أن رحل أصولهم اليها فى بلدان أخرى ، وبعد ذلك تعرض السيد لاســباب انطفاء هذه الشعلة .

وختم رده بقوله .

ولن يقف القتال بين العقيدة والبحث الحر ، أو بين الدين والفلسفة مادامت الانسانية على قيد الحياة ، وهو قتــال عنيف أخشى أن لا يكون النصر فيه للفكر الحر ، لأن العقل لا يوافق الجماهير ، وتعاليمه لا يفقهها الا نخبة من المتنورين ، والعلم على مــا به من جمال لا يرضى الانســانية كل

(١) عكذا فى ص ٩١ من كتاب زعماء الاصلاح فى العـ الحديث ولكن فى محاضرة الاستاذ مصطفى عبد الرازق .

الرضا ، وهى التى تتعطش الى المثل الأعلى وتهوى التحليق فى الآفاق المظلمة السحيقة التى لا قبل للفلاسفة والعلماء برؤيتها أو ارتيادها .

بهذا البيان الرائع الذى فند فيه السيد جمال الدين رأى رينان فى العرب ينهدم به كذلك ما قاله رينان بعد ذلك من أن السيد قد زوده بطائفة من الآراء وهى ان الاسلام فى النصف الأول من وجوده لم يحل دون استقرار الحركة العلمية فى الاراضى الاسلامية ولكن فى النصف الثانى خنق الحركة العلمية ..

ذلك لان المسلمين قد وجد فيهم كما وجد فى غيرهم فى نشأة الاسلام الاعجمى المشوه بالبدع لا الاسلام العربى المنصوص فى القرآن والسنة الصحيحة .

رد رينان على جمال الدين

وبعد ذلك رد رينان على السيد جمال الدين بقول مملوء بالمجاملة وبادله مدحا بمدح ، واعجابا باعجاب وانا تجتزىء من رده بما يلى :

ولست أرى فى البحث النفيس الذى عالجه الشيخ الا نقطة يصح أن نختلف فيها حقيقة .. فلسنا بالتأكيد تنكر ما لرومة على تاريخ الانسانية من نفوذ ، ولا ما كان للعرب من نفوذ ، ولكن هذه التيارات الانسانية العظيمة فى حاجة الى تحليل ، اذ ليس كل ما كتب باللاتينية يزين تاج شهرة روما ، ولا كل ما كتب باليونانية من عمل اليونانيين ، ولا كل ما كتب بالعربية نتاج عربى ، ولا كل ما نشأ فى بلد مسيحى من تأثير المسيحية ولا كل ما ظهر فى البلدان الاسلامية من ثمار الاسلام .. لقد خالنى الشيخ غير منصف فى انى لم أوف الكلام حقه ؛ ولم أقل فى المسيحبة ما قلته فى الاسلام وان الاضطهاد بين المسيحيين لا يقل عما كان بين المسلمين ، وهذا قول حسن فجاليلو لم يلق من الكاثوليك خيرا مما لقيه ابن رشد من المسلمين !

واذا كنت لم أطل القول فى هذه النقطة فلأن آرائى فى هذا الشأن معروفة ، وأنا لم أقل ان المسلمين جميعا بلا تمييز فى الجنسية جهلة ، أو انهم سيبقون كذلك ! بل قلت ان الاسلام يضع فى طريق العلم عقبات كبيرة ..

ان واجب الهيئات الاجتماعية المتحضرة أن تجعل القاعدة العليا ـ أن حرية الانسان ومكانته فوق كل شيء ، وأن لا تهدم الأديان بل تعاملها معاملة تنطوى على حسن النية ، فتعتبرها من المهام الطبيعية الانسانية .

وختم رينان رده بقوله :

ويلوح لى أن الشيخ جمال الدين قد زودنى بطائفة من الآراء الهامة تعيننى على نظريتى الأساسية وهى :

أن الاسلام فى النصف الأول من وجوده لم يحل دون استقرار الحركة العلمية فى الأراضى الاسلامية ، ولكن فى النصف الثانى خنق الحركة العلمية وهى فى حظيرته فكان هذا من سوء حظه » .

وقد علق الدكتور أحمد أمين على ختام رد رينان بقوله (١) :

وهذه النتيجة الاخيرة ـ من غير شك ـ فيها كثير من التعديل لآراء رينان السابقة ، وهى تؤدى حتما الى أن مقاومة العلم ليست من طبيعة الاسلام ، ولو كانت من طبيعته ما شجع الحركة العلمية فى أوله ولا آخره

والى هنا أسدل الستار على هذه الرواية التى سيعاد تمثيلها ـ على وجه أشد بين مسيو هانوتو ـ والشيخ محمد عبده ، وما اقوى الردود ! ولكن أقوى منها رد المسلمين عليها بتبوئهم مكانة عليا فى العلم والفلسفة

أثر جمال الدين
فى بلاد إيران

لما أقفلت أبواب الهند ومصر وغيرهما من البلاد الشرقية فى وجه جريدة العروة الوثقى وأمعنت الحكومة الانجليزية فى اعنات من تصل اليهم أعدادها ــ لم ير السيد بدا من أن يقف اصدارها ويبقى بعد ذلك مقيما فى أوروبة ، أشهرا فى باريس ، وأخرى فى لندن ، ثم سافر الى البلاد الايرانية بدعـوة من الشاه ناصر الدين ــ وكان ذلك فى أوائل جمادى الاولى سنة ١٣٠٣ هـ (١٨٨٦ م) ولما بلغ طهران احتفل به الشاه احتفالا بالغا ، وادناه منه ، ورفع منزلته ، وسماه وزير حربه ــ كما كان من قبـل فى بلاده الافغان ــ وكان ينوى أن يرقيه الى مقام الصدارة .

وما كان يقضى هناك مدة قليلة حتى شاع ذكره ، وتناقلت الألسـية فضائله ، من غزارة العلم وسعة الأدب ، وتواردت عليه الخاصـة من وجوه البلاد وأمرائها وعلمائها فرأوا ما بهرهم من كمال فضله وسعة معرفته بأحوال السياسة والتاريخ وسائر العلوم قديمها وحديثها وتبحره فى علم الاديان وتوقد الذهن وقوة الخطاب فعظم بذلك فى نفوسـهم ، فانصرفت اليه الوجـوه ، وملكته القلوب اعنة اهوائها .

ولما رأى الشاه ان تسلطه على النفوس يزداد كل يوم ، وحرمته تعلو عند الأمة الايرانية غشيته من ذلك ريبة ، وملأه الخوف واضمر الحذر من ناحيته

ولمح السيد تنكر الشاه له فغادر بلاد فارس الى روسية (١) .

وهنـا نترك السيد نفسه لكى يقص أمره مع الشـاه بعد ذلك ، قال السيد :

جئت بطرسبورج فمكثت فيها أكثر من أربع سنوات وفى خلال هذه المدة زارها الشاه وأحب الاجتماع بى فلم أرغب فى مقابلته ، ثم سافرت الى

---

(١) سنعقد فصلا خاصا عن أثر السيد فى روسية .

(مونيخ) فى بلاد الالمان فجاءها الشاه أيضا وطلب مقابلتى فامتنعت فتوسط بيننا بعض كبار الرجال الالمانيين وغيرهم فاجتمعنا وطلب منى الذهاب الى بلاده كى يجعلنى رئيس وزرائه فأبيت وقلت له : اننى متهيىء للسفر الى باريس ومشاهدة معرضها (١٨٨٩) ولكن الشاه أخذ يلح على الحاحا شديدا فلم أجد مناصا من اجابة طلبه والذهاب معه الى بلاده ومن جملة قول الشاه فى « هذا رجل العالم السياسى الحربى اللائق أن يكون رئيس وزارة يقوم فيها بتدبير الامة .

وما كاد السيد يصل بلاد ايران سارع الشعب الى الالتفاف حوله « من جديد على وجه أبعث للمهابة ، وأدل الحب والثقة » وأخذ يبث تعاليمه التى تدعو الى الحرية والحياة الشورية ، وطلب منه الشاه أن يسن من القوانين ما يكون موافقا لروح العصر . ولعل ذلك قد جاءه من تأثير سياحته فى أوروبة فسن جمال الدين القانون الاساسى لمملكة فارس لتكون حكومة ملكية شورية .. وما أن أطلع على هذا القانون ، وما فيه من القواعد الدستورية التى تسلبه السلطة الاستبدادية ، حتى عاوده الوسواس وأعظم الأمر ، وجرى حديث بينه وبين السيد فى ذلك ــ وكان من رأى الشاه أنه بهذا القانون يصبح وهو (شاهنشاه) كأحد أفراد الفلاحين ! فبين له السيد مزايا الحكم الدستورى وفوائده ــ وقد جاء حديث السيد معه ، مصدقا لما وشى به الصدر الأعظم فى أن السيد يريد ان ينزع سلطان الشاه ويعطيه الى السوقة والفلاحين ! وبدا من الشاه الاعراض عن السيد ، فأحس السيد ذلك ، واستأذن فى الذهاب الى بلدة شاه عبد العظيم (١) وهو مكان مقدس على بعد عشرين كيلو من طهران ، فسار اليها وتبعه جمع غفير من العظماء والوجهاء . وكان يخطب فيهم ، ويستحثهم على اصلاح حكومتهم فسرت فيهم الحماسة واستفاضت تلك الروح فى طول البلاد وعرضها .

فأدرك الشاه الفزع وخشى أن تزلزل تلك الحركة قواعد سلطانه المطلق فبعث الى السيد بنصف ألف من فرسانه مدججين بالسلاح فاقتحموا عليه

(١) الشاه عبد العظيم هو من أحفاد بعض أئمة آل البيت ومدفنه حرم من دخله كان آمنا وقد مضى فى هذا المكان سبعة أشهر .

وكان حينئذ مريضـــا فى فراشه فقاده خمسون منهم ولا وأوصلوه الى حدود المملكة العثمانية فى ولاية البصرة .

السيد فى البصرة

أقام السيد فى البصرة زمنا حتى أبل من مرضه وكان يوالى انصاره فى فارس بكتبه الملتهبة ليثير فيهم الحمية ، ويؤجج بين جوانحهم نار الوطنية ، وكان ما ناله من عسف الشاه قد أثار ولا ريب حفيظتهم ، وأشعل نار غضبهم حتى أقلقلوا بال الشاه وانتشرت المنشورات مطالبة بالحكم النيابى وتلقى كتبا تهدده اما بأن يعطى البلاد دستورها أو يعتزل ، فلم يجد الشاه بدا من أن يقضى على أكثر من ٥٠٠ من مريدى السيد من أمراء وعلماء وجـــردهم من أموالهم وعاملهم بالعسف والظلم وألقى بعشرة من كبار الزعماء فى سجن قزوين ماتوا بعد عامين من سوء ما لقوا .

وكان من الذين القى بهم فى السجن رجل اسمه ميرزا رضـــا الكرمانى قضى أربع سنين ونصف ثم نفى من البلاد وهو الذى طعن شاه ايران فقتله كما سنبين لك ذلك .

احتكار التمباك

وفى سنة ١٨٩٠ كانت حكومة فارس قد منحت حق احتكار التمباك (١) الى شركة انجليزية فاغتنم السيد هذه الفرصة وكتب خطابا بقلم من نار الى ميرزا حسن شيرازى رئيس المجتهدين يعيب فيه على الحكومة هذا العمل الضار بثروة البلاد الممكن لاعدائها ، وكان من اثر هذا الخطاب (٢) أن أصدر الشيرازى فتوى حرم بها على كل مؤمن تدخين التمباك ما لم تعدل الحكومة عن مشروعها ! ولم تكد تصدر هذه الفتوى حتى امتنع الناس عن شرب التمباك

(١) التمباك هو محصول زراعى فى فارس وهو هناك يعادل القطن فى مصر .

(٢) ذكر السيد فى الخطاب الذى بعث به الى رئيس المجتهدين ماناله من الشاه وزبانيته عندما أمر باخراجه من البلاد فقال :

« ان ذاك اللئيم أمر بسحبى وأنا متحصن بحضرة عبد العظيم فى شدة المرض على الثلج الى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة ثم حملنى زبانيته الاوغاد وانا مريض على برذون مسلسلا فى فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية وساقتنى جحفـــله من الفرسان الى خانقين وصحبنى جمع من الشرط وكتب الوالى » . قبل مطلب منه أن يعيدنى الى البصرة .

وامتلأوا غيظا من عمل الشاه ، وأحاطوا به ليقتلوه أو يلغى هذا الاحتكار فاضطر الى الغائه مقابل نصف مليون جنيه انجليزى تعويضا للشركة ، ومن هنا تميز الشاه غيظا على السيد وأراد أن ينتقم منه فحاول جره الى البلاد بأية وسيلة ولكنه لم يفلح .

وقد قويت دعوة الاصلاح الدستوى والحرية فى فارس حتى طاحت برأس الشاه ناصر الدين ونالت فارس دستورها فى ٥ أغسطس سنة ١٩٠٦ .

وفى سنة ١٨٩٢ ذهب السيد الى لندرة مرة أخرى وأقام فيها ثمانية أشهر موجها كل همته الى محاربة الشاه ناصر الدين بقلمه ولسانه داعيا الى تخليص الشعب الفارسى من ظلم الحكم الاستبدادى وكان من المؤسسين للمجلة الشهرية (ضياء الخافقين) التى كانت تصدر باللغة العربية والانجليزية بلندن وكان من أكثر العاملين فيها نشاطا ، ولما تمكن السلطان عبدالحميد من استدعاء السيد جمال الدين الى الاستانة توسل سفير ايران لدى السلطان فى أن يطلب من السيد أن يكف بأسه عن الشاه فقبل ولكن الأمر لم يلبث قليلا حتى قتل الشاه وهو يؤدى الصلاة .

من الذى قتل الشاه ؟؟

قالوا ان الذى قتل الشاه هو رجل اسمه ميرزا رضا الكرمانى الذى حدثناك عن أمره من قبل وقد كان من الذين ألقى بهم الشاه فى سجن قزوين ونفى من البلاد بعد ما قضى فى السجن .

فهذا الرجل ظل يسعى حتى اتصل سرا ببعض أمراء العجم الناقمين على سياسة الشاه ومنهم مريدون للسيد جمال الدين من الذين امتلأت قلوبهم غيظا على الشاه لما صنعه مع السيد جمال الدين فمهدوا لهذا الرجل السبيل الى الوصول الى طهران ثم أخذ ينشىء صلاة خفية برجال القصر — واتهز فرصة ذهاب الشاه الى جامع عبدالعظيم وخلص سرا بمساعدة بعض الأعوان الى داخل المسجد وعند وصول الشاه ناصر الدين مع حاشيته انقض عليه بشجاعه وقوة وصرعه بطلقة من مسدس قائلا (هذه ذكرى جمال الدين)

وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان أن هذا الرجل عندما أطلق رصاصته قال: خذها من يد جمال الدين. وظن بعض الناس أن السيد جمال الدين هو الذى حرض هذا الرجل على فعلته هذه ! ولكن مثل السيد جمال الدين لا يكون من طبعه ان يتوسل الى غاياته بالقتل والتحريض على القتل ! وانما كانت وسائله فى جهاده قلمه ولسانه ، ومن أجل ذلك استنكر السيد أن ينسب اليه مثل هذا النقل وذلك عندما قابله مراسل جريدة السلطان فى الاستانة بعد مقتل ناصر الدين شاه ايران وسأله « ما رأيكم فيما نسبه البعض اليكم من التحريض على قتل ناصر الدين شاه ؟ فأجاب السيد فى حدة وغضب :

انى لم أنزل الى هذا الحد بان ألوث يدى بالاشتراك فى عمل دنىء وضيع كهذا !

فتبا لهؤلاء القوم وتبا لمليكهم .

وكأن الذين ظنوا هذا الظن قد بنوه على ماأجاب السيد جمال الدين عندما استدعاه السلطان عبد الحميد وقال له « ان سفير العجم ترجانى أن أتكلم معك فى الكشف عن الوقيعة فى الشاه ، وانا بناء على أملى فيك وعدته بأنك تكف عنه ، فقال له السيد « ما كنت ناديا أن أترك شاه العجم حتى أنزله قبره ! ولكن بعد أن أمر أمير المؤمنين بالكف عنه فلابد من طاعته (١) .

ولم يكن قصد السيد من هجومه على الشاه الا ما كان يقوم به من أعماله الشديدة ضده فى الصحف العالمية ومراسلاته لكبار زعماء وعلماء ايران .

هذا ما يقصده السيد اما أنه يحرض على القتل فهذا ليس من خلق فيلسوف عظيم مثله .

على أن هذا الظن قد غلب على حكومة ايران فسعت جهدها لكى تجره من الآستانة على اعتبار انه ايرانى ليحاكموه هناك واتخذوا وسائل كثيرة لذلك منها :

(١) ص ٢٩٥ ج٢ حاضر العالم الاسلامى .

ان رجلا اسمه (محمد حسن خان) الملقب باعتماد الدولة وهو من كبار موظفى حكومة ايران المقربين لدى مليكها ناصر الدين شاه لنشر كتابا اسمه (المآثر والآثار) ذكر فيه أن السيد من قرية (أسد اباد) من أعمال ايران ! فقامت ضجة كبيرة حول هذا الأمر .

قال الأستاذ عبد القادر المغربى فى كتابه جمال الدين (١) :

« ازاء هذه الضجة حدثنى أحد وجهاء (طرابلس الشام) وهو ممتعض لما سمع منكر ما قيل فى نسبة جمال الدين الى ايران فقال :

ان جعل السيد من أبناء ايران ، أو مواليد ايران فرية افترتها عليه حكومة ناصر الدين شاه (٢) بقصد الانتقام منه ، وان الخبر اليقين هو فيما حدثنى به صديقى الشيخ عبد الحميد الرافعى قاضى البصرة فى أثناء نزول الأفغانى فيها مستبعدا من ايران ، فهو اذن شاهد عيان ، قال القاضى :

كان والى البصرة يوم قدوم جمال الدين اليها (هدايت باشا) وهو رجل جليل القدر كثير التقوى والصلاح ، فاحتفل الوالى وأركان الولاية بالسيد وأكرموا نزلهواذا برقية (شيفرة) وردت الى الوالى من المابين (٣) يسألونه فيها عن نشأة جمال الدبن وأصله وفصله ، وهل هو ايرانى كما يزعم الشاه ؟ قال القاضى :

فاستحسن الوالى أن يتوسطنى لدى السيد جمال الدين ، فأسأله عن أصله ، ومبتدأ خبره من حيث لا أجعله يشعر بقصدى ووساطتى ! ولكن ذكاء جمال الدين الخارق جعله ينتبه الى الغرض من سؤالى ، فبادرنى بقوله : انه أفغانى الاصل والفرع ، وأنه لاعلاقة جنسية له بايران ولا تابعية . وأن الشاه يشيع ذلك عنه ارادة اجترارہ الى ايران ثم الانتقام منه ، والتنكيل به — قال (أى جمال الدين) وفى سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م فى زمن وزارة صفوت باشا للمعارف ، كان عينه عضوا فى مجلس المعارف الأعلى

(١) ص ٨٤ – ٨٦ .
(٢) انظر ماكتبناه فى فصل أرومته وحسبه فى أول الكتاب .
(٣) المابين كلمة تطلق على الحجرة التى لها بابان ، باب الى جهة الحرم ، وباب الى جهة الخدم ثم اختصت بالسراى السلطانية .

بناء على كونه (أفغـاني الجنس) ثم قال : فليسألوا (أى رجـال المابين) الوزارة المشار اليها ان أحبوا .

قال القاضي : فأبلغت هدايت باشا ما قصه على السيد الافغاني فأودعته برقية (شيفرة) رفعها الى المابين .

وبعـد أن أبل السـيد جمـال الدين الافغـاني من مرضـه الذى أصيب به وهو مبعد فى « شاه عبد العظيم » (١) ، تهيأ للسياحة فى داخل جزيرة العرب غير أن الوالى هدايت باشا منعه من هذه الرحلة ريثما يكتب الى المابين ويستطلع رأى أهله فيما عزم عليه جمال الدين فجاء جواب السلطان عبد الحميد بالحيلولة بينه وبين ما عزم عليه فلم يخف سر ذلك على جمال الدين فطواه فى كشحه ثم استأذن بالسفر الى لندن فاستشار الوالى المابين فأذنوا باطلاق سراحه . فعجـل جمال الدين بالسفر الى لنـدن خشية أن يمنعوه من السفر اليها ، وقد أصاب فى خشيته لأن المابين عاد فأرسل شيفرة الى والى البصرة بمنع جمال الدين من السفر الى لندن أيضا » .

وهكذا يلاقى السيد فى كل مكان عنتا وظلما ، وهكذا يناصر الظالمون بعضهم بعضا اذ لا يبعد أن يكون الشاه قد اتصل بأخيه فى الاستبداد عبد الحميد لكى يمنعه من السفر الى لندن وغيرها .

دستور ايران

من أثر تعاليم السيد جمال الدين

على أن تعاليم السيد جمال الدين الافغانى ومبادئه لم تنف بنفيه من ايران بل ظلت تعمل عملها ، ويسرى فى النفوس اثرها ، حتى نالت البـلاد دستورها ، كما بينا لك وهذا أمر مجمع عليه ولا يترى أحد فيه .

واليك شهادة على ذلك من الكاتب الكبير تشـارلز أدمس فى كتابه (الاسلام والتجديد فى مصر) (٢) .

(١) مكان على بعد ٢٠ كيلو مترا من طهران به مكان مقدس .
(٢) ص ٤ ومابعدها .

جهوده في البلاد الإسلامية والممالك الأوربية

قال تشارلز ادمس :

ولقد عمت جهـود هذا الرجل النابه البلاد الاسلامية كلها والممالك الأوروبيـة ذات الصلات بها ، فأفغانسـتان ، وفارس ، وتركيا ، ومصر ، والهند . اتصلت به جميعا وأحست بأثره القوى الذى هزها هزا عنيفا . فهو الذى أوحى بالثورة الفارسية التى بدأت بالهياج ضد احتكار التنمباك (١) فى سنة ١٨٩١ وانتهت بوضع دستور ٥ أغسطس سنة ١٩٠٦ ، تعهدها فى نشأتها الأولى بالنصح والارشاد ثم والاها بالتشجيع والتأييد .

(١) لقد حرك كتاب جمال الدين ، الحاج ميرزا حسن الشيرازى أحد رؤساء المجتهدين الفرس لاصدار فتواه بتحريم زرع السباك ما دام امتياز الاحتكار قائما وخضعت لهذه الفتوى اعناق العباد وقوطع التمباك حتى اضطرب الحكومة اخيرا مسوقة باستياء الناس الى ابطال ذلك الاحتكار البغيض . وكان شاه ايران قد اعطى احتكار التمباك الى شركة انجليزية ، والتمباك فى ايران كالقطن فى مصر ، وما كاد يعلم بذلك السيد جمال الدين ، وكان بعيدا عن البلاد حتى هاج هائجه وبعث بخطاب الى الحاج ميرزا حسن السيرازى حروفه من نار ، فصدرت الفتوى بتحريم زراعة التمباك وشربه فامتنع الناس عن شربه حتى ان الشاه لم يجد النرجيلة « الشيشة » التى يشرب بها التمباك واضطر ازاء ذلك الى ابطال هذا الاحتكار لقاء نصف مليون جنيه دفعها الى الشركة ، فانظر كيف يكون العظماء . وكيف تكون الشعوب من ورائهم ، وكما يكون العلماء تكون الشعوب .

أثر السيد جمال الدين في روسية

لما غادر السيد جمال الدين بلاد فارس أول مرة بعد أن جرى بينه وبين الشاه ما جرى مما بيناه لك من قبل ، ذهب الى روسية ، وكانت فى هذا الوقت قيصرية يحكمها قيصر مستبد غاشم ـ فحل السيد من الشعب الروسى محل الكرامة ، وأخذت المجامع العالية علميـة وسياسية تتلقفه لما سبقه الى بلادهم من شهرة عظيمة عن واسع علمه ، وجليل فضـله وعظيم جهاده ، وانه المكافح الذى لا يلين ضد الظلم والظالمين أينما سار ، وقد بلغ من اكبار أعظم رجال روسية فى العلم والسياسة له ، ان سعوا اليه ليحادثوه وينتفعوا بعلمه وسياسته وحنكته ، اذ كانوا يطمعون فى أن يعيشوا أحرارا ويخرجوا من ظلم القيصرية ، كما يعيش غيرهم من الأمم الحـرة ـ وكان السيد حينئذ أكبر داعية للحرية والتخلص من الاستبداد فى عصره

وقد انسأ فى فضله وعلو قدره الكاتب الروسى الكبير كانكوف مقالات كثيرة اطراه بما لا غاية وراءه من الثناء والتقدير .

وأخذ السيد ينشر فى الجرائد الروسية ـ كما هى عادته فى كل بلد يحل فيها ـ المقالات الضافية فى السياسة الأفغـانية والفارسية والتـركية والروسية والانجليزية ـ مما كان له دوى هائل فى جو السياسة العالمية اما نفرة السيد من سياسة الانجليز ، ونقده اياها نقدا شديدا ـ فقد جعل له فى روسية شأنا كبيرا فأولوه غاية الاجلال والتكريم وبخاصة فان روسـية كانت حينئذ تزاحم الانجليز فى آسية وتضغط على الدولة العثمانية وتعمل على تمزيقها .. وكان مما يشغل بال السيد غير ذلك ان المسـلمين فى البلاد الروسية وكان عددهم حينئذ ٣٠ مليونا ـ كانوا يعانون من الظلم والاضطهاد ألوانا .

وظل السيد جمال يبث فى بلاد روسية تعاليمه وأفكاره ما أقام فيها ، ولما بلغ هذه المكانة العالية فى بلاد الروسية ــ دعاه القيصر الى قصره وتحادث معه طويلا وكان كثير الحفاوة به معظما له ، مصغيا لما يقوله .

وقد سأله مرة عن سبب اختلافه مع شاه فارس ! ولما أجابه السيد بأن السبب هو الحكومة الشورية ، وضرورة اتباعها ، وان الشاه ينفر من ذلك، ولا يحب أن يقربه ــ قال له القيصر :

انى أرى الحق فى جانب الشاه ، اذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته ؟

فأجاب السيد بجرأة وفصاحة : أعتقد يا جلالة القيصر أن عرش الملك اذا كانت الملايين من الرعية أصدقاءه ، خيرا له من أن تكون أعداء يترقبون الفرص ويكتمون فى الصدور سموم الحقد ونيران الانتقام !! فعلت عند ذلك وجه القيصر علامة الغضب وقطب حاجبيه ، ولم يطل الحديث مع السيد ، وودعه بغير الصورة التى استقبله بها ! اذ كان وداعا فاترا ثم أوعز القيصر الى أكبر رجال بلاطه ــ أن يسرعوا متلطفين فى اخراجه من روسية (١) .

ولقد كان السيد جمال الدين يعمل ــ كما يدفعه طبعه ــ ضد القيصرية واستبدادها ومن أجل ذلك اتصل بحركة التحرير التى قامت ضد القيصر وكان يمدها بآرائه الحكيمة .

ومن أعماله انه حمل تلميذه الشيخ عبد الرشيد التتارى تقريرا منه الى جمعية سرية فى عاصمة روسية ، رئيسها عم القيصر وقال له : اذهب بهذه الرسالة وأوصلها الى الغرندوق فلان ، واعلم انك اما أن تقتل ، واما أن تفوز وتغنم ، فأوصلها الشيخ عبد الرشيد الى الغرندوق ، فقام لها وقعد ثم أعاده بها الى بلاد اليونان ليطبعها باللغة الروسية ويرسلها اليه ، وعرض عليه

---

(١) سافر السيد من ايران الى روسية سنة ١٨٨٦ وغادرها الى معرض باريس سنة ١٨٨٩ وفى ميونخ قابل ناصر الدين شاه فارس كما علمت من قبل وبذلك يكون السيد قد قضى فى روسية حوالى اربع سنين ، راجع صفحة ٥٩ من كتاب خاطرات جمال الدين .

من المال ما شاء ! فلم يأخذ الا القدر الضرورى ولقى فى سبيل ذلك أهوالا كادت تذهب بحياته .

وقال السيد مرة لتلميذه هذا ، الشيخ عبدالرشيد ياولد ستصلىصلاة الجنازة على القيصرية الروسية ، وستحضر تشييع جنازة الامبراطورية الانجليزية — فى الهند .

وقد تمت البشارة الأول فى سنة ١٩١٧ بالقضاء علىالقيصرية — وتمت البشارة الثانية فى سنة ١٩٤٧ بخروج الانجليز من الهند .

وكان مما خدم السيد جمال الدين المسلمين هناك — اقناع القيصر بحسن معاملة المسلمين والاذن لهم بطبع المصحف الشريف وبعض الكتب الدينية .

ولما طالبه رجال الحكومة الروسية بمبارحة روسيا سافر منها الى باريس على نية أن يزور معرضها الكبير سنة ١٨٨٩ وفى ميونيخ قابل الشاه وعاد معه الى ايران كما علمت من قبل .

أثر السيد في تركيا
تركيا في عصر السيد جمال الدين

لابد لنا قبل أن نأخذ فى الحديث عن حياة السيد جمال الدين الأفغانى الأخيرة فى تركيا ، أن نلم بطرف صغير مما كانت عليه هذه البلاد فى عصر جمال الدين الذى كانت تحمل فيه اسم الخلافة الاسلامية حتى يكون القارىء على علم بهذا العصر .

مما لا ريب فيه أن السلطة العثمانية قد بلغت فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى من السوء والانحطاط والجهل ، والظلم والاستعباد وخنق الحرية درجة سحيقة لم تبلغها دولة أخرى غيرها ، فقد دب الفساد فى جسمها وسرى داء الفوضى فى عروقها ، وعم الخراب والدمار جميع مرافقها وكانت الرشوة والمحسوبية هى العملة الرائجة فيها ، ومن أجل ذلك أخذت الدول الأوروبية تنتقصها من أطرافها . وبات السلطان لا يعنى بشىء فى مملكته غير المحافظة على شخصيته وأبهته ، وما عدا ذلك فلا حساب له عنده ، وانتابه من خوف ما ينزل به من سوء ، رعب أى رعب ، فاحتجب عن شعبه، واتخذ من الجواسيس والعيون الألوف المؤلفة وبثهم بين أرجاء مملكته ، ليبلغوه ما يتوهم أن يدبر له من أعدائه ! وقد بلغ من امعان هؤلاء الجواسيس انهم كانوا يستريبون فى كل همسة من فم أو ايماءة من رأس !! أو اشارة من يد ! أو لفتة من عين ! فيحصون ذلك كله ويصورونه ، ثم يرفعون به تقاريرهم ــ وبذلك استشرى بين الناس داء التجسس وأصبحوا فى هلع أى هلع ــ وكان عاقبة ذلك ان فسدت الأخلاق ، وخربت الذمم ، واضطر كل واحد أن يدرأ الضرر عن نفسه ويطلب النجاة من غيره ولو بالكذب والافتراء عليه ، وقد بلغ من الأمر فى هذا العهد : ان كان الابن يتجسس على أبيه ، والزوجة تتجسس على زوجها ــ كان على كل جاسوس أن يؤدى عمله كاملا ! وعمله الكامل : ان لا يقدم تقريره بغير تهم ! فاذا

جاء تقريره خلوا منها عد مقصرا ! ان لم يكن خائنا فكان لابد له من أن يملأ تقريره بالتهم صحيحة كانت أو كاذبة ـ وكان جـزاء كل من يرمى بشبهة أن يلقى فى اليم ، أو يقذف به فى الجب ، أو ينفى الى حيث لا يعرف مكانه ! أو يزج فى السجن ليظل فيه دائما ! اذ لم يكن هناك قانون يراعى ، أو محاكمة تحقق التهم وتحدد العقاب ! بل كان الأمر فوضى !! وكان رؤساء الجواسيس عندما يتلقون تقارير التجسس لا يرفعونها الى السدة العلية ! قبل أن يعرضوها فى خفية على الدجال الأكبر (أبو الضلال) فيأخذ منهـا ما يشاء مما يراه مهما ثم يسارع الى السلطان فى سهرته فيلقى اليه ما عرفه من طريق التجسس على أنه من علم الغيب الذى اختص به ! وكان يتمثل أثناء القاء ما يلقيه كأن غيبوبة قد غشيته ! وكأن ما يلقيه ليس كلاما قد تلقاه من غيره ولكنه الهام من الله ! وكان السلطان يستهويه الدجل والشعوذة .

وعندما ترفع تقارير الجواسيس الى السلطان فى الصباح ويقف على ما فيها ويقارن بينه وبين ما ألقاه الشيطان له ! يزداد ثقة بهذا الشيطان وتعلو عنده مكانته !! وبهذاوبغيره نال هذا الدجال من الحظوة لدى السـلطان وعظم المكانة عنده ما لم ينله أحد غيره فكان بيده الحل والعقد فى الدولة والنقض والابرام فى جميع أمورها ، مما ينطبق عليه المثل المشهور (فى كل واد أثر من ثعلبة) .

تاريخ أبى الضـلال

ولما كان هذا الدجال الأكبر قد تدخل فى مصاير الدول العثمانية وكان من أكبر أعوان المستعمرين وأعدائها الذين كانوا يكيدون لها ، ولم يدعها هؤلاء الاعداء وانصارهم حتى اندك صرحها وتقوض بنيانها ، فانا نفرد له فصلا خاصا يقتضيه سياق التاريخ حتى يقف الناس على حقيقته .

لما أخذ نجم السلطنة العثمانية فى الأفول ، بعد أن كان لها ميدان دولى تجول فيه وتصول ، ابتلاها الله بمشايخ دجالين انتسبوا الى الدين الاسلامى ظلما وزورا فأخذوا يعمـلون بدجلهم وضـلالهم حتى عجلوا بزوال هذه السلطنة من صفحة الوجود . وانا ننقل هنـا ما كتبه صاحب كتاب « مـا

هنالك » وهو أصدق مصور لهؤلاء المشايخ لأن مؤلفه الكاتب الكبير ابراهيم المويلحى قد عاش فى الاستانة زمنا طويلا ، فهو يكتب عن علم وخبرة ، وسنكتفى بخلاصة من تاريخ الدجال الكبير المعروف بأبى الهدى الصيادى الذى كان حربا على السيد جمال الدين فى الاستانة وعلى غيره من الأحرار أمثال عبد الله نديم والكواكبى وغيرهما بدسائسه وسعاياته وشعوذاته ، وما عملته يده من البغى والكيد للسيد حتى انتهى الأمر بوفاته .

قال صاحب كتاب « ماهنالك » ابراهيم المويلحى تحت هذا العنوان « المشايخ » :

هم حملة عرش الخلافة وعددهم أربعة (١) : وهم الشيخ السيد أبو الهدى الخانشيخونى ، والشيخ السيد القيصرلى المدنى ، والشيخ السيد فضل باشا المليبارى المكى ، والشيخ محمد ظافر المدنى المغربى ـ وقد اختلف الناس اختلافا عظيما وتعددت آراؤهم فى سبب قربهم من حضرة مولانا الخليفة والتصاقهم ببساطه .

أبو الهدى الصيادى

ولما تكلم المويلحى عن أبى الهدى الصيادى قال :

وفد أبو الهدى على الاستانة « وكان لا يلقب حينئذ الا بالشيخ » فى آخر حكم السلطان عبد العزيز ـ فى زى أهل الطريقة ، فأخذ ينشد على الذكر فى احدى التكايا ويضرب على الدف على رسم الطريقة الرفاعية التى هى طريقته ـ وكان له شعر مرسل كالرفاعية .

سبب اتصاله بعبد الحميد

وكان سبب اتصاله بالسلطان عبد الحميد أن رأى السلطان رؤيا فقصها على أحد أصحاب الشيخ . فقال لجلالته ـ انى أعرف شيخا واسع

(١) كان يؤيد السلطان كثير من المعممين من رجال الدين بعد أن اشترى ذممهم من أموال المسلمين وكانوا يسمون كل حركة تدعو الى الاصلاح فتنه ، وكانوا يقولون فى تأييد سلطانهم : سلطان غشوم خير من فتنة تدوم .

المعرفة ، له جانب مع الله فأمر السلطان باحضاره ففسر الرؤيا تفسيرا أعجب به السلطان فأحسن اليه . وبعد ذلك صعد الشيخ الى المابين (١) وقال : قد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم ليلة أمس فى الرؤيا فأمرنى أن أبلغ عنه جلالة الملك الخليفة كلاما ! وأن يكون ذلك منى اليه من غير واسـطة ، ولما علم السلطان بذلك خرج وأمر الشيخ أبا الهدى أن يبلغه بالواسـطة ما أمره به النبى صلى الله عليه وسلم فامتنع وقال : أنا أمرت أن أبلغه ذلك مشافهة ولا يكون أحد بيننا ، ولما قيل له أن السلطان لا يعرف العـربية انتظر يومين ثم صعد الشيخ وقال : انى الآن أتكلم اللغة التركية ، فسـألوه كيف ذلك ؟ فقال : ان النبى صلى الله عليه وسلم جاءنى فى الرؤيا وتفل فى فمى فتكلمت باللغة التركية (٢) . فدخل على السلطان وأبلغه الرسالة النبوية ، ومن ذلك الوقت نال حظوة لدى السلطان لم ينلها أحد من قبله ـ وصـار الوزراء والكبراء يقبلون يده ويعتقدون فيه خاصة (أنه المهدى المنتظر) ويستدلون بأن لفظة « أبو الهدى » عددها ٥٩ بحسا بالجمل ولفظة مهدى عددها ٥٩ كذلك ويقولون انه لما بلغ ستة أعوام من عمره قرأ القرآن فى ثلاثة أشهر وفى السنة السابعة أتقن علم التجويد والقراءات وفنونها وينسبون لوالده كرامات : منها أنه أكل حسل جمل من الخيار وزنه أربعة قناطير ، وسـبعين رطلا مصريا ، وهدد المنكرين بقوله « ان لم يسكتوا بلعهم جميعا !! » واذا كان أحد حكام فرنسا يقول : فى كل دعوى تعرض عليه « ابحثوا عن المرأة » فكذلك قالوا فى كل ضرر لحق بالدولة العثمانية أو لحق بأحد رعاياها « ابحثوا عن الشيخ » فاذا بحث الباحثون وجدوا أن جزم كل مصيبة وسنخ كل بلية وأساس كل فادحة هو من الشيخ ، حتى قال بعضهم « انه للسلطان كالشيطان للرحمن » وقد أفرط فى اضراره بالناس حتى انك لتراه يسعى فى اهلاك قرية كانت آمنة مطمئنة بجميع أهلهـا اذا سمع أن رجلا فيها قال فيه كلمة ليست فى العـرض ولا فى الدين وسـعى فى نفى الشـيخ رشيد المعصرانى الى رودس لكلمة

---

(١) المابين كلمة تطلق على الحجرة التى لها بابان باب الى جهة الحرم وباب الى جهة الخدم ثم اختصت بالسراى السلطانية .

(٢) هذا من لعبه فى الدجل فقد قضى فى الآستانة سنين طويلة تكفى لأن يتقن فيها اللغة التركية .

قالها ــ وقد وقف نفسه وأعوانه على اهلاك النفوس ، وخراب البيوت ، وبلغت به سرعة الانتقال من حصير التكايا الى بساط السلطنة ومن لبس زى أهل الطريقة الى وضع الوسامات العالية على صدره ، واذا كذب قال المنافقون صدقت ، واذا ظلم قالوا عدلت واذا ذم أحدا كفروه !!

دخل على السلطان بتفسير الرؤيا والتنجيم ولما فرغت كنانته من السهام التى أصمى بها قلب الدين خرج الى الساحة الواسعة ، ساحة الدسائس والغدر ، وكان أكثر التقارير التى تقدم الى السلطان من تقارير الجواسيس بايحائه واغرائه .

وعظم نفسه أمام السلطان فقال : ان تلاميذه بلغوا عشرة ملايين من الرفاعية ، وقال ان بلاد العرب فى قبضته ، والأولياء فى خدمته ، والنبى فى معونته ، والله سبحانه وتعالى فى نصرته والأقدار فى طاعته (لعنه الله) وأن ملوك الاسلام فى حاجة اليه ليتبركوا به وقد أفتى واحد وعشرون عالما من علماء مصر بتكفيره وزندقته ا.هـ ملخصا (١) .

وقد وضع السيد عبد الله نديم فى تاريخ هذا الدجال كتابا برأسه سماه (المسامير) سود صفحته الأولى بصورته الخبيثة وكتب تحتها هذين البيتين :

هذا الذى قد كان قبل دخوله ... دار السعادة (٢) مقرفا شحاذا
واليوم صورته تبين انه ... أضحى بأقبح حيلة أستاذا

ومما قاله فيه :

انه هو المسيخ الدجال ، المكتنى بالضلال ، عنوان المقت ، وفضيحة الوقت مثير الفتن ومضرم نيران المحن .

وقد بلغ من حماقة هذا المفتون انه كان يضمع فى الخلافة !!

(١) ص ١٨٢ الى ٢٢٥ من كتاب ما هنالك وفى الكتاب كلام طويل عن هذا الدجال ودجله يرجع اليه .
(٢) ص ٢٤٣ و٢٤٤ من كتاب زعماء الاصلاح .

وصف الدكتور احمد امين لأبى الضلال

قال الدكتور أحمد أمين :

كان أبو الهدى عجبا من العجب ، اذا أرخت الدولة العثمانية فى عهد عبد الحميد ، احتل كثيرا من صفحات تاريخها ، وكان مستترا وراء الصفحات الباقية ! يرن اسمه فى كل انحاء المملكة من مصر وسورية والعراق وتونس والجزائر ، ويتقرب اليه الولاة فى حل كل عظيمة ، أثبت به القدر انه على كل شيء قدير !

سورى من حلب ، فقير المال والحسب (١) دفعته المقادير الى الاستانة ، وكان ماهـرا ذكيا وسيم المحيا ، ماضى العزيمـة ، قادرا على معرفة نفوس الناس ! ومن أين تؤتى ، فتغلب على عقل السلطان عبد الحميد بأحـلامه وتفسيراته ، والطرق ومشيختها ، فربط نسـبه بأعلى نسب ، فهـو قرشى هاشمى علوى !! وهو فى الطريقة رفاعى ، له الأتباع الكثيرون ، له أعين تأتى اليه بكل الأخبار فيسـتغلها أمهر استغلال ، لم يقف عنـد الدين والولاية والصوفية ، بل مد نفوذه الى الشئون السياسية والادارية والعسكرية يحلم فلا حد لحلمه ، ويبطش فلا حد لبطشه سمى (مستشار الملك) و (حامى العشابين) استمال كثيرا من الامراء والوجهاء ، والأعيان والعلماء والأدباء ، فكانوا عونا له على كل ما أراد ، يبطش بهم حيث يريد البطش ، ويؤلف بهم الكتب حين يريد شهرة العلم ؛ وينظم بهم القصـائد حين يريد الأدب والشعر ! الى كرم وسماحة وحسن حديث !! .

الدنيا كلها يجب أن تسخر لشخصه ، وان تخضع لأمره ، والحق ما أتى من طريقه ، والباطل ما أتى من طريق غيره ، عدو كل اصلاح ، وخصيم كل حر ، كم له من ضحايا فى السجون ؛ وفى أعماق البحار ، وفى ذل الفقر ، وفى بؤس النفى . تتملقه الامراء وتهابه العظماء ، وكم أنفذ أمره وأبطل أمر السـلطان ؛ وكم تدلل عـلى عبد الحميـد فاسترضاه : وبالـغ فى الطلب فأوفاه » (٢) ، ولا يلومنا القراء على ما أطلنا فى تاريخ هذا الدجال الكبير

(١) انظر ماقاله قبل ذلك ابراهيم المويلحى

(٢) أى سمح له به كاملا .

والطاغوت الخطير ، لأنه قد اقترف من الجرائم والمنكرات ما يعجز عن مثله ابليس ـ وهاأنت قد قرأت ما قاله فيه آنفا الدكتور أحمد أمين رحمه الله ، وما قاله ـ قبله ـ الكاتب الكبير ابراهيم المويلحى الذى عاش بالاستانة عشر سنين عرف فيها من أمر السلطنة العثمانية ما لم يعرفه الا القليل وضمن ما عرفه فى كتاب (ماهنالك) وانا نختم أوصاف هذا الدجال بوصف جامع لهذا الكاتب الكبير ذكره كذلك فى كتاب (ماهنالك) (١) اذ قال : « ان الشيخ أبا الهدى وضع الجميع فى تنور ابن الزيات (٢) » .

(١) ص ٤١ ٠

(٢) ابن الزيات وزير المعتصم روى أنه اتخذ فى أيام وزارته تنورا من حديد وأطراف مسامير محدودة الى داخل ، وهى قائمة مثل رؤوس المسال ، وكان يعذب فيه المصادرين ، وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال ، فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير فى جسمه فيجدون لذلك أشد الألم ، ولم يسبقه أحد الى هذه المعاقبة ، وكان اذا قال له أحد منهم : أيها الوزير ارحمنى : فيقول له : الرحمة خور فى الطبيعة ، فلما اعتقله المتوكل أمر بادخاله فى التنور وقيده بخمسة وسبعين رطلا (مصريا) من الحديد ، فقال يا أمير المؤمنين ارحمنى فقال له الرحمة خور فى الطبيعة ، كما يقول الناس فطلب دواة وبطاقة فأحضرتا اليه فكتب :

هى السبيل فمن يوم الى يوم ... كأنه ما تريك العين فى النوم
لا تجزعن رويدا انها دول ... دنيا تنقل من قوم الى قوم

المؤامرة الكبرى بالسيد جمال الدين
ليصرعوه فى الاستانة

علمت مما كتبناه عن أثر السيد جمال الدين فى ايران ــ أنه بعد أن تولاه شاه ايران المستبد بالأذى والقسوة البالغة ، وأن زبانيته المدججين بالسلاح لم يدعوه وهم يطاردونه حتى القوا به الى ما وراء حدود البلاد الفارسية فنزل بمدينة البصرة ــ وكانت يومئذ من أعمال الدولة العثمانية ــ وأنه بعد أن أبل من مرضه ــ أراد أن يسيح فى البلاد العربية التى غمرها الجهل والجمود ــ على أمل تهيئتها لقبول مدنية هذا العصر ــ ولكن السلطان الطاغى عبد الحميد ، أبى عليه ذلك وأخبر والى البصرة أن يمنعه ، فطلب الاذن بالسفر الى لندن فأبيح له ، واتخذ سبيله الى لندن وكان ذلك فى سنة ١٨٩٢ فقوبل هناك بحفاوة بالغة فى بلاد الانجليز وعظمائهم وأهل الرأى فيها ، وأقيمت له حفلات التكريم فى النادى الحر وفى غيره من الأندية وهيأت له هذه النوادى أن يخطب فى القوم ويحادثهم •

ولبث فى لندن ثمانية أشهر موجها كل همته الى محاربة الشاه بقلمه ولسانه داعيا الى تخليص الشعب الفارسى من الحكم الاستبدادى الذى كان يعانيه ، وكان ينذر الانجليز ويحذرهم من تدخلهم فى أمور بلاد فارس ، ومعاونتهم للشاه على ظلمه وكان يسعى من وراء ذلك الى أن يمهد السبل للأحرار فى ايران حتى ينالوا مطالبهم : وأن لا يعارضهم الانجليز اذا هم هبوا لقلب حكومة الشاه المستبدة ليستبدلوا بها حكومة دستورية ، وكان الانجليز حينئذ يؤيدون الشاه ويحسونه •

وقد كان السيد من المؤسسين للسجلة الشهرية (ضياء الخافقين) التى كانت تصدر فى لندن باللغتين العربية والانجليزية وقد علمت ذلك كله من قبل .

ولما رأى الشاه أن حملات السيد جمال الدين قد اشتدت عليه ، وقد تؤدى هذه الحملات الى اقتلاع جذوره والقضاء على سلطانه ، لجأ الى

قريبه فى الطغيان السلطان عبدالحميد مستغيثا به لينجيه من بأس السيد جمال الدين ومطاردته بأية حيلة فاستجاب السلطان رجاء الشاه وجمع كيده للقضاء على السيد جمال الدين بأية وسيلة فاستعان بقرينه ومستشاره فى الطغيان والغدر أبى الضلال لكى يحتال على السيد جمال الدين حتى يجذبه الى الاستانة ، ثم يقضى فيها عليه ، وعهد اليه بارتكاب هذه الجريمة النكراء ولم يكن اقتراف مثل هذه الجريمة غريبا فى هذا الزمن بل كانوا يرتكبونها كل يوم مع الأحرار بغير مبالاة ولا حساب لأحد .

ولم يلبث السلطان عبد الحميد أن وجه الى السيد جمال الدين ـ وهو فى لندن كتابا (خلابا) من قلم شيطانه أبى الضلال وأرسله اليه على يد رستم باشا السفير التركى فى لندن فاعتذر السيد عن قبول الدعوة رغم ما بذل رستم باشا من الرجاء لدى السيد فى سبيل اقناعه ، وبعد أيام جاء كتاب آخر من السلطان الى السيد جمال الدين وكان أكثر من الكتاب الأول مداهنة ، ومعه كتاب آخر الى رستم باشا يحتم عليه أن يسعى لدى السيد فى اقناعه ، ومما جاء فيه أن « جلالة السلطان لا يقبل له عذرا ، فى عدم اقناعه » لكى يقابله ثم يعود اذا شاء وأنه منتظر الافادة تلغرافيا (١) .

وخدع السيد رحمه الله ، لأمر يريده الله ، وكان طيب القلب سليم الصدر ، ليس بخب ولا يعرف المكر السيء الى قلبه سبيلا ، واستجاب وأسرع السفير فأرسل برقية الى الاستانة هذا نصها « انه ملب دعوة صاحب الجلالة العثمانية على أن يعود الى أوروبا عقب الحظوة بالمقابلة » (٢) .

وغادر السيد لندن الى الاستانة وكان ذلك فى آخر عام ١٨٩٢ .

ولم تكن هذه الزيارة هى الأولى فقد سافر الى الاستانة مرة أخرى فى عهد السلطان عبد العزيز كما ذكرنا وكان ذلك عام ١٨٧٠ وجرى له فيها من رجال الدين ماجرى مما وصفه من قبل الاستاذ الامام محمد عبده ثم خرج منها مرغما الى مصر .

ولما وصل السيد الى الاستانة فى هذه المرة كان فى انتظاره الياور السلطانى فسأله عن حقائبه ليحملها ، فقال له السيد : أما حقائب الكتب

---

(١) ص ٢٥ من خاطرات جمال الدين .
(٢) ص ١٥ من رسالة جورجى كوتس .

فها هنا ! وأشار الى صدره ، وأما حقائب الثياب فهاهى ، وأشار الى جبته.

وقد كان السيد يقول لاصحابه : انى كنت أول عهدى بالنفى أستصحب جبة ثانية ! فلما توالى النفى صرت أستثقلها ، وأكتفى بالتى ألبسها ، الى آن تخلق ثم أستبدل بها غيرها .

وبوصول السيد الى الاستانة تكون المؤامر التى دبرها السلطان الغاشم وهامانه الدجال قد نجح قسم منها وذلك بدخوله القفص ووقوعه فى الفخ (١)، اما القسم النهائى من هذه المؤامرة وهى القضاء عليه فستراه قريبا .

الأسباب العميقة لهذه المؤامرة

لم تكن دعوة السلطان عبد الحميد للسيد جمال الدين من أجل حماية الشاه من بأس السيد فحسب ، كما يبدو فى ظاهر الأمر ، وانما كانت لأسباب أخرى أبعد من ذلك وأعمق ، ذلك أن السلطان عبد الحميد كان يخاف على نفسه من أن يناله من لسان السيد وقلمه مثل ما نال الشاه ؟ فيؤدى الى خلعه وأن ينقلب الحكم فى بلاده من استبدادى الى شورى وهذا أمر بديهى ، وبخاصة بعد أن عرف جهاد السيد فى لندن وغيرها ضد شاه ايران ، وذلك فى خطبه فى المجتمعات ومقالاته التى كان يكتبها بحروف من نار فى صحيفة (ضياء الخافقين) وسواها من الصحف .

ولا ريب فى أن السلطان قد مس قلبه لفح من الرعب والفزع من هذا كله وأخذ هو وشيطانه يقدرون ثم يدبرون فى قطع الطريق على دعوة السيد من أن يصل لظاها الى السلطان فتحرقه ، ومما زاد السلطان رعبا على رعب أنه خشى أن ينضم السيد الى جمعية (تركيا الفتاة) فيكون لها منه قوة عظيمة فيزيد ذلك من قوتها ، وتقوى فى جهادها . وبخاصة بعد أن علم أن السيد وهو فى باريس قد اجتمع بأقطابها وانهم قد أطلعوه على أغراض جمعيتهم وأفضوا اليه بسر دعوتهم . وأنه قد أشار الى ذلك فى بعض مقالاته فى العروة

(١) قبل مصرع [illegible] السيد فى سنة ١٨٩٠ [illegible] فى اسار مموه بالذهب .

الوثقى وانهم يعملون على قلب نظام الحكم التركى والتخلص من استبداد السلاطين الغاشمين ، وان السيد قد حبذ دعوتهم وشجعهم فى جهادهم ، لأن اغراض هذه الجمعية (١) مما يتفق ولا ريب مع أغراضه التى قضى حياته فى سبيل الوصول اليها وقد بلغ من رضاه عن هذه الجمعية وتشجيعه اياها أن نوه بها وسماها (بالجمعية الصالحة) وذلك فى مقالة (القضاء والقدر) ، التى نشرت بصحيفة العروة الوثقى التى كان يصدرها مع الأستاذ الامام محمد عبده فى باريس اذ وصف أعضاءها بأنهم « عصبة الحق » التى كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع وقال : وانا نرى عدد هذه الجمعية الصالحة يزداد يوما بعد يوم ، نسأل الله تعالى نجاح أعمالها ، وتأييد مقصدها الحـق ، ورجاؤنا من كـرمه أن يرتب على حسن سعيها أثرا مفيـدا للشرقيين عمـوما والمسلمين خصوصا » (٢) .

ولم يكن يخفى على السلطان وهامانه ما ينشر فى جريدة العروة الوثقى ـ ولا فى غيرها وبخاصة كل ما يتصل بهذه الجمعية ـ ولا جرم آن مثل هذا القول يغضب السلطان عبدالحميد غضبا شديدا .

هذا ولا تنس بعـد ذلك كله ما صنعه جمـال الدين من قبل فى مصر وجهاده ضد اسماعيل ، حتى خلع ـ وانه كان يدعو فى عهد توفيق باشا الى الحكم الدستورى الذى يمقته السلطان عبدالحميد ويحاربه ـ وأنهم من أجل ذلك قد نفوه عن البلاد المصرية ـ بله تاريخه الطويل فى جهاده ضد الحكام المستبدين وشيوخ الدين الجامدين ، والدجالين الخرافيين ، هذه هى الأسباب الحقيقية التى دفعت السلطان الغاشم عبد الحميد الى اجتذاب السيد جمال الدين الى الاستانة .

(١) جمعية تركيا الفتاة هذه الفها احرار تركيا الذين دعبوا فى اوربه فى عهد السلطان عبد العزيز ليحاربوا طغيان الظلم فى بلادهم ، وكان على رأس هؤلاء الاحرار مصطفى فاضل المصرى ابن ابراهيم باشا ـ واخو اسمعيل باشا وكان وليا للعهد بعد اخيه اسماعيل ـ ولما استطاع اسماعيل باشا ـ بما بذل من الأموال الطائلة لدى الحكومة العثمانية فى سبيل تغيير نظام توارث العرش وجعله فى اكبر الاولاد لكى يكون ابنه توفيق بعده ـ نقم مصطفى فاضل هذا من حكومة السلطان عبد العزيز التى ساعدت اسماعيل وسير فى تغيير توارث العرش فى مصر وما لبث ان انضم الى أحرار تركيا الناقمين من الحكم الاستبدادى فى بلادهم وعاونهم بنفوذه وماله حتى كانوا يسمونه (ابو الاحرار) .

(٢) ص ١١٦ و١١٧ من العروة الوثقى وص ٢٦٧ ج ٢ من تاريخ الأستاذ الامام وص ٣٨٨ و٣٨٩ من خاطرات جمال الدين .

ختـــام المؤامـــرة
ومصرع السيد جمال الدين

بعد أن بينا لك الأسباب القريبة والبعيدة لاصطياد السيد جمال الدين بتلك المؤامرة اللئيمة الفاجرة التى تولى كبرها سلطان تركيا عبـد الحميد الغاشم ومستشاره الخاص اللعين أبو الضلال ــ نأخذ فى اتمام الـكلام عنها بعد أن وقع السيد فى شبكتها ، وأحكم المجرمون حياكتها .

وسندع الكلام فى ذلك الى غيرنا من الثقاة الأعلام حتى لا يرمينا أحد بأننا نتبع الهوى فيما نكتب ، وسـنتوسع فى نقـل شهادات العـدول لأن الأمر خطير أى خطير ويجب أن تتجلى حقيقته للناس ، لا فى عصرنا فحسب ، ولكن فى جميع العصور التالية آية مبصرة ، وحجة قاهرة على غدر سلطان للمسلمين غشوم ، برجل وهب حياته لخدمة الحق والدين .

ونبدأ بايراد كلام صديق مخلص للسيد لازمه فى آخر حياته وشـهد بنفسه ما أصـابه من طغيان هذا السلطان وحاشـيته وكان بجـواره عند احتضاره وهو الذى نعاه الى العالم ــ وهو الأستاذ جورجى كوتش .

قال كوتش ما ملخصه (١) :

بعد أن نزل السيد فى المنزل الذى هيىء له ببستـان طاش استطاع أن يدرك ما يدبره فى الخفاء السلطان وشريك السوء أبو الهدى من الدسائس ، وكذلك أدرك ما حول السلطان من فساد .

ولما لقى السيد السلطان لاول مرة حدثه السلطان وقتا طويلا فى سياسة أوروبا عامة وسياسة الشرق خاصة .

(١) [illegible]

وقد بين له أن الغرض من دعوته انما هو الاستعانة به على نهضة بلاده

الخديوى عباس فى الآستانة

وفى ذلك العهد جاء الى الاستانة عباس باشا الثانى خديوى مصر ليعرض على السلطان مسألة تركة الأمير حليم باشا التى يرجع نصيب منها بمقتضى وصية المتوفى الى علماء الأزهر على أمل استصدار أمر بحسم الخلاف ولكن ورثة الامير حليم عارضوا فى ذلك وقدموا الى السلطان ٢٥٠ ألفا من الجنيهات ولابى الهدى ١٥ ألفا من الجنيهات وبذلك خاب الخديوى فى

مقابلة الخديوى عباس للسيد جمال الدين

ورغب الخديوى عباس فى مقابلة السيد ليتعرف به ويحادثه وكان كل أحد فى هذا العصر يتمنى ذلك ويسعى اليه ــ وطلب من السلطان الاذن له بهذه الزيارة فلم يأذن ! ولكنهما انتهزا بعض الفرص وتلاقيا ؛ وسر الخديوى من هذه المقابلة (١) سرورا عظيما .

كيد أبى الهـدى

وتنسم أبو الهدى ريح هذه المقابلة فوسوس الى السلطان وأنفى فى

(١) روى أحمد شفيق باشا فى كتابه مذكراتى فى نصف قرن فى الصفحة ١٩٣ الجزء الثانى أن الخديوى عباس حلمى الثانى لما زار الآستانة فى سنة ١٨٩٣ أول مرة بعد ولايته كان شديد الرغبة فى مقابلة السيد جمال الدين [illegible] يسمع عنه فى مصر ، فأرسل اليه مصطفى [illegible] المصرى لتحديد موعد [illegible] السيد جمال الدين أن هذه المقابلة لن تكون الا [illegible] الخديوى [illegible] !!
وذات يوم بينما كان الخديوى [illegible] حول [illegible] فى [illegible] السيد [illegible] نفسه ، ومكثا نحو ساعة يتحدثان [illegible] السيد جمال الدين وقال له :
[illegible] تجعلنا [illegible] قائلا :
ان الخلافة ليست [illegible] "
[illegible] الخديوى [illegible] مرة أخرى .

روعه أن جمال الدين وعبدالله نديم يحاولان نقل الخلافة الى عباس حلمى (١) وكان قبل ذلك قد اقنع السلطان بأن للسيد من النفوذ ما يجعله خطرا يهدد حياته وحكومته وبخاصة عندما رأى السيد يتصل بروابط وثيقة من العلماء وكبار الدولة فى فرنسا وغيرها من بلاد أوروبة . وقد كان ذلك مما يغيظ أباالضلال بصفة خاصة فتأثر السلطان ولم يلبث أن استدعى السيد جمالالدين وقال له : هل تريد أن تجعل الخلافة عباسية ؟ فنفى له السيد ذلك بشدة ، وعلى أن السلطان قد أظهر اقتناعه فان قلبه ظل يغلى بالموجدة ضد السيد جمال الدين .

وبعد سفر الخديوى الى مصر استدعى السلطان الشيخ ظافر وهو امرؤ ذو عفة ووقار وأمر وهو محنق أن يقطع كل صلة بين السيد جمالالدين، والسيد عبدالله نديم لأنهما يعتبران شؤما على دولته وكان الخديوى وهو فى الاستانة قد استدعى السيد عبدالله نديم اليه مرارا وكان يسر بلقائه وعند عودة الخديوى عباس الى مصر لازمه السيد عبدالله نديم الى مضيقالدردانيل (جناق قلعة) وكان جواسيس السلطان يحصون على السيد جميع حركاته وسكناته ويقدمون له تقاريرهم بذلك الى السلطان .

ولما اشتدت السعايات ضد السيد روقب منزله مراقبة شديدة وأحيط بالحراس مخافة أن يفر !وكان معه السيد عبدالله نديم وصاحبه المصرى (جورجى كوتشى ، مؤلف هذه الرسالة) والهندى محمد صديق خان والدكتور غباره اليهودى وكان عبنا من يلديز على السيد جمال الدين .

---

(١) لما قام أبو الضلال بسعاية لدى السلطان بأن السيد جمال الدين والسيد عبد الله نديم قد اتفقا على نقل الخلافة الى عباس حلمى عزز هذه السعاية ببيتين من الشعر بثهما فى المدينة لكى يصل خبرهما الى السلطان وأرجفوا بأن السيد قد أنشدهما للخديوى وهما :

شيد الخلافة فى بنى العباس ... عباس لكن بغيته السفاح
ولانت خير مليك ستشيدها ... دلسر يا عباس يا صفاح

ولم يكن السيد عبد الله نديم يسمع هذين البيتين حتى عارضهما ببيتين على لسان أبى الهدى وهما :

هى الخلافة رحوها وترجونى ... فقد تربع فيها من هو دونى
ياغوث يا خد قد آن الأوان بنا ... فأين وعدكم فى جان شيحون

وجان شيحون هى بلد أبى الضلالة وكان من غروره يطمع فى الخلافة الاسلامية ويقول انه أولى بها ، كما قلنا آنفا .

وقد بلغ من نكايتهم بالسيد ، أن أمر السلطان بتفتيش بيته على اعتبار أن به ديناميتا ، فعجب السيد وغضب لهذه الاعمال المشينة وأدرك لوقته أنها من آثار طباع السلطان الفاسدة ! وارســـل مذكرة الى جميع الســفراء فى الاستانة يبلغهم بما فعل السلطان مع انه قد أصبح مراقبا من قبل الخليفة .. وطلب الاذن بالسفر من البلاد مرارا فلم يجب الى طلبه وحصـــل مرة على جواز سفر على اعتبار أنه من رعايا الأفغان ، فأحدث هذا الأمر شغبا لا يخلو من خطر ! وما كاد السلطان يعلم بذلك حتى سارع الى ارسال أحد أمنائه فائق بك الذى اعتذر الى السيد معلنا أن السلطان لم يعلم بتلك الوقائع .

وفى الغد قابل السيد السلطان مقابلة خاصة فأظهر له السلطان أســـفه وأكد له أن حاشيته هى التى سولت له أن يصنع ما صنع ! وانه يمكنه أن يثق بأنه سيكون دائما على وفاق معه (١) .

قتل شاه ايران

وتكلم بعد ذلك كوتشى عن اغتيال شاه ايران فى أول مايو ١٨٩٥ مما ندع تفصيل هذا الاغتيال الى الامير شكيب ارسلان حتى لا نطيل الكلام ثم تحدث كوتشى عن اثر اغتيال الشاه فقال :

كان لهذا الخبر المشئوم (٢) وقع عظيم بين أرجاء البلاد ، وعلى أثر ذلك وصلت الى محمود خان سفير فارس فى الاستانة البرقية التالية :

« تلميذ جمال الدين ميرزا محمود خان الكرمانى ـــ قتل الشاه الآن فى جامع عبد العظيم » ، فجزع رجال السفارة كلهم جزعا شديدا وقصد السفير محمود خان الى قصر يلدز فعرض البرقية على السلطان صائحا « جمـــال الدين قاتل الشاه » فجزع الســـلطان هو الآخر جزعا شـــديدا وقد طلبت الحكومة الفارسية أن يسلم اليها جمال الدين ولكن السلطان لم يسلمه .

واغتنم أبو الضلال هذه الفرصة الســانحة فائتمر مع الصدر الأعظم خليل رفعت باشا وأرسلوا بواسطة أحد الجواسيس برقية الى البلاد الاجنبية

---

(١) فى رواية أخرى أن السلطان قبله ووقف له لا يفرق بينه وبينه الا الصدر ثم انزله فى زورقه الخاص الذى يسير به فى بحيرة يلدز . وعد ولا ريب من سلامة قلب السيد رحمه الله .

(٢) أى قتل شاه ايران .

بأن الجناية من تدبير جمال الدين ليكرهوا الدولة العثمانية على تسليمه الى الحكومة الفارسية .

ولما لم يسلم السلطان السيد جمال الدين الى الحكومة الفارسية حول أبو الضلال وجهته الى طريقة أخرى فى الكيد لجمال الدين حتى ينكل به ، ولم يكن يطيق صبرا على تلك الحال فهو فى شغل شـاغل دائما بما يوصله الى هلاك جمال الدين وأنصاره .

مصرع السيد عبد الله نديم
قبل مصرع السيد جمال الدين

وأول من أنزل به كيده باتفاق مع السلطان هو السيد عبدالله نديم(١) ، وكان السلطان قد قضى قضاء مبرما لا مرد له باهلاك عبدالله نديم ــ من يوم أن اتهم مع السيد جمال الدين بانهما يأتمران مع الخديوى عباس على تدمير تركيـا وخلع السلطان واعطاء الخلافة الى الخديوى عباس ــ والفتك بالاحـرار شىء هين فى الاستانة ــ والسلطان عبد الحميد ممتاز فى ذلك ــ وبعد ذلك تلطف السلطان فى دعوة عبدالله نديم فاضطر الى اجابة الدعوة ــ والدخول فى القصر ذى الاسرار « قصر يلدز » وهناك على ما جرت به عادتهم !! أهدوا اليه قهوة الساعة الحادية عشرة .

وبعد أيام شعر عبدالله باعتلال مريب لم يدرك كنهه الاطباء ، فأوفـد السلطان أطباء .. وهم شركاؤه فى الجريمة ليعالجوا المريض ! وفى الحقيقـة

---

(١) هو الكاتب [illegible] و الخطيب المصقع فى ثورة عرابى و محرر المشهور لجريدتى التنكيت والتبكيت و[illegible] [illegible] ترفيين [illegible] سنة ١٨٩١ فذهب الى [illegible] وبعد موت توفيق باشا سنة ١٨٩٢ عفى عنه الخديوى عباس وورد الى مصر فانشأ جريدته المعروفة باسم (الاستاذ) ولسدتها على المحتلين فسبب حكومتى الانجليزية والفرنسية من الخديوى عباس أن ينفيه حتى لا يحدث فى نفوس الناس [illegible] . ويسبب خطرا جديدا فسافر الى يافا [illegible] دعاه السلطان عبد الحميد الى [illegible] فى الاستانة سنة ١٨٩٤ لكى يقضى نحبه مع استاذه السيد جمال الدين الافغانى ويـفا [illegible] [illegible] [illegible] تدعه لندوته لعصابته فحتى [illegible] يبير فيها مبادئه ومبادىء أستاذه التى تدعو الى الحرية والتخلص من الحكومة الاستبدادية التى يمثلها الطاغية عبد الحميد .

ليعاجلوه فقالوا له فى تقريرهم انه مصاب بسل فتاك ولكن لم يوافقهم على ذلك أطباء آخرون وقرروا ان الجسم يضرب الى الزرقة يوما فيوما !!

وكان السيد جمال الدين يرغب فى نقل عبدالله نديم الى المستشفى الالمانى ليكون أقرب الى حسن العلاج ، ولكن السلطان لم يأذن بذلك مخافة ان يكشف التشريح عن الداء الدفين فيفتضح السر .

السيد عبدالله نديم يموت بالسم لا بالسل

وما هى الا أيام حتى مات عبدالله نديم فى العاشر من أكتوبر سنة ١٨٩٦

ولما علم صاحب الجلالة السلطان !! بموت عبدالله نديم أسرع بارسال أحد رجال القصر ليستولى على مؤلفات السيد عبدالله نديم ، ولكن لحسن الحظ كانت هذه المؤلفات قد وصلت منذ أيام الى يد صديقه جورجى كوتشى المصرى ومنها كتاب المسامير التسعة (١) .

هذا هو السبب الحقيقى فى موت السيد عبدالله نديم وقد ضل المؤرخون جميعا فى هذا السبب فقالوا : انه مات بالسل !

السعى فى مصرع جمال الدين

ومضى جورجى كوتشى فى بيان المؤامرة التى أودت بالسيد جمال الدين ونحن نختصر كلامه هنا :

"ازدهى أبو الضلال بنجاح مؤامراته بقتل عبد الله نديم . وظفر برضى مولاه الجليل الذى كافأه ولا ريب عن سعة ؛ ثم جعل ينتظر كالجلاد بفارغ الصبر أن يلقى السلطان الى خادمه الأمين الغادر

---

(١) وقد نشر هذا الكتاب .

مشروع القضاء على جمال الدين ـ وكانت المؤامرة الجديدة تحتاج الى فضل دهاء لما كان عليه جمال الدين من الحذر الدائم ولذلك كان أبو الضلال مهتما دائما بماذا يصنع ليوقع جمال الدين فى الفخ ! وكان أول شىء فعله للبدء فى تنفيذ مؤامرته أن حمل السلطان على اعتقال ٤٣ تلميذا من تلاميذ المدارس الحربية كانوا يغشون مجلس جمال الدين ليسمعوا تعاليمه المثمرة فنفى أغلبهم ولم يوقف لسائرهم على أثر (١) .

تنفيذ المؤامرة

لم يمض قليل من الزمن بعد مصرع السيد عبدالله نديم حتى شكا السيد جمال الدين ألما فى أسنانه فوصف الدكتور غباره اليهودى (٢) الذى كان جاسوسا للقصر على السيد ـ ومتصلا بخدمته ـ علاجا يتبعه ولم يمض غير قليل حتى تزايدت الآلام الى حد لم يطق عليه جمال الدين صبرا .. وقد التمس السيد جمال الدين من السلطان أن يؤذن له بالسفر الى أوروبة عندما اشتد الألم لكى يعالج هناك ولكن لم يصرح له وبناء على تقرير جميل باشا طبيب القصر أمر السلطان ان تجرى له عملية جراحية وبعد أن عملت له اشتد عليه المرض يوما فيوما فطلب استشارة أطباء عسكريين فلم يقبلوا وبعد ذلك رؤى أن يعمل له عملية جراحية ثانية وجاءت العملية الثانية على ما يهوى السلطان فلم تفلح وبعد معاناة آلام شديدة مات السيد جمال الدين يوم الثلاثاء تاسع شهر مارس سنة ١٨٩٧ الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثالثة عشرة . ا.هـ كلام جورجى كوتشى ملخصا وانا نزيدك بيانا عن هذه الجريمة المنكرة فنقول :

---

(١) ذكر كوتشى فى رسالته أسماء من نفى منهم ولم نجد فائدة هنا من ذكرهم .

٢ أكد أكثر الايرانيين وغيرهم ممن ترجموا لجمال الدين انه لقح فى شفته بمادة سامة سببت له حكة مرضية تشبه السرطان وان ذلك من فعل أبى الضلال ولا يبعد أن ذلك كان من العلاج الذى أشار به هذا اليهودى وبخاصة ان الدواء كان عن طريق سواك يستاك به فليس ببعيد أن يكون الداء قد وصل الى السيد عن طريق السواك .

كتبت جريدة المؤيد الصادرة فى ٩ مارس سنة ١٨٩٧ أنها علمت ان صحة السيد فى غاية الانحلال وانه انقطع عن الكلام بالمرة اثر العملية الجراحية التى أجريت له أخيرا فقطع فيها جزء من لسانه ، واستؤصل الفك الأسفل

وقالت جريدة المقطم الصادرة فى ١٨ مارس سنة ١٨٩٧ نقلا عن صديق يوثق بروايته قال : رأى الطبيب هارون صباح الثلاثاء ٩ الجارى أن ساعة وفاة السيد قد دنت فقصد جورجى كوتشى صديقه الامين وأيقظه من نومه قائلا : أدرك السيد فقد حضرته منيته وقد تركته وهو يحتضر ، فأسرع جورجى أفندى الى منزله فوجده فى حالة النزع وليس عنده غير خادمه فلما رآه أمسك بيده وكلما اشتدت عليه الحشرجة حول عينيه اليه كانه يرتاح لوقوع عينيه على عينيه ثم أسلم الروح فى الساعة السابعة والدقيقة ١٣ (١) من صباح ذلك اليوم وأبلغ جورجى أفندى المابين خبر وفاته فى الحال فصدرت الارادة الى حسن باشا ضابط بشكطاش بضبط أوراقه وسائر كتبه فحضر ومعه بعض الجواسيس ودققوا فى البحث والتفتيش وضبطوا كل ما عنده (٢) وفى الساعة العاشرة — أى بعد وفاته بأقل من ثلاث ساعات . أمر بدفن جثته فى مقبرة بجهة نشان تطاش اسمها «شيخلر مزارلغى» فأرسل جورجى أفندى كوتشى صديقه الأمين الى أصدقائه يخبرهم بوفاته فلم يحضر أحد منهم غير سهل باشا ابن فضل باشا الملابارى ، وعلى قبودان راغب المصرى . ثم حمله أربعة من حمالى الاستانة على أكتافهم وسار بعض رجال البوليس خلفهم يخفرونهم ، ودفن كما يدفن أقل انسان فى بلاد آل عثمان . وقد ظل السيد رحمه الله خمسة أشهر يقاسى ألم السرطان وعذابه وقطع السلطان عنه راتبه منذ زمان فاشتدت عليه الحاجة والفاقة فى مرضه — ورجال المابين يشيعون أن السلطان يفيض عليه النعم ويغمره بالاحسان . هذا وا أسفاه مثل ، مما يعامل به الفضلاء اذا قضوا نحبهم فى دار السعادة .

---

(١) الحقيقة انه مات الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثالثة كما ذكر كوتشى .

(٢) قال جورجى كوتشى : وارسل السلطان على اثر موت جمال الدين بعض موظفى القصر ليستولوا على مؤلفاته ولكن لحسن الحظ كان جمال الدين قد أودعها صديقه الوفى جورجى كوتشى قبل موته بأيام وفيها وصيته المشهورة فى السياسة الاسلامية ، فأين هذه الوصية ؟

وقد علق السيد رشيد رضا على ما كتبته المقطم بقوله : وقد كتب الينا بعض العارفين ما يؤيد رواية المقطم فى الجملة وزاد أن جورجى أفندى انفق على السيد مائتى ليرة ، وأنه عندما دعى الى السيد وهو يحتضر قال « دخلت عليه وهو وحده يعانى سكرات الموت فاحترت ماذا أفعل ، والمحتضر يصلى أو يذكر : الله .. الله .. الله وأنا أدور من حول سريره حتى استأثرت به رحمة الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله « ص ٩٤ ج١ من تاريخ الامام » .

كيف كانوا يحصلون على المواد القاتلة

وقد كشف كوتشى القناع عن سر تحضير المواد السامة التى كانوا يستعملونها لقتل من يريدون التخلص منه ! فقال :

كانوا يولون بعنايتهم المعمل البكتريولوجى بنشان طاغ الذى يديره مسيو الدكتور نيكول لأن لهم اربا فى تلك الجراثيم التى لا غنى للسلطان عن استخدامها عند اللزوم .

وختم كوتشى رسالته القيمة بقوله :

فعال السلطان ومظـــالمه

بلغ السلطان بفعاله الفاجعة ومظالمه ودسائسه التىأدتالى اهلاك كثير من الناس منذ توليه العرش ــ حدا فى الأذى يسوغ لنا أن تقول حقا ، انه مصاب بالمرض المفـزع المسمى « وسواس الاضـطهاد » وجدير بقصر يلدز الذى يسكنه ان يسمى (القصر الاحمر)

آخر ما نطق به السيد وهو يجود بنفســه مصروعا

وقد روى الشيخ عبدالرشيد ابراهيم الرحالة الروسى المشهور (١) وكان من تلاميذ السيد قال :

---

(١) ذكر الاستاذ عبد القادر المغربى فى كتابه جمال الدين ص ٤١ ، انه لما قصد الى يلدز [illegible] السيد جمال الدين وجد لديه طائفة من اهل الفضل والادب منهم الفاضلان السلاوى و [illegible] رعيمـ [illegible] العرب فى عاصمة الترك فى العهد الحميدى . وكان من اشهر المترددين على الاستاذ يومئذ الشيخ عبد الرشيد ابراهيم الرحالة المسلم الروسى . وكان السيد يحبه لذكائه وحميته .

دخلت على الشيخ جمال الدين فى أخريات أيام مرضه ، فأشار الى بيده أن أدن ، فدنوت منه وكان لا يستطيع الكلام فأخذ قلما وورقا وكتب فيها :

« تشهد ياالله أن كلام محمـد قبل وفاته : أمتى ! أمتى ! وأنا أقول : ملتى ! ملتى ! » . قال عبدالرشيد وبعد ساعتين رجعت اليه فاذا بهم يقولون توفاه الله .. رحمه الله .

رثـاء الإمام لأستاذه وما قاله فيه

والدى أعطانى حياة يشاركنى فيها على ومحـروس (أخـواه وكانا يشتغلان بالزراعة) والسيد جمال الدين أعطانى حياة أشارك بها محمـدا وابراهيم وموسى وعيسى ــ صلوات الله عليهم ــ والأولياء القديسين ، مارثيته بالشـعر لانى لست بشاعر ؛ مارثيته بالنثر لانى لست الآن بناثر .. رثيته بالوجدان والشعور لانى انسان أشعر وأفكر .

السلطان عبدالحميد وهامانه بعد مصرع جمال الدين

أصبح السلطان عبد الحميد بعد مصرع السـيد جمال الدين ــ كما قال جورجى كوتشى « فى هـدوء كامـل وامن وافر خالصـا من هيبته الروحية ، تلك الهيبة التى لا تسل فى الحق ولا تلين ، .. ثم حشيته فى كانت لتتوارى ــ ابتهاجا وفرحا .

ولقد كان الظن ان الدجال ــ أبا الضلال ــ بعد أن انتشرت جريمتـه النكراء وتخلص من عدوه اللدود ــ قد خمدت جذوة حقده وأصبح بعـد أن غمره ابتهاجه وسروره لم يعد يفكر فى شيء نحو السيد جمال الدين ــ وبخاصة فان الموت عند كرام الناس يذهب بالاحقاد ولكن هذا الدجال لم

يكن قد فطر على خــلائق كريمة وانما خلقه الله وعصــارة اللؤم تجرى فى دمه يؤذيه أن يفعل ما يفعله كرام الناس ويقصر باعه عن أن يجرى معهم فى ميدان !! فلم يدع السيد جمال الدين يذهب الى ربه شهيدا شاكيا مما فعل الطغاة به بل أخذ يقذفه من تتن لسانه بكل نكراء ويصمه بكل عوراء ! فمرة يسميه (سرسرى) يعنى متشرد وأخرى يتهمة بالزندقة والمروق من الدين، وتارة يقول انه لم يكن أفغانيا وانما هو من أجلاف الشيعة ! وغير ذلك ممــا لا يصدر مثله الا من لئيم راضع .

كل ذلك وغيره مما افتراه واثاره انما يريد أن يغطى بغباره ضــوء الشمس الباهر ! ولكن هيهات ان يعفر هــذا الغبار حذاء الســيد جمال الدين .

ومما يثبت أن أبا الضلال هذا تجرى فى دمه عصارة اللؤم حقا أن شره وحقده على السيد لم يقنع بارتكاب هذه الجريمة الكبرى ــ انه مــا فتىء يلقى بقاذورات ضغنه على رفاته بعد مماته ــ والموت ــ عند كرام الأصل ــ يذهب بالأحقاد واليك مثلا مما كان يفتريه ــ كان السيد رشيد رضــا لا يبرح يشيد بذكر السيد وينقل من كلماته فى مجلة المنــار ، فلم يطق هذا الدجال صبرا على ذلك وأرسل اليه خطابا نضح فيه من اناء قاذوراته ذنوبا . ونستأذن القراء فى نشر فقرات منه :

« انى أرى جريدتك طافحة بشقائق المنافق جمال الدين الملفقة وقــد تدرجت به الى الحيثية التى كان يدعيها زورا ، وهو مارق من الدين كمــا مرق السهم من الرمية » . وهذا الخطاب الأسود مؤرخ ١٩ رجب ١٣١٦ هـ. أى بعد موت السيد بعام ومنشور بالصفحة الرابعة من المجلد من المنار . ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٩٨ كتبه محمد أبو الهدى .

بعض ما قيل فى هذه المؤامرة

وقد تكلم فى هذه المؤامرة الفاجرة كثير من كبار المؤرخين وصـــدور العلماء المحققين فنجتزىء هنا بما قاله عظماء منهم

قال الأمير الجليل شكيب أرسلان رضى الله عنه :

كان أول من سألت عنهم عند سفرى الأول الى أوربا سنة ١٨٩٢ هـــو السيد جمال الدين ، فقيل لى أنه قصد الاستانة ــ وأظهر لى التخوف على مصيره فى الاستانة هنرى روشفور الكاتب الفرنسى الشهير الذى عرفتــه وهو منفى بلندرة ، وكان روشفور يحب السيد جمال الدين ويحترمه ... وقد وصفه فى كتابه « مجـريات حيــاتى » بقوله : الســيد جمــال الدين الأفغانى من ســلالة النبى ، والمعدود هو أيضا أنه أشــبه بنبى ــ وأنتى شعرت نحو هذا الرجل بعاطفة الحب التى أجدها تربطنى بــكل داع الى ثورة أو مقاوم لسلطة ..

ولما ورد السيد جمال الدين الاستانة أنزله السلطان منزلا كريما فى دار ضيافة خصه بها فى نشان طاش .وأجرى عليه الأرزاق الوافرة ، وكان يدخل على السلطان ويصلى صلاة الجمعة معه ومضت مدة وجمــال الدين حظى عند السلطان .

كيد الصيادى للسيد جمال الدين

وما عتم الصيادى أن وجه عليه حملاته عند مولاه واندفع يتهم جمال الدين بالكفر والزندقة ، كما هو ديدن هؤلاء فى شأن كل من أرادوا تنقصه من الحكماء . وقد اطلعت على نسرة من جانب أبى الهدى الصيادى تناول ثلاثة من أعدائه وهم : السيد فضل العلوى الحضرمى أمير ظفار ، والشيخ ظافر المدنى الطرابلسى شيخ الطريقة الشادلية ، والسيد جمال الدين الأفغانى ، وثلاثتهم كانوا من المقربين الى السلطان وكان لكل منهم نصيب وافر من الشيخ ، والوقيعة فى هذه النشرة ، وحصة السيد جمال الدين كانت تهمة الالحاد .. وفساد الاعتقاد[1] وكان جواسيس السلطان يحصون عليه جميع حركاته وسكناته .

سبب وحشة السلطان منه

ان الذى أدى الى وحشة الخليفة منه استمراره فى مجالسه التى كانت تنتابها الناس دائما على القدح فى شاه العجم مما حمل سفير ايران على رفع الشكوى الى السلطان ، فاستدعى السلطان السيد جمال الدين وقال له : ان سفير العجم ترجانى أتكلم معك فى الكف عن الوقيعة فى الشاه ، وأنا بناء على أملى فيك وعدته بأنك تكف عنه .

وقد روى السيد رحمه الله هذه القصة عندما رجع من أوربا الى الاستانة فى أواخر سنة ١٨٩٢ فقال لى هكذا بالحرف : « فقلت للسلطان ما كنت ناويا أن أترك شاه العجم حتى أنزله فى قبره ــ ولكن بعد أن أمر امير المؤمنين بالكف عنه فلابد من طاعته » .

بمثل هذا كان المترجم يخاطب الملوك ولا يبالى موقع مثل هذا الكلام منهم مع أن أشدهم حذرا ووسواسا كان السلطان عبدالحميد ــ فلا عجب أن وقع فى نفسه شىء منه .

---

(١) وكان كذلك يرميه بالزندقة والكفر وقد حمل أحد المستشرقين من مصنفى [illegible] دائرة المعارف الاسلامية موسوعته : [illegible] وكان [illegible] والرسالة [illegible] يقول عنه انه [illegible] فى مصر .

وفي أحد الأيام قدم على جمال الدين رجـل من العجم بابي المذهب اسمه رضا آقا خان صادف أنه وجد مـع جمال الدين في حبس واحـد في قزوين عندما اعتقله الشاه فحصلت بينهما صحبة أكيدة ثم تفارقا عنـدما أخرج جمال الدين من الحبس ونفي الى بغداد ثم أخلي سبيل رضا آقا هذا ولما بلغه مجيء السيد الى الاستانة جاء يزوره فيها فسر به السـيد كثيرا ، وكان دائما يحادثه ويتكلمان على شقاء الأمه الايرانية بسوء ادارة سلطانها ناصر الدين . فقـال رضا آقا خان يوما : انه هو حاضر أن يفـدي نفسه لتخليص أمته ، فقال له جمال الدين : « ان كان كذلك فاذهب وافعـل » فذهب رضا آقاخان وبعد أشهر بينما ناصر الدين شاه في جامـع عبد العظيم في طهران اذ دنا منه هذا الرجل وقتله غيلة . وقال له : « بدى أز جمـال الدين » أي خذها من يد جمال الدين ، ووردت الأخبار بذلك الى الاستانة فأبدى جمال الدين مزيد سروره بهذا الخبر وشرع يقول : « تحقق الآن أن الأمة الفارسية لم تمت وأنهـا أمة لم تنقطع منها الآمال لأن الامة التي يقوم من أبنائها من يأخذ بثأرها ويفتك بالطاغي الذي على رأسها لا تكون قد فقدت جراثيم الحياة (١) .

وكان الجواسيس ينقلون الى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد ، فلم

---

(١) إن ما قاله الأمير شكيب هنا يناقض ما أوردناه من قبل من أن السيد في حديثه مع مراسل جريدة (الطان) الفرنسية المشهورة بالاستانة قد نفى نفيا باتا أن يكون له أية صلة في قتل الشاه ، وهاك سؤال هذا المراسل وجواب السيد عنه كما سبق نشره في كتابنا هذا

سأله المراسل : ما رأيكم فيما نسبه البعض اليكم من التحريض على قتل ناصر الدين شاه ؟ فأجاب السيد في حدة وغضب : إني لم أنزل الى هـذا الحد بأن ألوث يدي بالاشتراك في عمل دنيء وضيع كهذا ! فتبا لهؤلاء القوم وتبا لإفكهم » [illegible] بعد هذا .

وإذا كان للمؤرخ أن يرجح أحد الخبرين على الآخر فإنه يرجح ولا جرم حديث السيد مع مراسل جريدة الطان الذي أذيع في الجامعين حينئذ على خبر الأمير شكيب لأن السيد ولا ريب صـادق في حديثه هـذا مع مراسل الطان لأنه بفطرته وطبع نفسـه لنفسه على الصراحة والجراءة على أن يصرح بكل ما في نفسه حتى مع الملوك نفسيين والقسـرة المستبدين بغير خوف ولا وجل إنما يستحيل عليه أن يقول بلسانه ما ليس في قلبه .

ومن هو مراسل « الطان » ومن هم وراءه حتى يغير السيد طبيعته فيكذب ويخفي أمامه ما في نفسه ؟!

ثم إذا صح الخبر بأن السيد قد أظهر سروره حين أتاه النبأ بنعي هو وأمته من ظلمه وعسفه ما لقيه فهذا إذا صح لا شيء فيه ولا تثريب منه عليه أن هذا مما يتفق مع الجبـلة البشرية ولا يعد نقصا في أخلاق الإنسانية .

يشك عبدالحميد فى كون قتل الشاه كان بسبب جمال الدين ، وأنه ما زال وراء الشاه حتى (أنزله قبره) كما قال .

ويقال ان الشاه هو الذى بعث الى السلطان عبد الحميـد يرجو منه استقدام جمال الدين اليه ووضـعه تحت المراقبـة أمانا من شر غوائله ، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم أبى الهدى كما بينا .

ولما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضبا شديدا وأمر بتشديد المراقبة على السيد ومنع أى أحد من الاختلاط به الا بارادة سلطانية .

فأصبح السيد فى قصره محبوسا ـ ثم ان التضييق بلغ حده على السيد حتى أرسل الى فيس موريس مستشار سفارة انكلترا يلتمس منه ايصـاله الى باخرة يخرج بها من الاسـتانة ، فحضر فيس موريس اليه وتعهد له بما طلب ، واذ ذاك بلغ السلطان الخبر فأرسل اليه أحد حجابه يستعطف خاطره باسم الاسلام أن لا يرضى بمس كرامة الخليفة الى هذا الحد ، ولا يلتمس حماية أجنبية فثارت فى أنفه حمية الاسلام ، وبعد أن كان قد زم حقائبه عدل عن السفر وقال : مهما كان فليكن ولكن المراقبة عليه كانت لم تزل باقية ، وكل من أراد أن يشاهده فلابد له من اذن خاص .

كيف بدأت المؤامرة للتخلص من السيد ؟

وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر فى حنكه مرض السرطان ، واشـتد عليه ، فصدرت الارادة السنية باجراء عملية جراحيـة يتولاها قمبـورزاده اسكندر باشا كبير جراحى القصر السلطانى وكان مقربا جدا الى السلطان . فأجرى له العملية فلم تنجح ؛ وما لبث الا أياما قلائل حتى فاضت روحه رحمه الله وعفا عنه .

كيف نشأ هذا السرطـــان ؟

وهنا تقول الناس أشكالا وألوانا فى قضية هذا « السرطان » وهذه العملية الجراحية !؟ لقرب عهد المرض بحادثة قتل الشاه ، وما كان معروفا من دسائس عبد الحميد ؛ فقيل ان العملية لم تعمل على الوجـه اللازم لهـا عمدا . وقيل لم تلحق التطهيرات الواجبة فنيا بحيث انتهت بموت المريض

وحدثنى صديقى الكونت لاون أوستروروغ المستشرق العلامة أن السيد كان صديقه فدعاه اليه بعد اجراء العملية الجـراحية وقال له : ان السلطان أبى الا أن يتولى العملية جراحه الخاص ، وأنه هو رأى حالـه ازدادت شدة بعد العمليـة ، وأنه طلب منه أن أرسل اليه جراحا فرنسويا ، مستقل الفكر طاهر الذمة لينظر فى عقب العملية ، فأرسل اليه الدكتور لاردى وهو رجل لا يزال حيا (١) واقامته بجنيف من سويسرة فوجد أن العملية لم تجر على وجهها الصحيح ، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة ، وأن المريض قـد أشفى بسبب ذلك ، وعاد الى استروروغ ، وأنبأه بهذا الأمر المحزن ، وما مضت أيام حتى فارق جمال الدين الحياة .

وقال لى واحد ممن كانوا فى خدمة عبدالحميد ، وقد رويت له هذه القصة أنه كان هناك رجل عراقى اسمه جارح ، طبيب أسنان ، يتردد كثيرا على جمال الدين ويعاين له أسنانه ، وكانت نظارة الضـابطية قد اسـتمالت جارح هذا بالدراهم ، وجعلته جاسوسا على السيد فصار له عدوا فى ثياب صديق ــ قال لى صاحب هذه الرواية ــ فأردت مرة أن أمنـع جارحا من الاختلاط بجمال الدين فأشار الى ناظر الضابطية اشارة خفيفـة بأن أتركه ، وفهمت من الاشـارة أنه يذهب الى هناك ويطبب أسـنان السيد بعلم من النظارة ، والسيد لا يعلم بشىء من ذلك ، ويستخلص جارحا ويثق به ، قال فلا أعلم ماذا فعل جارح بواسطة طبه وثقة جمال الدين به وقصارى ما أعـلم أنه لم تمض عدة أشهر على حادثة الشاه حتى ظهر السرطان فى فك السيد من الداخل وأجريت له عملية فلم تنجح ، وجارح هذا ملازم للمريض ، وبعـد موته كنا نراه دائما حزينا كئيبا كاسف البال واجم الوجه خزيان ، مما جعلنا نشتبه أن يكون ذايد فى افساد الجرح بعد العملية أو فى توليد المرض نفسه من قبل بوسيلة من الوسائل ، فلما مات السـيد أخذ يعذبه وجـدانه على خيانته هذا الرجـل العظيم الذى كان وثق به ــ والذى أجزم به . أنه كان جاسوسا على السيد والله من وراء العلم .

---

(١) كان ذلك فى سنة ١٩٢٣ .

مقابلة الأمير شكيب أرسلان للسيد بالآستانة

يقول الأمير شكيب أرسلان :

لما عدت من أوربا الى الاستانة سنة ١٨٩١ ذهبت اليه فى نهار وصولى فاستقبلنى برا وترحيبا ولزمته مدة الى آن اضطررت الى السفر الى وطنى سورية ففارقته آسفا .

فساد اخلاق المسلمين

وقال لى احدى المرار : « قد فسدت أخلاق المسلمين الى حد أنه لا أمل بأن يصحوا ، الا بأن ينشأوا خلقا جديدا ، وجيلا مستأنفا فحبذا لو لم يبق منهم الا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر ، فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسير بهم فى طريق السلامة » (١) .

وقال المؤرخ الكبير والقانونى الضليع عبد الرحمن الرافعى :

تواترت الروايات بأن جمال الدين مات شبه مقتول ، وتدل الملابسات والقرائن على ترجيح هذه الرواية فان اتهامه بالتحريض على قتل الشاه ، وتغير السلطان عليه وحبسه فى قصره ، ووشايات ابى الهدى الصيادى ، مما يقرب الى الذهن فكرة التخلص منه بأية وسيلة . هذا الى أن الغدر والاغتيال كان من الأمور المألوفة فى الاستانة وأصدق الروايات وأحقها بالثقة فيما نعتقد ما ذكره الأمير شكيب أرسلان فى كتاب حاضر العالم الاسلامى (٢)

ومما يؤيد رواية الأمير شكيب أرسلان كذلك أن كثيرا من أصدقاء جمال الدين من الفرس ذهبوا الى أن المرض الذى سبب موته ولو أنه شابه السرطان مشابهة سطحية ، الا أنه فى الواقع كان نتيجة لتسمم سرى الى الشفة من سواك مسمم .

---

(١) اختصرت هذه الترجمة من كتاب حاضر العالم الاسلامى من ص ٢٨٩ الى ٣٠٠ ج ٢ الطبعة الثانية الصادرة سنة ١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م .

(٢) ص ١٤٨ ج ٢ عصر اسماعيل .

الأستاذ الإمام محمد عبده
ينعت السلطان عبد الحميد بأنه
أكبر مجرم سفاك فى هذا العصر

(١) قال مستر بلنت فى مذكراته « مارس سنة ١٨٩١ » وينعت الشيخ محمد عبده السلطان عبدالحميد بأنه أكبر مجرم سفاك فى هذا العصر ، وانها لكلمة قاسية يذكرها عالم دينى كبير عن خليفته والواقع أنه سعى لتوطيد سلطانه عن طريق الاخذ بأردأ أساليب الطغيان الشرقى فقد قضى على كل حركة فكرية نشأت فى الامبراطورية وهى فى المهد .. وليس هذا فحسب ؛ بل انه استغرق استغراقا متعاظما يوما بعد يوم فى جو من أحلام اليقظة الوهمية مؤكدا فى المحل الاول على مقامه الدينى كخليفة رجاء أن يبسط سلطانه من هذه الطريق على جميع المسلمين وانما كان السلطان عبدالحميد متأثرا فى ذلك كله بعصبة البلاط التى ما انفكت تلقى فى قلبه خوف المؤامرات والتى وفقت الى أن تسيطر عليه فكريا فى شخص « أبى الهدى الصيادى فقيه البلاط السورى الاصل أ هـ » لعنه الله .

وقد سئل جمال الدين وهو بالاستانة : عن الايمان : هل يزيد وينقص؟ فقال : اما الايمان فى القرى فلا يزيد ولا ينقص ! واما فى العاصمة فيزيد وينقص فى كل ساعة كايمان السلطان عبد الحميد الذى يحيط به هؤلاء الجواسيس .

وقال يصفه « ان هذا السلطان سل فى رئة الدولة »

الله حاكم عادل منتقم

على أن الله سبحانه وتعالى . وهو الحكم العدل ــ ليس بغافل عما يعمل الظالمون ــ فقد انتقم انتقاما شديدا ممن ائتمروا بالشهيدين السيد جمال الدين الافغانى والسيد عبدالله نديم فقتلوهما : فالسلطان الغشم المستبد عبد الحميد الذى نعته الاستاذ الامام بانه أكبر مجرم سفاك فى هذا

العصر قد عاجلته الثورة التركية فى سنة ١٩٠٨ فدكت صرح استبداده ، وقوضت أركان عرشه ، وخلعته من كرسى خلافته خلع النعل الخلق ، وشرب بالكأس التى كان يسقى بها الابرياء ، وصودرت أملاكه وأمواله التى كان ينهبها من الفقراء والاغنياء على السواء ولم تلبث الخلافة الاسلامية ان زالت من الوجود على أثره ، أما هامانه الباغى المجرم أبوالضلال فقد قطع الله دابره ، وطهر الارض منه ومن ذريته ، ذلك بأنه قد شاء سبحانه الا يعقب الا ولدا وحيدا اسمه توفيق أبو الضلال ورث عن أبيه غرائز السوء ورضع منه طباع الشر والبغى والطغيان ــ وأملى له الله حتى بلغ بدسائسه وخياناته وتنكيله بأحرار بلاد الأردن ــ والولد سر أبيه ــ منصب رئيس الوزراء بهذه البلاد ، وما كاد يصعد الى هذه القمة العالية حتى ألقت به الأقدار العادلة من فوق المئذنة فلم يخرج من الدنيا الا منتحرا !!

وكانت له ابنة وحيدة ورثت عنه شؤمه فلم تلبث بعده الا قليلا حتى لحقت به منتحرة كذلك ــ وكان هذا بعد زواجها ! اما زوجها فقد لحقته من اجرام أبيها شرارة فمزقت جسمه القنابل الفتاكة .

وبذلك اجتث الله هذه الشجرة الخبيثة من فوق الأرض فأصبحت وما لها من قرار ــ وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

أثر جمال الدين فى تركيا

قبل أن نضع القلم فى هذا الفصل لابد لنا أن نثبت حقيقة أجمع عليها المؤرخون وهى ان السيد جمال الدين قد بذر من تعاليمه فى تركيا بذورا أثمرت ثمرتها الطيبة وكانت من الأسباب القوية فى تخليص العثمانيين من الحكم الاستبدادى وحصولهم على الدستور الشورى بعد أن خلعت سلطانها الغاشم عبدالحميد الثانى .

قال الكاتب الكبير تشارلز أدمس فى كتابه الاسلام والتجديد فى مصر : « .. ولما كان مقيما بالاستانة مهد بتهييجه المتوصل للحركة التركية الموفقة التى قامت سنة ١٩٠٨ .

وقال المستشرق الالمانى الكبير كارل بروكلمان فى كتاب تاريخ الشعوب الاسلامية : قصد السيد الى استانبول وكانت شهرته كعالم عظيم

قد سبقته الى هناك على الرغم من أنه لم يكن قد نشر أى كتاب ــ فاستقبل استقبالا وديا من قبل الحكومة والاوساط العلمية ــ هذه الاوساط التى استطاع ان يحدث فيها تأثيرا بعيــدا ، بما ألقى من دروس ومحاضرات فى الجامعة المنشأة حديثا ــ وقد نجح شيخ الاسلام فى اثارة الشك حوله كمفكر حر وتمكن من اقصائه عن العاصمة .

وقال المستشرق المنصف مستر بلانت :

عاد السيد الى مصر (من الاستانة) فى ظل هذا الاضطهاد الدينى ولكن بعد أن بذر بذور النقد التى أثمرت بعد عدة سنين ــ اذ جمع النــاس على المطالبة بالاصلاح الدينى ــ وهذا هو الجزء الدينى فى الحركة السياسية التى قدر ان تنتهى بالثورة التى قام بها مدحت باشا ســنة ١٨٧١ م وان ســعى العثمانيين فى تحويل حكومتهم الى دستورية فى بادىء الأمر ينسب الى شيء من تأثير جمال الدين فقد أقام فى عاصمتهم يحاورهم ويخطب فيهم .

ومدحت باشا هذا الذى ذكره مستر بلانت هو أبو الاحــرار فى تركيا وكان قد وضع القانون الاساسى (الدستور) العثمانى سنة ١٨٧٦ ولكن ما كاد البرلمان العثمانى يجتمع فى أوائل سنة ١٨٧٨ حتى ألغاه الســلطان عبد الحميد وأصدر أمره بنفى مدحت باشا وحنقه ورجع الحكم المطلق الى البلاد ولكن ما زال الاحرار من الترك يجاهدون فى سبيل الدستور العثمانى حتى ظفروا به سنة ١٩٠٨ .

كل ما يهمه فى هذه الحياة

بين السيد جمال الدين الافغانى رضى الله عنه كل ما يهمه فى هذه الحياة فقال : يهمنى أن أصل من كل الصــفات الى الطمأنينة القلبيــة فقط : انى استطعت فى حياتى ، ان قلت الحــق ! ولا أكتمه : لا رغبــة ولا رهبة ، بل جاهرت به ، وانى بلغت من الشجاعة مرتبة فعلت معها بعض ما أقول (١) .

وغرضه الأسمى فى حياته

أما غرضه الاسمى فى حياته فقد صرح به فى قوله (٢) :

(١) ص ٢١ من خاطرات جمال الدين .
(٢) ص ٨٢ ومابعدها من نفس المصدر .

رجعت الى أهل جرم الارض وبحثت فى أهم ما فيه مختلفون فوجدته (الدين) فأخذت الأديان الثلاثة ، وبحثت فيهـا بحثا دقيقا مجـردا عن كل تقليد منصرفا عن كل تقييد ، مطلقا للعقل سراحه .

فوجدت بعد كل بحث وتنقيب وامعان : ان الأديان الثلاثة : الموسوية والعيسوية والمحمـدية ، على تمام الاتفـاق فى المبدأ والغاية ، واذا نقص فى الواحد شىء من أوامر الخير المطلق ، استكملته الثانية .

واذا تقادم العهد على الخلق ، وتمادوا فى الطغيان ، وأسـاءت الكهان فهم الناموس أو أنقصوا من جوهره ــ اتاهم رسول بارفاد وتأييد فاكمل لهم ما أنقصوه ،وأتم بذاته ما أهملوه .

كان أمله أن يتحد أهل الأديان

وعلى هذا لاح لى بارق أمل كبير أن يتحد أهل الأديان الثلاثة مثل ما اتحدت الأديان فى جوهرها ، وأصلها وغايتها ، وان بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطا نحو السلام خطوة كبيرة فى هذه الحياة القصيرة .

ثم قال :

وأخذت أضع لنظريتى هذه خططا ، وأخط أسطرا ، وأحرر رسـائل الدعوة ، كل ذلك وانا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب وكثب . ولا تعمقت فى أسـباب اختلاف ــ حتى أهل الدين الواحد ــ وتفرقهم فرقا وشـعبا وطوائف ، ولكن لما علمت أن دون اتحاد أهل الأديان تلك الهوات العميقة ، وأولئك المرازبة ، الذين جعلوا كل فرقة بمنزلة (حانوت) وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة ورأس مال تلك التجـارات ما أحـدثوه من الاختلافات الدينية . والطائفيـة والمذهبية . على حد قول الشاعر :

قد يفتح المرء حانوتا لمتجره .. وقد فتحت لك الحانوت فى الدين

صيرت دينك شاهنا تصيد به .. وليس تفلح أصحاب الشـواهين

علمت أن أى رجل يجسر على مقاومة التفرقة . ونبـذ الاختلاف واثارة أفكار الخلق بلزوم الائتلاف رجوعا الى أصول الدين الحقة فذلك الرجل ،

هو هو يكون عندهم قاطع أرزاق المتجـرين فى الدين ، وهو هو فى عرفهم ، الكافر الجاحد المارق ! المخردق المهرتق المفرق الخ ..

ولما انتهى بى العلم الى ذلك انقلبت افراحى فى الخيال اتراحا ، ورجعت عن نظريتى ، والاخفاق ملىء اهابى وجبتى .

ثم جمعت ما تفرق من الفكر ، ولممت شعث التصور ، ونظـرت الى الشرق وأهله فاستوقفتى (الافغان) وهى أول أرض مس جسمى ترابها ثم (الهند) وفيها تثقف عقلى (فايران) بحكم الجـوار والروابط واليهـا كنت صرفت بعض همتى (فجزيرة العرب) من (حجاز) مهبط الوحى ، ومشرق أنوار الحضارة ومن (يمن) وتبابعتها وأقيال حسير فيها (ونجد) و (عراق وبغداد) وهارونها ومأمونها و (الشام) ودعاة الأمويين فيها و (الاندلس) وحمراؤها وهكذا كل صقع ودولة من دول الاسلام فى الشرق وما آل اليه أمرهم فيه اليوم .

فالشرق ! الشرق ! الشرق ! قد خصصت جهاز (دماغى) لتشخيص دائه وتحرى دوائه ، فوجدت اقتل ادوائه ، وما يعترض فى سبيل توحيد الكلمـة فيه : (داء انقسام اهليـه ـ وتشتت آرائهم واختـلافهم على الاتحـاد ، واتحادهم على الاختلاف فقد اتفقوا على ان لا يتفقوا ولا تقوم عـلى هذا لقوم قائمة .

الحكـومة الاستبدادية (1)

لما أخرج السيد جمال الدين من الاستانة مرغما فى زيارته الاولى لها ـ بكيد رجال الدين فيها وجاء الى مصر يحمل فى نفسه المتقدة غضبا ومقتا ، وبخاصة مما رآه هنالك من بغى وظلم وغدر الحكم الاستبدادى الذى كان يسود البلاد العثمانية حينئذ ، انبرى قلمه البليغ فحبر هذه المقالة الرائعة التى لم يكتب مثلها فى وصف الحكومات الاسـتبدادية . ولنفاسته وفلسـفتها وعلو أسلوبها ، رأينا أن نأتى بها هنا على طولها الا قليلا منها . ولا غرو فان السيد قد قضى حياته كلها يحارب ـ فيما يحارب ـ الظلم والطغيان فى أى

(1) نشرت هذه المقالة عندما اخرج السيد من الاستانة فى اول مرة سنة ١٨٧٠ م .

مكان — وكان دائما يسعى الى الحكومة الجمهورية العادلة قال رضى الله عنه تحت عنوان « الحكومة الاستبدادية » .

ان طول مكث الشرقيين تحت نير استبداد المستبدين الذين كان اختلاف أهوائهم الناشىء عن تضاد طبائعهم وسوء تربيتهم مع عدم وجود رادع يردعهم ومانع يمنعهم وقوة خارجية تصادمهم فى سيرهم ، سببا أوجب التطاول على رعاياهم وسلب حقوقهم بل اقتضى التصرف فى غرائزهم وسجاياهم والتغير فى فطرتهم الانسانية حتى كادوا ان لا يميزوا بين الحسن والقبيح ، والضار والنافع ، وأوشكوا أن لا يعرفوا أنفسهم وما انطوت عليه من القوى المقدسة والقدرة الكاملة والسلطة المطلقة على عالم الطبيعة ، والعقل الفعال الذى تخضع لديه البسائط والمركبات . ويطيع أمره النافذ جميع المواليد من الحيوان والنبات . وان امتداد زمن توغلهم فى الخرافات التى تزيل البصيرة وتستوجب المحو التام والذهول المستغرق بل تستدعى التنزل الى الرتبة الحيوانية ومداومتهم من احقاب متتالية على معارضة العلوم الحقيقية التى تكشف عن حقيقة الانسان وتعلمه بواجباته وما يلزمه فى معاشه وتبين له الأسباب الموجبة للخلل فى الهيئة الاجتماعية وتمكنه من دفعها والسعى فى اطفاء نورها بما ورثوه عن آبائهم من سفه القول وسخف الرأى والجد فى اضمحلال كتبها وضياع آثارها واستبدالها بما أوقعهم فى ظلمات لا يهتدون الى الخروج منها أبدا (١) .

كل هذه الأسباب تمنع القلم عن أن يجرى على قرطاس بيد شرقى فى البلاد الشرقية بذكر الحكومة الجمهورية وبيان حقيقتها ومزاياها وسعادة ذويها الفائزين بها وان المسوسين بها أعلى شأنا وأرفع مكانة من سائر أفراد الانسان بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هذا الاسم دون من عداهم

---

(١) استعمل استبدل هنا بما هو الشائع عند المتأخرين عامة . والذى فى القرآن العزيز أن الباء بعد استبدل وتبدل تدخل على المبدل منه لا على البدل فليتنبه له الكاتب .

فان الانسان الحقيقى هو الذى لا يحكم عليه الا القانــون الحق المؤسس على دعائم العدل الذى رضيه لنفسه يحدد به حركاته وسكناته ومعاملاته مع غيره على وجه يصعد به الى أوج الســعادة الحقيقية . ويصــده عن أن يرقم على صفحات الأوراق ما يكشف عن ماهية الحكومة المقيدة ويوضح عن فوائدها وثمراتها ويبين ان المحكومين بهــا قد هزتهم الفطرة الانسانية فنبهتهم للخروج من حضيض البهيمية والتــرقى الى أول درجات الكمال والقاء أوزار ما تكلفهم به الحكومة المطلقة ، وتطلب مشاركة أولى أمرهم فى آرائهم وكبح شره النهمين منهم الطالبين للاستئثار بالسعادة دون غيرهم . ولهذا اضربنا صــفحا عن ذكرها واردنا أن نذكر فى مقالنا هذا الحكومــة الاستبدادية بأقسامها فنقول :

ان الحكومة الاستبدادية باعتبار عناصرها الذاتية . وأقانيسها الحقيقية التى هى عبارة عن أمير أو سلطان ووزراء ومأمورى ادارة وجباية ، تنقسم الى ثلاثة أقسام .

(القسم الأول) منها الحكومة القاسية وهى التى تكون أركانها مع اتسامهم بسمة الامارة والوزارة والادارة والجباية شبيهة بقطــاع الطريق فكما أن قاطع الطريق يقطع طرق السابلة ويسلبهم أموالهم ومؤنهم وثيابهم التى تقيهم الحر والبرد وسائر مواد حياتهم ويتركهم فى البوادى والقفــار حفاة عراة جياعا تقطعت بهم حبال الوســائل ولا يلاحظ أن فيهم الهــرم والصغير والعاجز والضعيف الذين لا يســتطيعون التخلص من المهالك ولا يقتدرون على النجاة ولا يبالى بموتهم وهلاكهم عن آخرهم ولا تأخذه فى ذلك الشفقة والرحمة . كذلك هؤلاء الاركان يغتصــبون ضياع رعاياهم وعقاراتهم ويستولون على مساكنهم وبساتينهم وينتزعون بالضرب والحبس والكى وغيرها من أنواع العذاب ما بأيديهم من ثمرات اكتسابهم ويدعونهم فى مخالب المصائب معرضين للاسقام والآلام وأهدافا لســهام البلايا التى ترميهم بها عواصف الرياح الزمهريرية والسمومية ولا يخشون اضمحلالهم

وابادتهم بالكلية ومحق حياتهم بالمرة (١) بل يستبشرون بذلك كانما هم أعداؤهم ولا يشعرون انهم قواد السلطة وأساسها . ومن أفراد هذا القسم الحكومة الانكليزية (٢) والتيمورية وغيرهما من حكومات التتر كما تشهد بذلك التواريخ .

(القسم الثانى) الحكومة الظالمة وأولياء هذه الحكومة تماثل الاخساء والمترفين الذين يستعبدون أناسا خلقوا أحرارا ، فكما انهم يكلفون عبيدهم بأعمال شاقة وأفعال متعبة يجبرونهم على نقر الاحجار وخوض البحار وفلق الصخور وقلع الجبال وطى المفاوز وجوب البلاد فى صرة الشتاء وهجيرة الصيف ويؤلمون ابدانهم بالسياط اذا لجأوا آنا الى الراحة التى تجذبهم الطبيعة اليها ويحجبونهم بأشغالهم المستغرقة لأيام حياة هؤلاء المظلومين عن مزايا جواهر عقولهم المقدسة حيث لا يجدون فرصة من دهرهم للنظر فى الآفاق وفى أنفسهم كى يرتقوا من الاحساس البهيمى الى عرش الادراك الانسانى ويشاركوا أبناء جنسهم فى اللذائذ الروحية ويجتنوا ثمار عقولهم ليوازروهم بنتائجها من الصنائع البديعة والمخترعات الرفيعة فيسعدوا مع السعداء . ومع ذلك يحرسون حياتهم ويحرصون على استبقائها استيفاء للخدمة منهم بتقديم قوت من أردأ مايقتات به لسد الرمق وثياب خشنة رثة لتحفظهم من أظفار العواصف وبراثن القواصف فلا يكون حالهم مع سادتهم الا كحال البهائم والانعام الأهلية لا يعيشون الا لغيرهم ولا يتحركون الا برضاه بل بمنزلة آلة غير شاعرة بأيدى مستعبديهم يستعملونهم كما يشاؤون .

كذلك هؤلاء الولاة مع رعاياهم فان الرعايا لا يزالون يتحملون المتاعب والأوصاب ويكدون أيام سنيهم ويسهرون لياليها مشتغلين بلا فتور بالغرس والحرث . والحصد والدرس . والندف والحلج . والغزل والنسج . مهتمين بالحدادة والنجارة . والملاحة والتجارة. ساعين فى حفر الأنهر واتباع

(١) قيل لحكم سرى ان رعيتك يموتون فى عمل السخرة الغلانى الذى كلفتهم به فلو رفقت بهم فقد ا وعن نحن مستظهرون بالعدد فنخشى ان يعصوا ؟؟

(٢) يريد فى الازمان الماضية ويدل عليه استشهاده بالتاريخ .

المياه وانشاء الجداول والجسور . متكبدين آلام التغرب فى الحرب المبيد والبرد المميت كى ينالوا (أى الحكام) أرغد العيش بطيب المطعم والمشرب والملبس والمسكن ويحوزوا الراحة والرفاهة والحظ والسعادة وهؤلاء الظلمة لا يفترون عن السعى فى سلب ما بأيديهم جبرا وغصب ثمار مكاسبهم وفوائد متاعبهم رغما ولا يدعون لهم ما اكتسبوه بكد يمينهم . وعرق جبينهم . سوى ما تقوم به حياتهم الدنيئة حتى تراهم بعد اقتحام هذه الاخطار وتحمل تلك المصاعب . لا يقتاتون الا بكسرات خبز رديئة ناشفة يبلونها بدموعهم المنسكبة من جور ولاتهم الفاتكين . ولا يسترون ابدانهم الا بخرق رثة مرقشة بدمائهم السائلة من سياط حكامهم الجائرين . ولا يسكنون الا فى الأكنة المنخفضة والاخصاص الخسيسة كأنهم أنعام حرمتهم الطبيعة من المزايا الانسانية . ولا يشاهدون الا بوجوه مغبرة مقشرة . وابدان مقشفة معفرة . وتدوم عليهم هذه الحال الرديئة التى نشأوا عليها . والمعيشة الدنيئة التى اعتادوها . حتى يقتنعوا بها ولا يتعقلوا سواها . بل يتنزلون بسوء تصرف هؤلاء الولاة عما منحوه من فضيلة العقل الى رتبة البهيمية . ولا يحسون بمعيشة أكمل مما هم فيه ولا يتألمون الا بالآلام الجسمانية .

ومن أقسام هذه الحكومة غالب حكومات الشرقيين فى الأزمان الغابرة والأوقات الحاضرة وكذلك أكثر حكومات الغربيين فى الدهور الماضية ومنها أيضا الحكومة الانكليزية الآن فى البلاد الهندية .

(القسم الثالث) الحكومة الرحيمة ــ وهى تنقسم الى قسمين . القسم الاول منها الحكومة الجاهلة ودعائم هذه الحكومة تحاكى الاب الرحيم الجاهل ، فكما انه يحث ابناءه على اقتناء الأموال واكتساب الثروة واستحصال السعادة والاقتصاد فى المعيشة بدون أن يبين طرقها ويمهد لهم سبلها لعدم علمه بها . ويدعوهم رأفة الى المجاملة والموادعة ورفع الشقاق والنزاع من بينهم بغير أن يحدد لهم الواجبات ويقدر الحدود اللازمة للادارة المنزلية ؛ لقصور ادراكه عنها ؛ فكأنه يدعوهم الى أمر مجهول مطلق لا يهتدون اليه سبيلا .

كذلك حال هؤلاء الدعائم الرحماء الجهلاء يطلبون من رعاياهم السعى فى المكاسب والصنائع والتمسك بالتجارة والفلاحة والتشبث بالعلوم والمعارف ، ويغرونهم على مجاراة الجيران ومباراة أهل العرفان والتعلق بأسباب النجاح والفلاح بلا تشييد المدارس المفيدة وتأسيس المكاتب النافعة وتسهيل طرق المعاملات ، وبث فنون الزراعة ، جهلا منهم ــ ويريدون من أولئك الرعايا التباعد عن الشقاق والنفاق والاحتراز عن الاعتداء والاعتصاب والتجنب عن الفساد والعناد ، والحيف والميل فى الحقوق والاحتراس عن كل ما يخل بالراحة العمومية بلا تقنين ناموس عادل حافظ للحقوق معين للحدود فاصل للقضايا قاطع لما يطرأ من النوازل جامع لجميع ما يحتاج اليه الانسان فى اجتماعاته المدنية . ومن أفراد هذه الحكومة سلطنة بعض السلاطين المجبولين على الشفقة المطبوعين على الرأفة الذين كانوا يبكون على سوء أحوال رعيتهم مع جهلهم بما يصلح شأنها والسير بذلك ناطقة .

القسم الثانى منها الحكومة العالمة ــ وهى تنقسم الى قسمين .

القسم الأول الحكومة الافينة وأقانيمها تضاهى الأب العالم المأفون ــ فكما أن شفقة هذا الأب تسوقه الى العناية بأحوال أبنائه وتقصره عليها وان علمه بأسباب الترف والثروة وعلل المعيشة الهنيئة المرضية يقوده الى الاهتمام بتأديبهم بأحسن الآداب وتعليمهم الفنون وتمرينهم على الحرف ويجبره على أن يبين لهم قوانين العشرة ويحدد لهم حقوقهم ولكن بعد ذلك يتركهم وشأنهم لضعف رأيه وقصر نظره وجهله بأن ملازمة الشبان للآداب واجتنائهم ثمار معارفهم التى اكتسبوها واجتهادهم فى المكاسب لا تكون الا بقوة حافظة ما لم تحنكهم التجارب لما جبلوا عليه من الميل الى الشهوات والانعكاف على البطالة والتقاعد عن الفضائل فيهوون فى هاوية التعاسة وتذهب مساعيه سدى .

كذلك هؤلاء الاقانيم يعمرون بيوت العلم ويشيدون دور المعارف وينشئون المعامل ويوسعون نطاق التجارة ويواظبون على تشريع سياسة مدنية تثبيتا للحقوق واستتبابا للراحة على مقتضى ما أحاطوا به من أحوال

رعاياهم ، ولكنهم لعدم تدبرهم فى العواقب وعدم تبصرهم بأن افتقار انتظام أحوال العباد وسير أمورهم على نهج العدل ونيلهم غاية بغيتهم من مساعيهم الى العلة المبقية كافتقارهم الى العلة الموجدة لا يواظبون على أعمالهم هذه ، ولا ينظرون اليها نظرة ثانية بل ينبذونها ظهريا ويتركونها نسيا منسيا فيتطرق اليها الخلل ويعتريها الفساد ويسرى اليها الانحلال لما جبل عليه الانسان من الحرص والشره والميل الى الجور والاعتداء المستلزم لمخالفة القانون ، فيقع كل فى العطب والنصب والشقاء والعناء ويستولى عليهم الفقر والفاقة ويصيرون كأرض موظوبة (١) بتوالى تطاول أيدى جائريهم وتعاقب اعتساف معتديهم ويشبه أن تكون حكومة المأمون وبعض سلاجقة ايران من أفراد هذا القسم .

القسم الثانى : الحكومة المتنطسة وأساطينها الحكماء تضارع الأب المتدبر المتبصر الذى لا يبرح ساعيا فى اعداد الاسباب الموجبة لسعادة ابنائه زمن حياتهم وتهيئة معداتها القريبة والبعيدة ، ولا يتجافى آنا ما عن مواظبة دقائق حركاتهم وسكناتهم وتفقد شئونهم واستكناه أحوالهم ، ولا يتقاعد لمحة عن تأييدهم فى سيرهم بآرائه السديدة وأفكاره الصائبة خوفا من التوانى والكسل والاهمال والفشل وخشية من عروض الموانع التى تصدهم عن البلوغ للغاية .

فنجد هؤلاء الحكماء الاساطين يعلمون أن قوام المملكة وحياة الرعايا بالزراعة والصناعة والتجارة ويعرفون أن كمال هذه الأمور واتقانها لا يكونان الا بأمرين أحدهما — وهو فى الواقع علتهما الأولى — العلوم الحقيقية النافعة والفنون المفيدة التى لا يمكن حصولها والفوز بها الا بمدارس منتظمة ومدرسين ماهرين ومتخلقين بأخلاق فاضلة شفوقين على المتعلمين شفقتهم على أبنائهم . وثانيهما اعداد آلات الزراعة وأدوات الصناعة وتسهيل طرق التجارة البرية والبحرية . ويفقهون أن حفظ أساس المدنية وصون نظام المعاملات وفصل المنازعات وكف أيدى المتعدين ومنع المدلسين وكبح الاشرار وردع الفجار لا يكون الا بالمحاكم الشرعية والسياسية المؤسسة على دعائم العدل

(١) هى التى رعيت مراراً حتى لم يبق فيها كلأ ولا نبات .

والانصاف وانها لا تتحقق الا بقانون حق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة – حتى أرش الخدش – الا محفوظا بأمناء يقظين محروسا بعدول نشـطين محفوظا بعلماء فقهين معززا بقضاة مقسطين مؤيدا بحكام أعفاء وأعوان بررة. ويدركون ببصيرتهم الوقادة مصالح العباد ومناهج تعمير البلاد ، ووسائل درء المفاسد الداخلية وطرق منع النوازل الخارجية .

وان القيام بذلك لا يكون الا بضرب ضرائب عادلة عليهم يجمعها جباة عدول تصرف فى منافعهم العامة لدى الضرورة بلا حيف وميـل وانتخاب طائفة من أبطالهم الموصوفين بالصداقة وعزة النفس وعلو الهمة لحفظ الأمنية الداخلية ودفع الاعداء الخارجية . ويشعرون بأن استكمال سعادة المملكة وصيانة استقلالها لا يكونان الا بارتباطاتها السياسية وعلائقها التجارية مع الممالك الأخـرى وانها لا تتم الا برجـال عارفين دهـاة متبصرين محبين لأوطانهم (لا كحسن أفندى فهمى شيخ الاسلام الأسبق فى الاستانة الذى كان يقول لعدو وطنه الجنرال اغناتيف سفير الروسية فيها انك عينى اليمنى وان حيـدر ابنى عينى اليسرى كما ذكره حضرة مدحت أفنـدى فى كتابه المسمى (بأس الانقلاب) متدربين محنكين بالسياسـة عالمين بالحوادث قبل ظهورها ، محيطين بطرق التجارة فيقومون بواجبات ما اقتضته حكستهم وما أحاطوا به علما ولا يتهاونون آنا ما عن اداء حقـوق رعاياهم ولا يفتدون راحة أنفسهم بسعادة أولئك الضعفاء . وزد على ذلك أنهم يدرون أن غالب أفراد الانسان طبع على الحرص وفطر على الشر وجبل على الشهوة وخلق متهاونا بواجباته متوانيا عن اصلاح شئونه ونشأ على المكر والحيل وغرز فيه حب الاعتداء على حقوق الغير وعدم الاكتفاء بما ملكته يداه وغرس فيه بغض الشرائع والقوانين حينما يراها سدا يمنعه من سلوك سبيل الغدر وحاجزا يردعه عن مقتضيات الشره وغلا يكف يديه عن التطـاول – وانهم يفهمون ان كل ما يقع فى العالم الانسانى من المرض والصحة والفقر والغنى والنصب والراحة بل كل ما يقتضى الشـقاء والسعادة ويوجب الصـلاح والفساد لابد وأن يكون لارادة الانسان وحركاته الاختيارية فيه دخل تام

(١) الارش الديه .

ويدركون أن الانسان ما دام على هذه السجية والغريزة فهو كمريض تنازعته أمراض خطرة مختلفة لا ينجو منها الا بتمريض طبيب ماهر يعرف العلل والعلاج ويتفقده آناء الليل وأطراف النهار فيهتمون حكمة وشفقة بتتبع أحوال الرعايا مثل ذلك الطبيب الماهر ولا يبرحون عن موازنة أعمالهم وأفعالهم وحركاتهم ولا ينفكون عن مقايسة آرائهم وأخلاقهم ولا يفترون عن تعديل ثروتهم وغنائهم وتقويم علومهم ومعارفهم وتجارتهم وزراعتهم واحصاء عددهم وتعداد أحيائهم وأمواتهم ، ولا يتوانون عن مقابلة الصادر والوارد فى مسالكهم والمعادلة بين قوة حكومتهم واقتدارها واقتدار الغير وقوته لكى يقتدروا على تدارك مصالح البلاد قبل تمكن الفساد ويقدروا على جبر الكسر وسد الثغر ورفو الخرق وازالة جراثيم الرزايا والمصائب وابادة أسباب الخلل والمصاعب واذا لم يمكنهم القيام باستقصاء دقائق التعديل والتقويم وجزئيات الموازنة والمقايسة مباشرة ، انتخبوا رجالا يقظين عارفين بأحوال الدول وقواها متبصرين بشئون الممالك وأسباب سعادتها وشقائها عالمين بفنون التجارة والزراعة والصناعة ولوازمها مهندسين محاسبين لاداء هذه المصالح وتسجيلها فى السجلات بغاية الدقة والاتقان وعرض كلياتها على هؤلاء الولاة الحكماء مع بيان موارد النقص والخلل وايضاح أسبابها وغير خاف ان تسجيل المعادلات وحفظ الموازنات للدول الزم من تقييد التاجر معاملاته فى دفاتره اليومية — فانه لا يلزم من اهماله فى التقييد والتثبيت الا أن يضيع رأس ماله على جهل منه ويصبح مفلسا وهذا ضرر خاص به . واما اهمال الدول فى حفظ المعاملات وتسجيل الموازنات فيوجب خراب البلاد وهلاك العباد ومن أجل هذا تجد للدول الغربية عناية تامة بهذا الشأن المسمى عندهم بالاستاتيستيك .

فهاك ياأيها الانسان الشرقى صاحب الأمر والنهى حكومة رحيمة حكيمة وعليك بها ؛ والقيام بشأنها وحفظ واجباتها والا فبحياتك التى افتديتها براحة العالم أن تعفونا عن تحمل ثقل تشدقك بالرحمة والعدالة والحكمة والفطنة . أتريد أن تظلنا ونكافئك بالتشكر ؟ وتغصب حقوقنا ونجزيك بالثناء ؟ أو تظن انك تقدر أن تغر كل العالم وتعمى بصائرهم ؟ وان

تنزل باطلك عندهم منزلة الحق ؟ وأن تجلس بجورك مجلس العـدل . وأن تقيم سيئاتك مقام الحسنات ؟ وأن تقعد رذائلك مقعد الفضـائل ؟ ولعلك اغتررت بتمجيد وتعظيم المبصبصين وتبجيل المتزلفين أمامك !

ولو كنت تعلم مقامك فى النفـوس ومنزلتك لدى أرباب البصـائر والعقول لودعت هذه الدنيا الخئون التى الهتك ، وفارقت حياتك العـزيزة التى طالما افتديتها بالمروءة والانسانية .

وأما أنتم يا أبناء الشرق فلا أخاطبنكم ولا أذكرنكم بواجباتكم فانكم قد ألفتم الذل والمسكنة والمعيشة الدنيئة واستبدلتم القوة بالتأسف والتلهف وصرتم كالعجائز لا تقـدرون على الدرء والاقدام والدفع والمنع والرفع فانا لله وانا اليه راجعون . اهـ نقـلا عن العـدد ٣٣ من جريدة مصر التى صدرت فى الاسكندرية فى ٢٢ صفر ١٢٩٦ هـ . فبراير سنة ١٨٧٩ م .

ونحن نقلنا هذا المقال عن مجلة المنار الصادرة فى سنة ١٣١٥ هـ وسنة ١٩٠٠ م (المجلد الثالث) .

ما يجب على مصر أن تفعله

وهنا نأتى بكلمـة من كلمات السـيد جمال الدين خص بهـا مصر وأرشدها الى ما يجب أن تعمله .

كان جمال محبا لمصر والمصريين شديد العناية بالقضية المصرية ومن وقوع مصر بين براثن بريطانيا .

ومن قوله فى ذلك :

كأن القوة الفرعونية أخذت على الدهر عهدا أن لا تبرح وادى النيل ، فكلما قضى فرعون تقمص بآخر ، وكلما انقرضت عائلة فرعونية ادعت ارثها عائلة وجاءت (ولو من وراء البحار) والتصقت بالنسب الفرعونى ولو بأقل مشابهة من خلق الغطرسة والتأله على الناس ، وكثيرا ما كان يردد (استخف قومه فأطاعوه) ويقـول : عجيب هو نصيب المنتصر لمصر والمصريين ، اذا مكث بين ظهرانيهم، فسوى خرج منها خائفا يترقب متهما موشى به من مظلوم

نصره على ظالمه ، وفرعون معبود فيها ، ويوسف الصديق زج فى السجن متهما وهو لم يأت الفاحشة (١) .

نعم فى النتيجة حصحص الحق وزهق الباطل .

ولسوف تخلص مصر لأهلها اذا هم عملوا بالحزم ، وهيأوا ما يلزم من العزم ، وما يتطلبه حكم الذات من القوى (٢) ولسوف يفعلون ذلك بعوامل الضغط (والمسك بالخناق) (٣) .

واذا ما فعلوا ، واجتمعت الكلمة ، وتوحدت الاهواء نحو الغايةحصل اليأس ، واذا لم يضعوا هذا البأس بينهم بسوق التحاسد أو بفعل الدسائس ، فقل تم الامر ، وفاز القوم ، ودخلوا فى دور الحياة الصحيحة .

لا تحيا مصر ، ولا يحيا الشرق بدوله وأمـاراته الا اذا أتاح الله لكل منها رجلا عادلا ، يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان لان بالقوة المطلقة الاستبداد ، ولا عدل الا مع القوة المقيدة .

وحكم مصر بأهلها انما أعنى به الاشتراك الاصلى بالحكم الدستورى الصحيح .

ثم قال : اذا صح أن من الأشياء ، ما ليس يوجب فأهم هذه الأشياء (الحرية والاستقلال) ــ الحرية والاستقلال ــ لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك والمسـيطر عن طيب خاطر والاستقلال كذلك ، وما قاله السيد فى :

الشكل الدستورى الصحيح

لا يسلم على الغالب الشكل الدستورى الصـحيح مع ملك ذاق لذة التفرد بالسلطان ويعظم عليه الأمر كلما صادمه مجلس الأمة بارادته أو غلبه على هواه لذلك قلت :

---

(١) وكذلك اخرج هو من مصر بليل بتهمة كاذبة ونفى الطغاة الغرباء توفيق باشا وأنصاره الانجليز ، والجامدين من شيوخ الدين .

(٢) وتحققت نبوءة هذا الفيلسوف العظيم وخلصت مصر وأهلها فى سنة ١٩٥٢ لما عملوا بالحزم وهيأوا ما يلزم من العزم ومسكوا بالخناق والحمد لله .

(٣) كأن عين فيلسوفنا كانت تنظر الينا من ستر الغيب ونحن نمسك بخناق الانكليز سنة ١٩٥٢ حتى خرجوا مقهورين أذلاء فرحمه الله رحمة واسعة .

« اذا أتاح الله رجلا قويا عادلا لمصر وللشرق يحكمه بأهله ، ذلك الرجل. اما أن يكون موجودا أو تأتي به الأمة فتملكه على شرط الامانة والخضـوع لقانونها الاساسي ، وتتوجه على هذا القسم تعلقه له ـ فيبقى التـاج على رأسه ، ما بقي هو محافظا أمينا على صون الدستور ـ وانه اذا حنث بقسمه وخان دستور الأمة ـ فاما أن يبقى رأسه بلا تا ج، أو تاجه بلا رأس .

هذا ما يحسن بالأمة فعله ـ اذا هي خشيت من أمرائها وملوكها عدم الاخلاص لقانونها الأساسي أو عدم قابليتهم لقبول الشكل الدستوري قلباً وقالبـا .

والا فالرجل الصالح القريب ، أولى من البعيد الغريب (١) .

---

١ ص ٨٥ـ٩٢ حضرات جمعية [illegible] أفندي الحسيني »

أفكار السيد جمال الدين الأفغاني

على من يقول بسد باب الاجتهاد

ولكى تؤيد ما قاله مستر بلانت من قبل فى أنه كان ينقد المذاهب المسلمة حتى مذهب أبى حنيفة الذى كان السيد قد اتخذه لنفسه مذهبا فى أول حياته ، ولكى تثبت أنه أول من فتح باب الاجتهاد على مصراعيه بعد أن ظل حوالى ألف عام موصدا نذكر هنا ما رواه عنه محمد المخزومى (باشا) فى كتابه (خاطرات جمال الدين) .

قال المخزومى :

عرف جمال الدين بنفوره من التقليد والجمود فكان يأخذ بالاحسن والايسر من الأقوال ويجتهد للاولى ، ويرد الضعيف منها ، ويتناول الأقرب للصواب ، وما يقبله العقل الصريح ويتفق مع النقل الصحيح :

ذكروا له قولا للقاضى عياض ، واتخذوه حجة واشتد تمسكهم به حتى أنزلوه منزلة الوحى . فقال جمال الدين :

ياسبحان الله ان القاضى عياض ، قال ما قال على قدر ما وسعه عقله وتناوله فهمه ، وناسب زمانه ــ فهل لا يحق لغيره أن يقول . ما هو أقرب للحق وأوجه وأصح من قول القاضى عياض أو غيره من الائمة ؟ وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال الناس ؟ (انهم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم ، لقد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا وقالوا ؛ وأدلوا دلوهم فى الدلاء فى ذلك البحر المحيط من العلم وأتوا بما ناسب زمانهم . وتقارب مع عقول جيلهم ــ وتتبدل الاحكام بتبدل الزمان .

ولما قيل له ان ذلك يعد اجتهادا ؛ وباب الاجتهاد عند أهل السنة ممدود لتعذر شروطه ــ تنفس الصعداء وقال :

ما معنى باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأى نص سد باب الاجتهاد ؟ أو أى امام قال : لا ينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين — أو أن يهتدى بهدى القرآن ، وصحيح الحديث ؟ أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما ، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان وأحكامه ؟ ولا ينافى جوهر النص ؟

ان الله بعث محمدا رسولا بلسان قومه (العربى) ليفهمهم ما يريد افهامهم ، وليفهموا منه ما يقوله لهم « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » وقال « انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » وفى مكان آخر « انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » .

فالقرآن ما أنزل الا ليفهم ، ولكى يعمل الانسان بعقله لتدبر معانيه وفهم أحكامه والمراد منها .

فمن كان عالما باللسان العربى ، وعاقلا غير مجنون ، وعارفا بسيرة السلف . وما كان من طرق الاجماع وما كان من الاحكام مطبقا على النص مباشرة ، أو على وجه القياس ، وصحيح الحديث — جاز له النظر فى أحكام القرآن وتمعنها والتدقيق فيها ، واستنباط الاحكام منها ومن صحيح الحديث والقياس .

ولا أرتاب فى أنه لو فسح فى أجل أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل — وعاشوا الى اليوم — لداموا مجدين مجتهدين ، يستنبطون لكل قضية حكما من القرآن والحديث وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم ازدادوا فهما وتدقيقا .

نعم ان أولئك الفحول من الأئمة . ورجال الأئمة اجتهدوا وأحسنوا ، جزاهم الله عن الامة خيرا . ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن . أو تسكنوا من تدوينها فى كتبهم ! والحقيقة انهم مع ما وصلنا من علمهم الباهر . وتحقيقهم واجتهادهم ، انه هو بالشبه الى ما حواه القرآن من العلوم والحديث الصحيح أو من السنن والتوضيح الا قطرة من بحر ، أو ثانية

أو ثانية من دهر والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده .. وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

التحليل والتحريم لا يكون الا بأمر الله

ثم يقول السيد جمال الدين

كان علماء السلف والأئمة منهم لايجرؤون على القول بسنة من سنن الرسول الا بعد التدقيق والنظر فى الاجتماع وتحرى الثقات من الرواة الخ اما الجهلاء من المشايخ المتعممين اليوم فتراهم يتهجمون على التحريم للحلال والتحليل للحرام بغير نص ، وقد جهلوا ان مقام التحريم ما جاز لصاحب الشرع الرسول الأعظم ــ صلى الله عليه وسلم ــ الا بتنزيل كقوله تعالى « ياأيها النبى لم تحرم ماأحل الله لك الآية » قال : وقد رأيت منذ أيام شيخا بعمامة كالبرج وجبة كالخرج، آخذا بتلابيب رجل أقعدنى قرب جامع السليمانية فى الاستانة وهو يهزه ويقول له : ان لبسك هذا القميص حرام وكفر ! لأنه صنع الافرنج الكفار !! فما وسعنى الا أن تقدمت الى ذلك الشيخ الجاهل وقلت له : ياشيخ ان عمامتك وجبتك ، وعمامتى وجبتى هى من صنع الافرنج ! فلماذا لا تخلع عمامتك وترمى بجبتك أولا ، ثم تعمد الى قميص الرجل فتشلحه اياه ــ وكم من أمثال هذا الشيخ الجاهل فى هذه الأمة بهذه الأيام ــ لا حول ولا قوة الا بالله .

ولقد كان السيد رضى الله عنه يقول لمثل هذا الجاهل :

ياهذا .. أضعتم حقائق الدين بين سوء معقولاتكم ، وعدم تفهم منقولاتكم .

ضرر المقلدين

ثم يقول رضى الله عنه :

علمتنا التجارب ، ونطقت مواضى الحوادث أن المقلدين فى كل أمة ، تكون مداركهم مهابط الوساوس ، ومخازن الدسائس ، بل يكونون بما

افعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن على مثالهم ، شؤما على أبناء ملتهم يذلونهم ويحقــرون أمــرهم ، ويستهينون بجميــع أعمــالهم وان جلت . وان بقى فى بعض رجال الأمــة شىء من الشمم ، أو نزوع الى معالى الهمم انصبوا عليه وأرغموا من أنفه حتى يمحى أثر الشهامة وتخمد حرارة الغيرة ، ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيــوش الغالبين ، وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبل ويفتحــون الأبواب ، ثم يثبتــون أقدامهم ويمــكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمــون فعلا لغــيرهم ، ولا يظنون ان قوة تغالب قواهم .

رأى جمال الدين في الربا، وما هو الربا المحرم

قال جمال الدين :

حرم الله الربا بنكتة غاية فى الحكمة وهى أن لا يؤكل أضعافا مضاعفة ـــ وهو ما وقع عليه التحريم ، ولكى يكون للامام مخرج اذا اقتضت المصلحة فى التسامح للحكم بجواز الربا المعقول الذى لا يثقل كاهل المديون ولا يتجاوز فى برهة من الزمن رأس المال ويصير أضعافا مضاعفة ـــ وفرق صراحة بين احتيال المرابين المتلبسين بالدين ـــ الذين يتظاهرون بتجنب أكل الربا ـــ ببيعهم سلعة قيمتها الحقيقية مائة درهم يتجرون عند بيعها مع المشترى المضطر بثلاثمائة درهم ـــ وحقيقة هذا الفرق ان هو الا نصيب الربا وعينه وانما يجعلونه عن طريق البيع ، ويخدعون أنفسهم بأنهم تخلصوا من ارتكاب جريمة الربا التى حظرها عليهم الدين .

واليك بعض ما جاء فى هذا الشأن من آيات القرآن « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا ، انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى ، فله ما سلف وأمره الى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ـــ يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » .

وقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

وهذا الرأى لم ترض عنه ادارة الثقافة بالأزهر وكان يتولاها حينئـذ محمد البهى ، وكانت وزارة الثقـافة قد بعثت بالكتاب الذى حمـل هذه الفتوى وهو كتاب (صيحة جمال الدين) الذى نشرنا فيه أكثر آراء ومبادىء جمال الدين ــ الى الأزهر ليبدى رأيه فيه ــ اذ ما كاد هذا البهى يطلع عليه ، حتى ثار وأرسل خطابا الى ادارة النشر برقم ٧٢٤ فى ١٦ مارس سنة ١٩٦٠ جاء فيه « ان هذا الكتاب يتضمن افتراء على الاسلام وخروجا على تعاليمه ولهذا قررت مشيخة الأزهر الشريف عدم السماح بتداوله » ومؤدى هـذا الخطاب (ان جمال الدين يفترى على الاسلام ويخرج على تعاليمه !!)

ومما لا يكاد يقضى الانسان منه عجبا ان الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر فى هذا الوقت قد اصدر فتوى قبل ذلك تصرح باباحة التعامل بالربا للمضطر ونشرت هذه الفتوى فى كتاب (الفتاوى) الذى أصدره الشيخ وذلك فى الصفحتين ٣٢٦ و ٣٢٧ ، وأعجب من ذلك أن الذى قـدم كتاب (الفتاوى) وأثنى على ما فيه ثناء جميلا هو محمد البهى هذا الذى وصف رأى جمال الدين بما وصف !! .

وهكذا يكون الحكم فى شريعة ادارة الثقافة الأزهـرية ! هذا حلال ! وذاك حرام ! وانصافا للتاريخ وايتاء كل ذى حق حقه من الفضل نذكر بأن كتاب صيحة جمال الدين الذى طلبت مشيخة الأزهر عدم السماح بتداوله ! قد ظل سـجينا خمس سنين كاملة حتى أمر بالافراج عنه فى العـام الماضى السيد المهندس العالم العامل المصـلح أحمد عبـده الشرباصى نائب رئيس الوزراء فأشار على المجلس الأعلى للشئون الاسلامية الذى يتولى سكرتيريته وادارته والاشراف عليه الأستاذ الفاضل محمد توفيق عويضـة بشراء هذا الكتاب وتوزيع نسخه بين الأقطار الاسلامية لكى ينتفع المسـلمون بآراء وأفكار موقظ الشرق جمال الدين الافغانى ــ فجزاهما الله عن العلم والدين خـير الجزاء .

رأى جمال الدين فى الاشتراكية
وما هى الاشتراكية الاسلامية ؟

كان مجلس جمـال الدين يجمع أهل المذاهب المختلفـة والمشارب المتباينة ، فيضطر أن يخاطب كل انسان على حسب عقله واستعداده ويراعى معتقداتهم ما أمكن ـــ ويخوض مع المعطلة والماديين وغيرهما ، ويأتى على ذكر الفلاسفة وما قالوه مع توضيح مذاهبهم وذكر حججهم ، ومنتهى مـا وصلوا اليه من البراهين .

وفى أحد الأيام سأله أحد كبار الكتاب الأدباء فى تركيا قائلا :

لن خير ما فى أوروبا من النهضة هو (السوسيالست) (الاشتراكية) وهذه النهضة هى التى ستؤدى حقا مهضوما لأكثرية من الشعب العامل .

فقال جمال الدين : ان ما تراه من الاشتراكية فى الغرب ، وما تتوخاه من المنافع بذلك المذهب فى شكله الحاضر وأسسه ، وتخبط واضعى مبادئه ـــ كل ذلك يعكس نتائج الاشتراكية ويجعلها محض ضرر بعد أن كان المنتظر منها كل نفع .

والاشتراكية الغربية ، ما أحدثها وأوجدها الا حاسة الانتقام من جور الحكام والأحكام ، وعوامل الحسد فى العمال لأرباب الثراء ، الذين انمـا أثروا من وراء كدهم وعملهم وادخروا كنوزهم فى الخزائن ، واستعملوا ثرواتهم فى السفه والتبذير والترف على مرأى من منتجها ، والفاعل العامل فى استخراجها من بطون الأرض ومن ترابها .. الخ • وبالاختصار ثمرات عمل العمال فى كل أنواع حاجة العمران .

فكل عمـل يكون مرتـكزا على الافـراط لابد أن تكون نتيجتـه التفريط .

أفرط الغربيون (الأغنياء) فى نبذ حقوق العمال الفقراء وراء ظهورهم فأفرط العمال فى مناهضة أهل الثروة وغاصبى حقــوق الأمة ـ بالمناصب ومسببات الجاه ـ فلا قاعدة دينية يرجع اليها ، ولا سلطان وازع يعمــل بقهر لصالح المجموع ـ لذلك أصــبح أمرهم فى الاشــتراكية (فــوضى) ولسوف ينعكس أمرها .

الاشتراكية فى الاسلام

أما الاشتراكية فى الاسلام فهى ملتحمة مع الدين الاسلامى ، ملتصقة بخلق أهله منذ كانوا أهل بداوة وجاهلية .

أول من عمل بالاشتراكية ـ بعد التدين بالاسلام ـ هم أكابر الخلفاء من الصحابة ، وأعظم المحرضين على العمل بالاشتراكية كذلك من أكابر الصحابة أيضا ، واليك البيان .

أما أن الاشتراكية من خلق البداوة ، فالبرهان عليه ما كان من أهل الثراء منهم ومواساتهم لأهل قبيلتهم وعشيرتهم ـ ولا أعد كثيرا من ذلك بل أجتزىء بمن اشتهر منهم : مثل حاتم الطائى فى السنين المجدبة ـ وكيف أنه نحر أعز ما لديه وهو (فرسه) لمجرد مجىء امرأة من أقصى قبيلة طىء اذ قالت له : يا حاتم قيل لنا أن عندك لحما عبيطا فأتيت بقصعتى ـ فقال : صدقت ، ثم نحر فرسه وأشعل ناره (تلك العلامة التى كانت كدعوة عامة يعلم منها الناس أن هناك طعاما) فيأتون لمكان الدخان فى النهار ويشتركون فى الأكل دون أدنى منة لصاحبها ، لأن الامر كان بينهم مناوبة يفعله الميسور والمثرى ـ كل على نسبته وما لديه من سعة .

هكذا فعل حاتم ـ وهناك رجل آخر من رجال العرب ، وهو (طلحة الطلحات) كان شأنه أن كل أعرابى معدم يأتيه فيقول له «دونك الفرس والرمح والسيف ، فعسى أن تكتفى بها عن ذل السؤال » .

ويقال انه جهز على هذا المنوال ألف فارس ولم يبق عنده الا مثل ما أعطى لواحد منهم .

فكان كل فارس ممن جهزهم طلحة اذا أتاه غلام سماه طلحة ، فلم يمض

كثير من الزمن الا وكان فى تلك القبائل من أسماء أبناء أولئك الآباء مثات من ذلك الاسم ، فسمى بذلك (طلحة الطلحات)

هذا مثل من الاشتراكية قبل الاسلام ــ ومنه يعلم أن الثروة كانت ولا تزال موجودة فى الافراد ولكن حسن استعمالها ، وجعل نصيب للآخرين فيها يجعل الاشتراكية أمرا مقبولا ، وصفة ممدوحة ــ اذ لا أنانية ولا أثرة ولا استطالة على الفقير بخيول مطهمة ، يستأثر بها ، ولا بطعام شهى يلتذ به مع لفيفه ولا ببناء شاهق يسكن فيه بينما موجد ومسبب ومهيىء تلك النعم كلها ــ ذلك العامل الفقير الذى يسكن كوخا حقيرا نصف اعضائه وأبنائه فى خارجه عرضة لصبارة القر وأوارة الحر ! لا يملك من القوت خبزا كافيا ولا من الملبس ما يستر به تمام العورة .

هذا ما عليه أهل الثروة ، وهذا ما استنفر طبقة العمال للمطالبة بالاشتراكية وفى تفيرهم روح الانتقام والافراط فى المطالبة بحقهم يقابله التفريط فىعدم الخضوع لما يطلبونهمن الحق ــ ولسوف يتفاقم الخطب ، وتعم من جراء ذلك البلوى فى الغرب ، ولا يسلم منها الشرق .

« أما الاشتراكية فى الاسلام ، فهى خبر كافل لجعلها ناقية مفيدة ممكنا الاخذ بها لأن الكتاب الدينى وهو القرآن أشار اليها بأدلة كثيرة منها .

ان المسلم أول ما يقرأ من فاتحة الكتاب « الحمد لله رب العالمين » فيعلم أن للخلق ربا واحدا وهو مع سائر الخلق من المربوبين على السواء .

ويرى ويعلم أن القرآن قد خاطب أرباب القوة ورجال الحرب والغزاة آمرا ومعلما ومبينا حقوق المستضعفين من الامة الذين لم يتمكنوا من الاشتراك معهم ليكون لهم من ذلك الجهاد نصيب ، فقال « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله » الخ .

هذه آية باهرة أوجبت على من يسعى مجاهدا ومخاطرا بحياته أن يكون مشتركا معه فى نتيجة غزواته وغنائمه ــ من لم يكن مشتركا فعلا ،

فأعطى أولا لله نصيبا ، ومرجع ذلك النصيب لعباده وجعل لليتامى نصيبا ثم وسع نطاق الاشتراكية فقال (والمساكين) ثم رأى أن يأخذ نظاما أوسع فقال (وابن السبيل) أى عابره فتم بهذا الشكل نوع من الاشتراكية لم يكن أوسع منه شكلا ولا أنفع ، كل ذلك نراه مبنيا على حكمة الاشتراك .

وقد لبث حكم هذه الآية جاريا ، وكان الرضا به شاملا لمجموع المسلمين من مجاهد أو قاعد عن الجهاد لعلة .

ثم جاء فى موضع آخر من الكتاب تقريعا لمن يكتنزون الذهب والفضة (١) ثم حبذ وأثنى على الذين يؤثرون على أنفسهم بالعطاء والاسعاف والاطعام (٢) ولو كان بهم خصاصة .

وهكذا نرى قانون الاشتراكية المعقول فى آيات القرآن تترى .

فلننظر هل عمل بهذا القانون ، وماذا كانت نتائج العمل به .

نعم ! ان الاخاء الذى عقده النبى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والانصار ـ لهو أشرف عمل تجلى به قبول الاشتراكية قولا وعملا ، فالمهاجر من المسلمين انما استطاع أن يفر بدينه ، راضيا بهجرة بلده ومفارقة أهله وذويه ، والخروج من ماله ومقتناه مسرورا أن يصل الى دار الهجرة سالما .

ـ والانصارى ـ وهو فى بلده مع آله وذويه وماله ، قبل راضيا مسرورا أن يشارك أخاه المهاجر بكل معنى الاشتراك ، فى كل ما يملك حتى كان يقاسمه زوجاته ..

ولو تطلع الانسان منا اليوم ، وأشرف على تلك الأرواح الطاهرة ـ لرأى من مجالى الاشتراك روحا وجسدا ، ما ينبهر له عقله ، ولصح اعتقاده أن عمل الدين وتأثيره فى تلطيف الكثافة الجسمانية لا يضارعه مؤثر أو عامل آخر على البشرية ـ ولرجعوا اليه لو كانوا يعقلون .

---

(١) فى قوله تعالى « الذين يكنزون الذهب والفضه ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم الآيه » .

(٢) فى قوله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصه الآية » .

ولما كان مذهب الاشتراكية كبقية المذاهب والمبـادىء ــ له طرفان « وخير الامور أوساطها » رأى الشارع الاعظم أن تنعم فـريق من قوم ، وشقاء فريق آخر فى محيط واحد ــ وبمسـاع ليس بينها وبين مسـاعى الاخرين كبير تفاوت ــ مما لا يهتم به نظام الاجتماع ــ وكان النبى صلى الله عليه وسلم « بالمؤمنـين رحيما » فجـاءه عن طريق الوحى ــ لتمحيص نزعات النفس البشرية ومـا عسى أن ينجم من المضار أو المنافع لهـا ، بيان لأركان الدين الخمسة ومن تلك الأركان (فرض الزكاة) فى المال والركاز والانعام الخ .

ثم أضاف اليها ما سبق (غنائم الحرب) فأخذ منهـا قسطا بمقـدار الخمس .

ثم بعد ذلك حرض على الصدقات وحرم الربا وحث على ذلك كثيرا كقوله تعالى « ان تبدو الصـدعات فنعما هى ، وان تخفـوها وتؤتوهـا الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير » .

وقال : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفـة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله » وقال : « ان الحسنات يذهبن السيئات » .

وأمثال ذلك كثيرة فى الكناب والحديث ، حثا وتحريضـا على البذل ومواساة الفقراء وأهل العوز ، درءا لمفاسد أرباب المطامع ، وسدا لعوامل حسد الحساد لاهل الثروة والنعيم .. الخ .

أما الثروة فتختلف بكميتهـا من مائة ألوف ، وملايين من الدنانـير ، ولكن لا تختلف بكيفيتها ، بمعنى أن رجلا يملك مائة دينار بين قوم لا يملك أفرادهم الا دراهم معدودات ، فيمكن لصاحب تلك المائة أن يظهر بمظهـر الثراء ويأخذ من التنعم حظا نسبيا ، ويلفت أنظار قومه ويدعوهم لحسده ــ هذا اذا تمادى فى الاثرة والانانية ولم ينل قومه منه رشاشة فضل على حد قول زهير بن أبى سلمى :

ومن يك ذا فضـل ويبخـل بفضله   على قومه يسـتغن عنه ويذمم

.. جاء الاسلام ــ فكان أكبرهم منصبا وهو الخليفة لرسول الله يعمل بسيرة نبيه فى الاكتفاء بالقليل من العيش والكفاف منه ومجالسة الفقراء ومشاركتهم بكل معنى الاشتراك فى مظاهر الحياة الدنيا ونعيمها .

ولقائل أن يقول ان شظف العيش فى زمن النبى المصطفى وخلفائه كان يدعو بطبيعة الأمر الى عدم التحاسد .

فنقول : ان الفتح الاسلامى فى زمن أبى بكر الصديق بلغ من الممالك مبلغا عظيما وجاء بالمغانم الكثيرة ، ومع ذلك لا نرى أن وضعية الخليفة أبى بكر قد تغيرت ولا مظاهر وزرائه وقواده قد تبدلت .

وامتدت الفتوحات فى زمن الفاروق عمر بن الخطاب فصارت أوسع نطاقا والمغانم أعظم وفرا والنفوس البشرية مع هذه العوامل قل ما تنجو من تطلع للسرف والترف ومهيئات الاستطالة والانانية (وقد توفرت أسبابها) وبالفعل ورغما عن قرب العهد بسيرة الشارع وخليفته أبى بكر ، وتمسك الفاروق بسيرتيهما ــ فقد أتته الأنباء الصادقة من بثه لمراقبة سير وسيرة عماله بأنه قد فشت لعامل مصر (عمرو بن العاص) وعامله فى دمشق (معاوية بن أبى سفيان) وغيرهما من العمال فى العراق وغيره ــ هيئة بذخ وسرف وثراء فخشى معه حصول ميزة الاكاسرة لأولئك الافراد من العمال ــ الخادمين للمجموع ويصرفون سلطان الحكم ونفوذه فى غير وجوه الحق فتدب النفرة على سبيل التدريج الى نفوس الأمة من حكامها وبالأخير تنقبض تلك النفوس عن الطاعة الاختيارية وتفقد الثقة ويضعف الايمان ، ويتزلزل البنيان ، ويعم البلاء (والعياذ بالله) .

فأسرع الفاروق (١) لملافاة ذلك الخلل بتقريع عماله بأخشن الاقوال ــ عظة وتحذيرا وقتلا للغرور ــ فخاطب عامله فى مصر بقوله :

«الى العاص بن العاصى، مااقتطعتك مصر طعمة لك ولقومك » وبمثل

---

(١) الفاروق هو عمر بن الخطاب .

قوله : « لا تبالى أن تحيا أنت ومن معك ، وأن أموت أنا ومن معى » .. وبمثل قوله له : « متى كان ابن العاص فى مثل ما بلغنى عنه من ثراء ودور وقصور — وبما معناه الخ (١) .

وهكذا خاطب عامله فى الشام معاوية بن أبى سفيان وهدده بأن يجتنب غطرسة هرقل ، وتعاظم الاكاسرة والقياصرة .

ولم يكتف بما قاله بل أرسل معتمدا وبيده أمر مبرم أن يشاطر كل عامل فى مقتناه — من ثروة ومتاع ، حتى ان ذلك المعتمد أخذ فردة نعل العامل وترك له الاخرى !

هذا درس عملى علنى لملأ المسلمين — أفهم فيه الفاروق — الحاكم والمحكوم عدم سواغية الاثرة والاستطالة — وعمل بذلك على محو دواعى الحسد من الصدور فعلا .

فلننظر ماذا فعل عمر بن الخطاب بما صادره من أموال العمال ؟ وماذا صنع بمغانم كسرى وقيصر ؟ وماذا ظهر على ذلك الخليفة من آثار عظمة الملوك والامراء — سواء فى مسكنه أو ملبسه أو مأكله ؟

ظهر عليه مع كل ما توفر لديه ، أن لباسه كان أحقر ما يلبسه الفقير فى الأمة (ومرقعيته مشهورة فى تاريخ الامم ، وأن فيها مع رقع الأقمشة رفعة من أدم أى من جلد) .

وأما (مسكنه) فكان يقضى سحابة يومه فى سقيفة حقيرة ، يدخل اليها مطأطىء الرأس ينظر فى شئون الخلافة ؛ ويقضى وقت استراحته فى البقيع « جبانة الاموات » .

وأما (مطعمه) فكان خبز الشعير الغالب عليه — بينما كان يطعم الايتام والارامل والمستضعفين من المهاجرين والانصار — خبز البر والسمن والتمر وينيلهم كل ما كان مناله عزيزا الا لاهل الثراء اذ ذاك .

---

(١) وقال له متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا .

هكذا كان يشركهم فى نعيم الاغنياء ولا يشترك معهم فيه ــ فضلا عن بذل المال للمحتاجين وفرض الفروض لهم من بيت الما ل، واعطاء الجوائز لمن كان له أو لآبائه سابقة فى الاسلام بعشرات الالوف ومئات الالوف كل على حسبه ..

هذا كان موقف الخلفاء وحال الامة معهم ــ ولذلك تجلى العدل المطلق فى الاحكام ، والتزم الحكام التقيد به قولا وعملا .

وهكذا مضى زمن خلافة الفاروق ــ وجاء زمن خلافة عثمان بن عفان ــ وفى خلالها ظهرت أثرة خاصة للامويين ، تذمر منها الهاشميون ، وأكثر القرشيين وفى مقدمتهم أبناء الصديق والفاروق ومن كان على رأيهم .. الخ .

فى زمن قصير من خلافة عثمان تغيرت الحالة الروحية فى الأمة تغيرا محسوسا وأشد ما كان ظهورا فى سيرة وسير العمال والامراء وذوى القربى من الخليفة وأرباب الثروة بصورة يمكن معها الحس بوجود طبقة تدعى (امراء) وطبقة (أشراف) وأخرى أهل ثروة وثراء ــ وانفصل عن تلك الطبقات ــ طبقة العمال وأبناء المجاهدين ، ومن كان على شاكلتهم من أرباب الحمية ، والسابقة فى تأسيس الملك الاسلامى وفتوحاته ونشر الدعوة ــ وصار يعوزهم المال الذى تتطلبه طرز الحياة التى أحدثته الحضارة الاسلامية ..

وقد نتج من مجموع تلك المظاهر التى أحدثها وجود الطبقات المتميزة عن طبقة العاملين والمستضعفين من المسلمين ــ تكون طبقة ــ أخذت تتحسس بشىء من الظلم ، وتتحفز للمطالبة بحقهم المكتسب من مورد النص ومن سيرتى الخليفة الاول والثانى أبى بكر وعمر .

كان أول من تنبه لهذا الخطر الذى يتهدد الملك والجامعة الاسلامية ــ الصحابى الجليل « أبو ذر الغفارى » ، فجاء الى معاوية بن أبى سفيان ــ

وهو فى الشام وخاطبه بوجوب الرجوع الى سيرة السلف ، وبتقليل دواعى السرف والترف .. وذكر مواعظ .

فأجابه معاوية بما معناه « يا أبا ذر ان ما تقــوله هو الحق ، ولكنى لا أستطيع الرجوع لا الى سيرة الصديق وسيره ولا الى العمل الذى كان يعمله الفاروق . وغاية ما فى امكانى هو الحث على بذل الصدقات والقول اللين ارشادا لتخفيف دواعى الحسد ــ وغير ذلك فلا سبيل اليه .

فقال أبو ذر ــ قد نصــحتك ــ والدين النصيحة ــ فاحــذر أنت والخليفة عثمان مغبة ما أتتما عليه ــ وانصرف من مجلس معاوية مغاضبا .

واجتمع بطبقة المتألمين والمتذمرين من المسلمين وقص عليهم من سيرة السلف أشياء ، وأطلعهم على ما قاله عامل الشام معاوية وأعلن لهم مشاركته اياهم فى كل ما يحسونه قلبا وقالبا ، وشجعهم على النهوض والمطالبة بحق صريح لهم اهتضمه جماعة بغير وجه شرعى ، ولا باجتهاد أمام سلف .

وكان من وراء عمل أبى ذر هذا ، أن هاجت النفوس ــ فخشى معاوية وأعوانه سوء المصير ، وجمع كيده واستنجد دهاءه وبعث لأبى ذر ــ ليــلا بألف دينار ! فقبلها أبو ذر وبادر فى الحال بتفريقها على الفقراء والمعوزين .

ولما ضاق معاوية به ذرعا كتب الى الخليفة عثمان مستجيرا من أبى ذر وما أحدثته دعوته من التأثير فى النفوس ، فأجابه بأن يسرع بارساله اليه ، ولما قابل أبو ذر عثمان لم يسمع منه أكثر مما سمع من معاوية ــ وأنه لا يمــكن أن يفعل ما فعله الفاروق من مشاطرتهم ما عندهم من الثروة ، ولا أن يرجع ما كان من حال المسلمين فى عهدى الصديق والفاروق الا عن طريق الحث على بذل الصدقات والاحسان !

فقال له أبو ذر : يا عثمان ان النبى صلى اللهعليه وسلم أمرنى بالخروج من المدينة اذا بلغ البناء سلعا ، (وهو جبل بالمدينة) فها قد اســتعلى بناؤك وبناء قريبك معاوية وأعوانكما ــ فأستودعك الله تاركا لك ولمن استعملت

من العمال (أعمالكم) والله من ورائكم محيط ، ولم يلبث أن هاجر فعلا من المدينة .

كان من عمل أبي ذر هذا أنه قد أخذ يمحض النصـح لخليفة المسلمين اذ ذاك (عثمان) وينصح (عماله) والدفاع عن حقوق المسلمين ـ كي لا تتكون طبقة اشتراكية يكون رائدها الانتقام !

وكان نصحه أن دعاهم الى العمل بنص القرآن ، والاقتداء بمن طبق ذلك النص عملا من الخلفاء كأبي بكر وعمر .

هذا مختصر عما جاء بالدين الاسلامي من الاشتراكية المعقولة النافعة للمجموع الانساني وما عمل به أكبر خلفاء الاسلام .

كل اشتراكية تخالف في روحها وأساسها ـ اشتراكية الاسلام ـ التي سبق ذكرها ـ لا تكون في نتيجتها الا ملحمة كبرى وسيل الدماء ـ لا سيل العرم ـ من الابرياء ، ومن تخريب لبناء لا يشاد على شيء ينتفع به أحـد من الخلق .

نعم يستفيد من يلوك بلسانه كلمة الاشـتراكية ـ ويجعلها أحبولة صيد ـ وهي كلمة حق يراد بها الباطل ، أكرر القول : ان اشتراكية الاسلام هي عين الحق ـ والحق أحق أن يتبع .

وقال السيد في كلام آخر ـ واذا نظرنا في علم الثروة رأينـا أن كثيرا من المتأخرين قد وضعوا قواعد كلية في علم الثروة ونوهـوا بها ـ ولكن القرآن قد جاء بأعظم تلك القواعد ، وهي وجوب جبـاية العشر عند حصاد الزرع في قوله تعالى : « وآتوا حقه يوم حصاده » .

فالقرآن الكريم قد سبق أولئك العلماء في بيان فن الثروة ، وقرر تلك القاعدة بقوله « وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ـ كلوا من ثمره اذا أثمر ـ وآتوا حقه يوم حصاده » .

هذا ما بينه السيد جمال الدين فى أمر الزرع وحقه ــ وانا نقول هنا أنه لما كان الاقتصاد كله ينحصر فى الزراعة والصناعة والتجارة ــ فقد جعل الله فى الأموال التى يكسبها الناس من غير طريق الزراعة نصيبا كذلك حتى لا يفلت ذوو الاموال من غير الزراع مما يجب عليهم للفقراء والمساكين فقال تعالى « والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » .

وليس بعد ذلك كله مزيد بيان فى فضل الاشتراكية الاسلامية وعدلها .

حرص السيد على اللغة العربية واجتهاده فيها لاجتهاده فى الدين

ذكر المخزومى فى خاطرات السيد جمال الدين :

كان أول نقد وجهه السيد الى الترك ، وأول شىء لاحظه عليهم ، عدم قبولهم للغة العربية ومحاربتهم اياها ، وانهم لا يحسنون غير الحرب ومن ذلك قوله :

« ان اخواننا الاتراك لم يحسنوا من أعمال الدنيا غير الحرب ، وهم فيما عدا ذلك ــ وفيما يختص بشئون العمران أقل روية وعملا من سواهم

ويسوؤنى وأنا ممن يحبهم ــ وأتأثر ــ كلما افتكرت فيما ارتكبوه من الخطأ فى عدم قبولهم اللسان العربى ــ وازداد تأثرا اذ أراهم يرتكبون خطأ أفضح ــ وهــو جريهم وراء (تتريك العرب) واستبدال اللســان التركى باللسان العربى ــ لسان الدين الطاهر والأدب الباهــر وديوان الفضــائل والمفاخر .

اللســـان العربى

ان لكل دين لسانا ، ولسان دين الاسلام (العربى) ولكل لســان آداب ومن هذه الآداب تحصل ملكة الاخلاق وعلى حفظها تتكون العصبية .

ويجب تعميم اللسان العربى بين من دان بالاسلام من الاعاجم ليفقهوا أحكامه ، ويمشوا على سنن الارتقــاء بعلومه وآدابه ، ومــكارم أخلاقه ومحاسن عوائد أهله .

فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم ، بشكل الدين الظاهرى فقط ، بل بفهم أحكامه والعمل بآدابه ، وذلك ما تم ولا يتم الا باللسان وهو أهم الاركان .

(قوله فى المحافظة على اللغــات الشرقية وتاريخها)

يجب أن نعلم أن عوامل غريبة مهلكة تبدو فى أول مظهرها خفيفة الوطأة سهلة المأخذ لا ضرر من التسامح فيها وهى :

أسلوب عجيب لاضعاف لغة القوم والتدرج فى قتل التعليم القومى وتنشــيط القائلين من الشرقيين بأن ليس فى لسانه العــربى أو الفارسى أو الأوردو الهندى .. الخ آداب تؤثر ولا فى تاريخهم مجد يذكر ، وأن المجد كل المجد لذلك الشرقى الخامل أن ينفر من سماع لغته،وأن يتباهى بأنه لا يحسن التعبير بها (١) .

اجتهاده فى اللغة العربية كاجتهاده فى الدين

قال المخزومى (باشا) فى خاطراته (٢) :

كنت سببت هذا الكتاب بعد أن أخذت (بتحريره !) « جمال الدين الافغانى فى البلاط السلطانى ، » فلما سمع السيد منى ذلك نفر قائلا « ان هذا العنوان ليس لهذا المقال بطبيق ــ قل (خاطرات) ولا تزد » ، فأجبت انى أفعل ــ ولكن نبهنى الى كلمة (خاطرات) أحد الاصدقاء وهــو من المنهمكين فى قواميس اللغة ــ وقال لا يصح أن تجعل عنــوان ذلك الاثر المفيد مما ينتقده أهل اللغة ــ لان خاطرات لم ترد بالمعنى الذى تريده من جمع وكتابة آراء وأفكار جمال الدين ، والاقرب الى الصواب أن تقول (خواطر)

---

(١) راجع صحفة ١٨٠ من كتاب « صيحة جمال الدين الافغانى » .
(٢) صحفة ٢٢ و٢٣ .

ـ لا أن تقول (خاطرات) لانها تفيد الوساوس ـ فلما كاشفت جمال الدين بذلك ابتسم وقال رحم الله (الفيروز آبادى) حيث قال (خذوا لغتكم من أعجمى) ورحم الله الفرزدق وجرير والحطيئة حيث قالوا للمتهوسين بالمتعامل المشهور ، القائم مقام ضوابط وقواعد اللغة وآلاتها من صرف ونحو اليوم (علينا أن نقول وعليكم أن تتقولوا) قال : ويعجبنى أحدهم اذ مضى فى انشاد قصيدته على مسمع من معارضيه ومهاجميه ـ فأورد ذكر الجمل فى مكان الناقة . فقال معارضه (استنوق الجمل) ثم ذهب مهرولا . ذلك شأن أساطين اللغة فى ابان شبابها ، وزهوها ، ونضارة بلاغتها ـ فقل (خاطرات) ولا تبال بمن فسد لسانهم ، ولا يصلحون الا الى الاجوف والمهموز ، ولا يحسنون جملة تنقر حبة القلب او تطرب السمع .

وقال المخزومى : وقد عرف جمال الدين بكثرة أخذه بالقياس ونفوره من التقيد بالسماعى وقد قال يوما : سياسة نفروتية فى مملكة فرعونية ، ولما قيل له فى ذلك قال : كيف صح قولهم ملكوت وجبروت ـ هكذا يصح عندى « بقروت » .

(تجويزه استعمال الدخيل واللفظ الأعجمى

قال الأستاذ عبد القادر المغربى فى كتابه « جمال الدين » (١) :

قد عرف من رأى السيد الافغانى . انه يجوز استعمال الدخيل واللفظ الاعجمى فى الكلام العربى حتى روى عنه انه قال : اذا أردتم استعمال كلمة غير عربية فعليكم الا تلبسوها (كوفية وعقالا فتصبح عربية..) وقد كنى بالكوفية والعقال عن التعريب فكما أن الرجل الاعجمى اذا مسته لبوس العرب يصبح عربيا فى ظاهره ، كذلك الكلمة الاعجمية اذا عربتها اى ألبستها صيغ الكلمات العربية . تصبح عربية جائزة الاستعمال وهذا من السيد توسع بعيد فى استعمال الكلمات الاعجمية ، يقبله بعضهم ويرده آخرون

(١) ص ١٠٦ــ١٠٨ .

وروى صديقنا الأمير شكيب ارسلان (رحمه الله) ان السيد جمال الدين قال فى قوله تعالى « وأنه تعالى جد ربنا » ان (جد) معرب (كد) ومعناه العرش بالفارسية أو الهندية .

ومن أشهر آراء جمال الدين التى تتعلق بأبحاث اللغة ما رواه الأستاذ اللغوى المرحوم الشيخ عبد الله البستانى من أن السيد قال فى هجو أحد البلداء : هذا رجل من نسل البقروت ــ قال فعابوا عليه استعمال كلمة (البقروت) فأجابهم : ألا تقولون جبروت ورهبوت وملكوت ؟ فلماذا تمنعون عنى قول (بقروت) ؟ فاعترضوا عليه بأن البقروت لم ترد فى كلام العرب ــ فقال وهل تريدون منى أن أنكر تفسى اهـ .

وقد علق الاستاذ البستانى على ما قاله الافغانى مستحسنا ، وعلق الاب انستاس الكرملى على قولهما مفندا مستهجنا ــ وعلقت أنا (المغربى) على أقوال الثلاثة ــ موافقا فى شىء ومخالفا فى شىء ــ ومما لاحظته على شيخنا الافغانى أنه جعل (بقروت) مصدرا بدليل حمله لها على (جبروت) و (رهبوت) و (ملكوت) وهى مصادر ــ ولا يصح أن تكون (بقروت) مصدرا فى العبارة التى قالها ــ اذ لا يقال فلان من نسل البقرية وانما يقال فلان من نسل البقر ــ والبقروت ليست بمعنى البقر ــ حتى قرأت للمرحوم المخزومى باشا أن عبارة جمال الدين هى (سياسة بقرونية فى مملكة فرعونية) ولما اعترضوا عليه أجاب : كيف يصح قولهم ملكوت وجبروت هكذا يصح عندى بقروت والسلام) هـ .

اذن لا غبار على ما قاله السيد فى عبارته المذكورة ، فانه انما استعمل (البقروت) فيها مصدرا لا جمعا كأنه قال سياسة بقرية وكأن من روى الخبر للاستاذ البستانى انما رواه من حفظه لا نقلا عن المخزومى باشا فى كتابه خاطرات جمال الدين ، وكلام المخزومى قد نقلناه اليك قبل كلام المغربى هذا

اشتغال السيد بالصحافة
وجهاده فى سبيلها عن العاملين فيها

لما منع شيوخ الأزهر السيد جمال الدين الافغانى من القاء دروسه فى الأزهر ، أخذ يبث تعاليمه بوسائل متعددة فكان يلقى دروسه فى منزله الذى اتخذه بحارة اليهود أو على (قهوة البوسطة) أو فى الطريق أو يخطب فى المجامع ، ولما أراد أن تتسع آفاق جهاده عمد الى نشر تعاليمه فى الصحف ولم تكن الصحف التى تصدر فى البلاد يومئذ لتعنى بالسياسة ، أو تستطيع أن تذيع أفكارا حرة جريئة كأفكار جمال الدين فسعى فى انشاء صحف باسم تلاميذه النجباء ليكتب هو فيها مع تلاميذه ومريديه ولما توسم فى تلميذه أديب اسحاق النجابة والذكاء حصل له على امتياز جريدة (مصر) وكذلك حصل له على امتياز جريدة (التجارة) ثم عهد الى تلاميذه النجباء وبخاصة الأستاذ الامام محمد عبده وابراهيم اللقانى أن يكتبا فى هاتين الجريدتين . وكان هو كما قال سليم العنحورى « يوصل هاتين الجريدتين بشذرات من فلسه البديع ، وخاطرات من فكره المزرى بلالأ الرقيع » .

وقد مر بك من قبل قول الاستاذ الامام محمد عبده « وأخذ الشيخ جمال الدين فى حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وارباب الاقلام على التحرير ، وانشاء الفصول الأدبية والعلمية فى مواضع مختلفة لا تخرج جامعتها عن اصلاح الافكار . وتهذيب الاخلاق ، فتسابقت الى ذلك الكتاب وتبارت الاقلام . وأخذت الحرية الفكرية تظهر فى الجرائد الى درجة يظن الناظر فيها انه فى عالم خيال أو أرضى غير أرض الخيال ، ومن يطلع على اعداد جريدة مصر وجريدة التجارة والأهرام وصداها يرى حقيقة ما ذكرناه

وكان السيد جمال الدين يكتب فى الصحف تارة باسمه ، ومرة تحت

حجاب اسم مصنوع مثل «مظهر بنوضاح» ، وبذلك طار صيته، وعظم نفوذه ، كما قال تلميذه ، أديب اسحاق .

الزمن الذى اشتغل فيه السيد بالصحافة

ولقد كان اشتغال السيد جمال الدين بالصحافة فى زمن يعتبر رجال الدين فيه أن الاشتغال بها يزرى بصاحبها، وأن مهنة الصحافة غير شريفة ولا يصح للمشتغل بها أن يعد نفسه بين الناس من الكرام الشرفاء .

كان الشيخ حسين الجسر رحمه الله وهو من كبار علماء الشام يكتب مقالات فى جريدة (طرابلس) بتوقيع منتحل وكانت تنشر مقالات أخرى لا يرضى عنها السيد جمال الدين لخروجها عن الخلق الكريم ــ واتفق أن تقابل الشيخ الجسر مع السيد فى المابين بالاستانة فذكر له السيد عدم رضاه عن بعض ما ينشر فى تلك الجريدة ، وأخذ الشيخ الجسر يدافع عن صاحبها وفى أثناء الحديث رجا الشيخ الجسر من السيد أن يخفض صوته فى الحديث معه لكى لا يسمع رجال المابين أنه صحافى يكتب فى الصحف !! فامتعض السيد وقال : « ولماذا يا أستاذ تحاذر هذا وتأبى الانتساب الى الصحافة ؟؟

الصحافة عمل شريف

الصحافة عمل شريف ، وأنا صحافى وكان لى فى باريس جريدة أكتب فيها (العروة الوثقى) فاحتج الشيخ الجسر وقال : ان مثله (أى مثل الشيخ الجسر) فى انتسابه الى علم الدين يزرى به فى نظر الناس الاشتغال بالصحافة ! فلم يقبل السيد عذره .

وكان الشيخ على يوسف رحمه الله صاحب جريدة المؤيد قد تزوج من السيدة صفية السادات (من أسرة البكرى ، شيخ مشايخ الطرق الصوفية) بغير ارادة والدها فرفعت دعوى شرعية للتفريق بينهما لانه ليس كفؤا لها وانه يعمل فى مهنة غير شريفة وهى الصحافة وكانت هذه الدعوى أمام الشيخ

(أبى خطوة) القاضى الشرعى ـ فحكم بأن الصحافى ليس كفؤًا للشريفات وقضى بالتفرقة بين الشيخ على يوسف وزوجه !!

السيد يتخذ من اليهود والنصارى اعوانا فى جهاده

ومما يذكر للسيد جمال الدين بالاعجاب انه اتخذ من اليهود والنصارى من يعاونه فى جهاده وقد كان مثل هذا العمل محظورا حينئذ عند شيوخ المسلمين الذين كانوا ـ ولا يزالون ـ يعتبرون أن اليهود هم المغضوب عليهم وان النصارى هم الضالون وهؤلاء وهؤلاء مأواهم النار وبئس القرار !

ولكن السيد جمال الدين كان بريئا من التعصب الممقوت فلم يصبه داؤه اذ كان يعلم أن دين الله واحد ، وان على أهل الأديان أن يتفقوا فيما بينهم كما اتفقت أصول أديانهم وكم سعى هو فى هذا السبيل ولكنه لم يفلح وترى دعوته هذه مسطورة فى كتابه (خاطرات جمال الدين) ونقلناها فى كتابنا (صيحة جمال الدين) .

ومن أجل ذلك لم يتحرج فى أن يجعل من معاونيه يعقوب صنوع وهو مصرى اسرائيلى وكان هذا الرجل يجاهد ضد الخديوى اسماعيل فى جريدتيه (الاحوال) و (أبو نضارة) بايعاز من السيد ، وأديب اسحاق المسيحى (١) وهو الذى حصل له على تصاريح صحفه كما علمت من قبل .

ومن تلاميذه الكبار ابراهيم اللقانى وكانت له صحيفة تسمى (مرآة الشرق) تولاها بعد صاحبها سليم عنحورى بايعاز من السيد جمال الدين ـ ومن تلاميذه ابراهيم المويلحى وكانت له صحيفة اسمها (مصباح الشرق) وقد صاحب السيد وهو بالاستانة ، وهناك ألف كتابه المشهور (ما هنالك) الذى وصف فيه مآسى ومساوىء دار الخلافة مما كانت عاقبته ان ذهبت ريح الدولة العثمانية وأصبحت فى خبر كان .

---

(١) لما انتقل أديب اسحاق الى جوار ربه وكان السيد حينئذ فى باريس رثته جريدة العروة الوثقى بقولها : قالت نائلة الدهر ، طراز العرب ، وزهرة الأدب رضيعنا أديب اسحاق ، قضى نحبه فى شرخ الشبوبية وعنفوان الفتوة ، وترك لنا قلوبا آسفة وشئونا فائضة ، انا لله وانا اليه راجعون .
ص ٤٤٤ من العروة الوثقى .

امر جمال الدين لله عجب

مما يثير العجب وان شئت فقل الدهش ان السيد جمال الدين وهو أول من اقتحم ميدان الصحافة الشاق فى زمن كان يحرم على رجال الدين الدخول فيه بل الاقتراب منه ، وان ينشىء فى مصر صحفا عديدة ليتوسل بها الى نشر دعوته فى الشرق بين أعاصير الظلم والطغيان ـ عند ما اصطلح عليه ظلم أعدائه المستعمرين الغاشمين والطغاة الحاكمين والشيوخ الجامدين فنفوه عن بلاده فى الشرق ، لم يركن الى الراحة والهدوء ، ولم يدركه اليأس ولا القنوط ، بل ظل يعمل بقوة فى الغرب كما كان يعمل فى الشرق ، غير هياب ولا وجل ـ وكأنه لم يصبه شيء ـ يجاهد بلسانه العضب وقلمه البليغ فيخطب فى المحافل ، ويحرر الرسائل ، ولم تقف به همته القعساء عند ذلك بل اتبع سنته التى انتهجها وسار عليها فى مصر فأنشأ هو وتلميذه الأكبر محمد عبده صحيفة (العروة الوثقى) بباريس ، ثم كان من المؤسسين للمجلة الشهرية (ضياء الخافقين) التى كانت تصدر فى لندن باللغة العربية والانجليزية ، وكان من أكثر العاملين فيها نشاطا ، ان هذه الأعمال لتشبه الخيال ، ولا تدور فى البال ، ذلك ان التفكير المجرد فيها ليدعو الى اليأس وتثبيط الهمة !

حقا ان ذلك لمن أعجب العجب ! ولكن لا عجب فانه جمال الدين الذى كل أمره عجب وكفى .

استعداد أهل أوروبا لقبول الاسلام لولا ..

قال السيد :

ان أهل أوروبا مستعدون لقبول الاسلام ، اذا أحسنت الدعوة اليه فقد قارنوا بين الدين الاسلامى وبين غيره فوجدوا البون شاسعا من حيث يسر العقائد وقرب تناولها ، وأقرب من أهل أوروبا الى قبول الاسلام أهل أمريكا لأنه لا يوجد بينهم وبين الأمم الاسلامية عداوات موروثة ولا أضغان مدفونة مثلما هو الحال بين المسلمين والاوربيين .

والقرآن من أكبر الوسائل فى لفت نظر الافرنج الى حسن الاسلام ، فهو يدعوهم بلسان حاله اليه ، لكنهم يرون حالة المسلمين السوآى من خلال القرآن فيقعدون عن اتباعه والايمان به ، فاذا أردنا اليوم أن نحمل غيـرنا على الدخول فى ديننا ، وجب علينا قبل كل شىء أن نقيم لهم البرهان ــ على أننا متمسكون بخصال الاسلام .. والا لم نكن مسلمين كاملين .

وأفاض السيد فى (بيان) مزايا القرآن وتعاليمه السامية : من ذلك أنه (أى القرآن)أول من دلنا على الوصول الى الحقائق بالطريقة الفلسفية وهى (لمه) و (ولماذا) ، اذ أن معظم آيات القرآن واردة فى معرض : لم كان الأمر كذا ؟ ولماذا كان الأمر كذا ؟ وتكليف المخاطبين أن يعطوا الجواب المعقول على هذا السؤال ، وليست الفلسفة سوى ذلك .

قال : ومن مزايا القرآن « أن العرب قبل انزال القرآن عليهم كانوا فى حالة همجية لا توصف ، فلم يمض عليهم قرن ونصف من الزمان حتى ملكوا عالم زمانهم ، وفاقوا أمم الارض سياسة وعلما وفلسفة وصناعة وتجارة ، وكل هذا لعمرى لم ينتج الا عن هدى القرآن ــ فالقرآن وحده الذى كان كافيا فى اجتذاب الامم القوية وهدايتها جدير أن يكون كافيا اليوم أيضا فى اجتذاب الامم الحديثة وهدايتها .

ولما انتهى الحديث بالسـيد الى هنـا تنفس وقال : لولانا ! لولانا ! القصور منا والتبعة علينا انصرفنا عن الأخذ بروح القرآن والعمل بتعاليمـه ومضامينه الى الاشتغال بألفاظه واعرابه والوقوف عند بابه ، دون التخطى الى محرابه .

رأى السيد فى اصلاح حال المسلمين

قال السيد :

اننا معشر المسلمين ــ اذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه ؛ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخـرنا

الا عن هذا الطريق ــ وان ما نراه اليوم من حاله ظاهرة حسنه فينـــا (من حيث الرقى والاخذ بأسباب التمدن) هو عين التقهقر والانحطاط ، لاننا فى تمدننا هنا مقلدون للامم الاوربية ، وهو تقليد يجرنا بطبيعته الى الاعجاب بالاجانب والاستكانة لهم والرضا بسلطانهم علينا ، وبذلك تتحــول صبغة الاسلام التى من شأنها رفع راية السلطة والغلب الى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الاجنبى . ثم قال :

لابد من حركة دينية : وهى اهتمامنا بقلع ما رسخ فى عقول العــوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقى ، بعث القرآن وبث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت من حيث يأخذ بهم الى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى .

ولابد من تهذيب علومنا وتنقيح مكتبتنا ووضع مصنفات فيها قريبة المأخذ سهلة الفهم لنستعين بها على الوصول الى الرقى والنجاح .

دين الاسلام

اذا نظرنا فيما بين أيدينا من الاديان وجدنا دين الاسلام قد أقيم على أساس من الحكمة متين ، ورفع بناؤه على ركن لسعادة البشر ركين . ذلك أن عروج الامم على معارج الحق الأعلى وتدرج فى مدارج العلم الاجلى ، وصعود الأجيال على مراقى الفضائل واشراف طوائف الاتساق على دقائق الحقائق ونيلهم السعادة الحقيقية فى الدارين ، كل ذلك مشروط بأمور لا يتم الا بها .

الامور التى تتم بها سعادة الأمم

الاول : صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الاوهام ، فان عقيدة وهمية لو تدنس بها العقل لقامت حجابا يحول بينه وبين حقيقة الواقع ويمنعه من كشف نفس الأمر ، بل ان خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية وتدعوه بعد ذلك أن يحمل المثل على مثله فيسهل عليه قبول كل وهم ، وتصديق كل ظن ، وهذا مما يوجب بعده عن الكمال ويضرب له دون الحقائق ستارا لايخرق ، وفوق ذلك ما تجلبه الاوهام على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة والخوف مما لا يخيف والفزع مما لا يفزع .

ترى الواهم المسكين يقضى حياته بين رجفة واضطراب يتطير من طيران الطيور وحركات البهائم ويضطرب من هبوب الرياح ، وينزعج لقصف الرعد والتماع البرق ، ويسلك به الوهم طرق الخيفة مما لا أثر له فى الاخافة وبهذا يسجل عليه الحرمان من أغلب أسباب السعادة ، ثم يكون ألعوبة فى أيدى المحتالين وصيدا فى حبائل الماكرين والدجالين .

أول ركن بنى عليه الاسلام

وأول ركن بنى عليه الدين الاسلامى ، صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهيرها من لوث الاوهام ، فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله متفرد بتصريف

الاكوان ، متوحد فى خلق الفواعل والافعال ، وان من الواجب طرح كل ظن فى انسان أو جماد ، علويا كان أو سفليا ، بأن له فى الكون أثرا بنفع أو ضر أو اعطاء أو منع أو اعزاز أواذلال .

الركن الثانى

الركن الثانى : أن تكون نفوس الامم مستقبلة وجهة الشرف طامحة الى بلوغ الغاية منه ، بأن يجد كل واحد من نفسه أنه لائق بأية مرتبة من مراتب الكمال الانسانى ما عدا رتبة النبوة فانهــا بمعزل عن المطمع وانمــا يختص الله بها من يشاء من عباده . ولا يذهب وهم أحد من الامة الى أنه ناقص الفطــرة منحط المنزلة فاقد الاســتعداد لشىء من الكمالات ، فاذا أخذت نفوس الناس حظها من هذه الصــفة ، أعنى الاقبــال على وجــوه الشرف ، تسابق كل مع الآخر فى مجالات الفضائل وتمادت بهم المجــاراة الى محاسن الاعمال فبلغ كل واحد ما أتى عليه سعيه من عاليات الامــور وشرائف المراتب .

ولو أن قوما أساءوا الظن بأنفسهم واعتقدوا أن نصيبهم من الفطرة نقص الاستعداد وخسة المنزلة ، وأن لا سبيل لهم الى الوقوف فى مصاف غيرهم من طبقات الناس ، فــلا ريب يسقط من هممهم على مقدار ما ظنوا فى أنفسهم وبذلك يتولى النقص أعمالهم ويملك الخمود عقولهم فيحرمون معظم الكمالات البشرية ، وينقطعــون دون كثير من مقــامات الشرف الدنيوية ، وتكون جولتهم فى دائرة ضنكة محيطها دون ما ظنوا بأنفسهم .

ان دين الاسلام فتح أبواب الشرف فى وجوه الانفس وكشف لها عن غايته وأثبت لكل نفس صريح الحق فى أى فضيلة ، وأنبأ كل ذى نطق بوفرة استعداده لأى منزل من منازل الكرامة ومحق امتياز الاجناس وتفاضــل الاصناف وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلى والنفسى لا غير ، فالناس انما يتفاضلون بالعقل والفضيلة ، وقد لا نجد من الاديان ما يجمع أطراف هذه القاعدة .

فلديك دين (برهما) قسم الناس الى أربعة أقسام : أحدهما (برهمن) وثانيها (جهترى) وثالثها (ويش) ورابعها (شودر) وقرر لـكل منزلته من كمال الفطرة (درجة) لا يجاوزها ــ وكان هذا التقسيم سببا فى انحطاط المتدينين بهذا الدين وقصور خطاهم عن الرقى فى مدارج المدنية وانحسار أفكارهم دون الوصول الى ما يطلبه استعدادهم من المعارف الصحيحة ، والعلوم الحقة ، مع أنهم أقدم الامم وأسبقها نظرا فى الكون وشئونه .

ومن الاديان ما يغلب اليوم على أمم من البشر وفى أصوله تفضيل شعب خاص على بقية الشعوب كشعب اسرائيل مثلا ، وكتابه المعـروف يخاطب أبناء ذلك الشعب بالكرامة والاجلال ، ويذكر غيـرهم بالتحقير والاهانة .. فارتفع امتياز الجنسية من بين أهل الدين وخلفه امتياز الصنفية فسمت منزلة الرؤسـاء الروحانيين فى قلوب الآخـذين بدينهم حتى صار من عقائدهم أن صنفا من الناس على منزلة القرب الى الله بحيث لا يرد الله له طلبه ثم هو الحجاب بين الله وبين سائر الاصناف لا يقبل الله من أحد صرفا ولا عدلا ولا يعتد له بايمان ولا يغفر له ذنبا بتوبة حتى يتوسط له أهل طبقة الرياسة ، فعندهم أن كل نفس وان بلغت من الكمال ما بلغت ليس فيها ما يؤهلها لعرض ذنوبهـا على أبواب العفو الالهى ، ولا أن ترفـع اليه طلب المغفرة لخطيئاتها ، بل لابد فى قبول ذلك منهـا أن يكون بواسـطة الرئيس الدينى ــ ومن آمن بالله وصدق به وأخذ بأحـكامه لا ينظر الله لايمانه حتى ينظر اليه الرئيس الدينى ويعتده ايمانا ، واستندوا فى هذه العقائد على نصوص من كتابهم تفيد أن ما يحلونه فى الارض يكون محلولا فى السماء وما يعقدونه فى الارض يعقد فى السماء ، وقد جلبت هذه العقيدة على أهل هذا الدين شقاء طويلا . وألقت بهم فى جهالة عمياء وذلة خرساء زمنا مديدا حتى ظهر فيهم مجددون نقضوا ذلك العقد وخالفوا فيه مـا اشتهر من نصـوص الكتاب وقلدوا فى ذلك الدين الاسلامى وسـموا مذهبهم مذهب الاصلاح ، ونشروه فى ممالك متعـددة ، فلم يلبث قومهم بعد ذلك أن تكشفت عنهم جهالات وحلت من أعناقهم ربق ، ونهضوا من

حضيض ذلة الى ذروة رفعة فنطقوا بعد ما صمتوا ، وعلموا بعد ما جهلوا وحكموا بعد ما حكموا ، وسادوا بعدما سيدوا .

الركن الثالث

الركـن الثالث أن تكون عقـائد الامـة وهى أول رقـم ينقش فى ألواح نفوسها مبنية على البراهين القويمة والادلة الصـحيحة وأن تتحامى عقولهم مطالعة الظنون فى عقائدها وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها ، فان معتقدا لاحت العقيدة فى مخيلته بلا دليل ولا حجة ، قد لا يكون موقنا فلا يكون مؤمنا ، هذا والآخذ فى عقائده بالظـن ينصب عقله على متابعـة الظنون ، والقانع بأن آباءه كانوا على مثل عقيدته فأولى به أن يكون عليها يلتقى مع سلفه فى مضارب الوهم وفجاج الظن ــ وأولئك المتبعـون للظـن القانعون بالتقليد تقف بهم عقولهم عندما تعودت ادراكه فلا يذهبون مذاهب الفكر ولا يسـلكون طرائق النظر ، واذا اسـتمر بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدريج ثم تكاثفت عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم عن أداء وظائفها العقلية بالمرة ، فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر ، فيحيط بهم الشقاء ويتعثـر بهم البخت وبئس المآل .

فان كان لابد من الاستئناس لما نقول بقول أوروبى فهذا « كيزو » الفرنساوى صاحب تاريخ (سيفليزاسيون) أى التمدن الاوربى قال : ان من أشد الاسباب أثرا فى سوق أوروبا الى تمدنها ظهور طائفة فى تلك البلاد قالت ، ان لنا حقا فى البحث عن أصول عقائدنا وطلب البرهان عليها ، ولو كان ديننا هو الدين المسيحى ! وعارضها كثير من رؤساء الدين ومنعوها ما ادعت من الحق محتجين عليها بأن بناء الدين على التقليد ، فلما أخذت هذه الطائفة قوتها ، وانتشرت أفكارها نصلت عقول الاوروبيين من علة الغباوة والبلادة ، ثم تحركت فى مداراتها الفكرية ، وترددت فى المجالات العلمية ، وكدحت لاستحصال أسباب المدنية .

ان الدين الاسلامى يكاد يكون منفردا من بين الاديان بتقريع المتقدين بلا دليل وتوبيخ المتبعين للظنون وتبكيت الخابطين فى عشواء العماية والقدح فى سيرتهم .

هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم ، وكلما خاطب خاطب العقل ، وكلما حاكم حاكم الى العقل ، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة ، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة واهمال العقل وانطفاء نور البصيرة ويرفع أركان الحجة لاصول من العقائد كل منها ينفع العامة ويفيد الخاصة ، وكلما جاء بحكم شرعى اتبعه ببيان الغاية منه فى الاغلب (راجع القرآن الشريف) .

وقلما يوجد من الاديان ما يساويه أو يقاربه فى هذه المزية ، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة .

الركن الرابع

الرابع أن يكون فى كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الامة لا ينون فى تنوير عقولهم بالمعارف الحقة وتحليتها بالعلوم الضافية ولا يألون جهدا فى تبيين طرق السعادة لهم ، والسلوك بهم فى جوادها ، ثم طائفة أخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها وتثقيف أودها وتكشف عن الاوصاف الفاضلة وحدودها ، وتمثل للمدارك فوائدها ومحاسن غاياتها . وتفضح مستور الرذائل ، وتشق الحجاب عن مضارها وسوء منقلب المتدنسين بها ، وتشتد فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا تلهيها عنهما غفلة ولا تردها عنهما صعوبة

وذلك أن بداهة العقل حاكمة بأن جل المعارف البشرية ، والعقائد الدينية مكتسبة ،، فان لم يكن فى الناس معلم ، فصرف العقول عن درك ما ينبغى لها دركه ، وانقطعت دون الكفاية مما يلزم لسد ضرورات الحياة الاولى ، والاستعداد لما يكون فى الاخرى ، وساوى الانسان فى معيشته سائر الحيوانات ، وحرم سعادة الدارين ، وفارق هذه الدنيا على أتعس

الاحوال ــ فاذن من الواجب الدينى اقامة معالم. والشهوات النفسيهليس لها فى ذاتها حد تقف عنده ، ولا لرغائب الأنفس غاية تنقطع عنــدها ــ فان فقد من بين الناس مقوم النفوس ومعدل الاخلاق طغى سلطان الشهوة واندفع الى الحيف والاجحاف ، ومن طغت بهم شهواتهم سلبوا راحة غيرهم وهتكوا سترتهم ، ثم هم لاينفلتون من غائلة أعمالهم بل يحترقون بنيران شهواتهم فيرافقون الدنيا على عناء ويفارقونها الى شقاء ــ فاذن لابد من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر القائم بتقويم الاخلاق ، وان من أهم الاركان الدينية فى الديانة الاسلامية هذين الركنين .

راجع القرآن الكريم « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخــير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وغيرهذه الآية آيات كثيرة « فلولا نفــر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فىالدين ولينذروا قومهماذا رجعوا اليهملعلهم يحذرون » وســواها آيات ــ وقد برز دين الاســلام على غالب الآديان فى العناية بهذين الأمرين .

وحيث كانت أركان الدين الاسلامى بالغة حــد الكثرة فلو أخذت فى بيان ما يفيده كل ركن منها فى تقويم المدنية ، وتشييد بناء النظام الانسانى ، واقامة الدليل على ان كل أصل من أصول هذا الدين عنصر لحياة السعادة الانسانية لخرجت عن القصد من هذه الرسالة (رسالة الرد على الدهريين) التى ضمنها بهذه الامور .

راى السيد جمال الدين فى دين المستقبل

قال السيد محمد توفيق البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية سابقا .

قلت مرة للسيد جمال الدين الافغانى : ما هو دين المستقبل ؟

فقال (١) : هذه الآية من كتاب الله « ان الذين آمنوا ، والذين هادوا والنصارى والصــابئين ، من آمن بالله واليــوم الآخر وعمــل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

(١) ص ٦١٠ ج ٥ مجلة المنار .

وقال السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ، رحمه الله (١) :
سمعنا هذه المسألة من البكرى ، وقال امامنا :
ان السيد قال له : انقشوا هذه الآية على هرم الجيزة ، الى أن يجيىء المستقبل بتفسيرها .

ذرو مما قيل في وصــــفه

نرى من الحق الذى يقضى به التاريخ أن نأتى هنا بذروهما قاله فيه بعض تلامذته ومعاصريه ، مع شيء قليل من تراجم بعض مؤرخيه ، وقد كان علينا ان نأتى بكل ما قيل فيه ، ولكن الكلام قد طال عما كنا نقدره له .

واذا كنا قد أوردنا من قبل مجمل سيرة السيد بقلم الاستاذ الامــام محمد عبده تلميذه الاكبر فانا نأتى هنا بمختصر من مقال طويل كتبه تلميذه النجيب أديب اسحاق لانه يروى عن خبرة وعلم : قال رحمه الله (٢) .

هو الحكيم الخطيب البالغ الحجة ، النبيه المتوقد الذكاء الجرىء الذى لا يعرف الخوف ، النسيب السيد جمال الدين الحسينى الافغانى ، ولــد بكابل فى بيت شرف وعلم ، طلب العلم بالفارسية والعربية على ما جرت به عادة الامراء والعلماء فى بلاده فتبحر فى المنقول والمعقول وغلبت عليه مذاهب قدماء الحكماء فداخله فى ذلك بداءةبدء شيء من التصوف فانقطع حينــا بمنزله يطلب الخلوة لكشف الطريقة وادراك الحقيقة ، حتى صار له فى القوم كثير من الاتباع والمريدين كل ذلك وهو دون العشرين سنا ، ثم خرج من خلوته مستقر الرأى على حكم العقل ، وأصول الفلسفة القياسية .

وبعد أن تكلم أديب عما جرى من الوقائع بين محمد أعظم خان وأخيه شــير على قال : شــهد الحروب وحضر الوقائع فازداد جراءة واســتخفافا بالموت وأقام على ذلك تسعة أعوام لا يرى الراحة ولا يستقر بمكان .

وبعد أن تحدث أديب عما جرى للسيد فى الهند وفى الاستانة وتغــير شيخ الاسلام عليه هناك لواقعة حال جرت فى مجلسه وابعاد الســيد عن

---

(١) ص ٩٣ ج ١٢ مجلة المنار .
(٢) ص ٨٥ الى ص ٨٧ من كتاب الدرر .

الاستانة مرغما قال : عرف السيد وهو بالاستانة رياض باشا (رئيس الوزراء فيعهد اسماعيل باشا) واتصل منه بأسباب مودة فقصد وادى النيل عام ١٨٧١ ـ فجرت بينه وبين بعض علماء الأزهر مناظرة أفضت الى المنافرة فانقطع الى منزله وصار له فيه حلقة تدريس يحضرها كثير من الطلبة بل من المدرسين ثم صارت حلقته ملتقى للنبهاء من رجال الحكومة والوجهاء ، فكان يكاشف بعضهم بآرائه الحرة ، ويسلك بسائرهم طريق النجاة من الخرافة والجهل . على أنه بقى مجهول الشأن عند العامة حتى ظهرت آثاره وآثار مريديه فى جريدة مصر ، فأظهرت شأنه ، وصارت تنشر له بعض المقالات تارة باسمه ، وتارة تحت حجاب اسم مصنوع مثل (مظهر بن وضاح) فطار صيته وعظم نفوذه .

وكان السيد جمال الدين كثير التطلع الى السياسة ، شديد الميل الى الحرية ، قوى الرغبة فى انقاذ المصريين من الذل ، فلما عظم التداخل الاجنبى فى مصر ، واختلت أمورها المالية علم أن لابد من تغيير أحوالها ، فرام انتهاز تلك الفرصة لجمع الكلمة على مبدأ الحرية ، فدخل الماسونية ، وتقدم فيها حتى صار من الرؤساء ثم انشأ محفلا وطنيا ، ودعا مريديه من العلماء والوجهاء اليه فصار اعضاؤه نحوا من ثلاثمائة عدا ، وعظم اقبال الناس عليه حتى ان توفيق باشا ولى العهد قد طلب الدخول فيه .

وكان صاحب الترجمة شديد الكراهية لدولة الانكليز جهر بذلك غير مرة ونشر فى جريدة مصر فصولا ناطقة به خصوصا بعد اعتداء الانكليز على أبناء أبيه فهاجوا عليها وترجمتها جرائد لندرة واهتموا بها كثيرا حتى ان المستر غلادستون تولى بنفسه أمر الجدال فى موضوعها ، فلما عظم شأن محفله داخل الخوف منه قنصل انكلترا فوشى به الى الحكومة وبث الرقباء فى المحفل فسعوا فيه فسادا وفى خلال ذلك بلغت أحوال مصر نهاية الارتباك والاختلال ، فظهر للسيد جمال الدين أن الخديوى اسماعيل مخلوع لا محاله ، فكشف الغطاء عن مقاصده السياسية وأخذ يسعى فى انفاذ أغراضه فلقى المسيو تريكو قنصل جنرال فرنسا ومكاتب التجسس وكلمهما بلسان حزب كبير ، فهال أمره بعض أمراء المصريين ،

فقويت بذلك حجة وشاته ، وتفذت سعاية أعدائه فأمر الخديوى الجديد بنفيه فى أواسط رمضان سنة ١٢٩٦ فأخذ غلسا ، وقضى على من كان فى حلقته . وبعد أن أتم أديب القول فى أمر نفيه قال :

عرفت صاحب الترجمة بمصر وكنت من مريديه ، وخاصة محبيه ، طول مدة الاقامة بالمحروسة (١) والاسكندرية ـ فكلامى فى ترجمة حاله عن علم واختبار ، على أننى ملتزم فيه جانب الصدق ، برىء من الهوى ،يعرف هذا كل من عرف السيد جمال الدين والله على ما أقول وكيل ا.هـ ملخصا .

وقد قال اديب اسحاق انه كتب هذه الترجمة والسيد بحيدر أباد وهاك ما قاله : « وهو الآن بحيدر أباد مرفوع المكان عالى المقام » .

وكتب أمير البيان المجاهد الكبير الأمير شكيب أرسلان (٢) كلمة رائعة فى تاريخ السيد جمال الدين جعلها فى تعليقاته المستفيضة التى طرز بها كتاب « حاضر العالم الاسلامى » تأليف الكاتب الأميركى الكبير لوثروب ستودار . وقد صور فيها الأمير حياة السيد بالاستانة ، وأيامه الأخيرة فيها وحقق أسباب موته تحقيقا لم نجده فى مصدر آخر الا فيما كتبه جورجى كوتشى بما قاله مع الاختصار :

فيلسوف الاسلام وعلم الاعلام ، وكوكب الاصلاح الذى أطلعه الله فى أفق المشرق بعد أن اشتد به الظلام ، حجة الشرق الناهضة ، وآية الحق الباهرة .. بلغ من شهرته واللهجة بذكره ، والضراوة بعبقريته ولاسيما بمصر والشام وسائر البلاد العربية ، ان ترجمة حاله تكاد تكون أحدوثة الجميع فلا حاجة الى الاطالة بجميع تفاصيلها ، ولا الى الاحاطة بغررها وحجولها

وقد اتفق أرباب النظر فى هذا العصر على أن قدوم السيد جمال الدين الأفغانى الى مصر كان مبدأ الحركة الفكرية ، التى بدأت فى البلاد

---

(١) المحروسة من أسماء مدينة القاهرة .
(٢) قال السيد جمال الدين للأمير شكيب عندما قابله بالاستانة سنة ١٨٩٢ .
« أنا أهنىء أرض الاسلام التى أنبتتك » .

العربية وسائر الشرق الادنى ، ولم تزل تنمو الى الآن رامية الى تحقق الشرق بالمعارف التى ساد بها الغرب ، ورفع سيطرة هذا عن ذاك ، واعادة الشرق سيرته الأولى من الرقى .. وكانت له حلقة خاصة فى منزله انتظم فيها عدد من أدباء القطر ، يستفيضون بحر حكمته ، ويستمطرون صوب صوابه ، واشتهر منهم الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سليمان ، وابراهيم أفندى اللقانى ، والسيد وفا القونى ، وسعد باشا زغلول (١) الذى قيل لى أنه أدرك أخريات أيام السيد بمصر ــ ولازمه ثلة من أدباء الشام النازلين بمصر مثل أديب اسحاق وسليم النقاش وسعيد البستانى وغيرهم .. واندفع مريدوه وحملة علمه يكتبون ويخطبون ويبثون الى الملأ ما التقطوه من فوائده وماانتظموه من فرائده، وكان ذلك لسانا عاليا لاعهد للناس بأمثاله وأسلوبا راقيا انقطعت منذ قرون عديدة نسبة رجاله ، فأحدث فى الأمة حركة أفكار لم تكن من قبله ، ونفخ فيها روحا سرية ظهر عليها طابع عرفانه وفضله فنشطت همم . واستجدت عزائم ، وهبت قوى وفاضت قرائح .

.. ولم تكن الثورة التى أحدثها السيد جمال الدين فى السياسة بأقل منها فى المعارف . ولعمرى هاتان توأمان ، فقلما انتشر العلم فى مكان الا هتف بالحرية وأول أثر ظهر لجمال الدين فى ميدان السياسة هو الحركة التى هبت فى أواخر أيام الخديوى اسماعيل وآلت الى خلعه من الخديوية ــ وكان للسيد اليد الطولى فيها .

خيانة توفيق

ولما جلس توفيق باشا على كرسى مصر . شكر لجمال الدين مساعيه ، لكن لم يطل الأمر حتى دبت عقارب السعاية فى حقه وجاء من دس الى الخديوى الجديد أن السيد لن يقف عند هذا الحد وقد تحدثه نفسه بثورة ثانية ، وباقامة حكم جمهورى .. وما أشبه ذلك .. فصدر الأمر فجأة بنفى جمال الدين ــ وجرت الحركة العرابية فى غيابه ..

صحيحه ــ وانما كان من تلاميذ الامام .
(١) لم يكن سعد من تلاميذ السيد الذين كانوا يتلقون عنه دروسه العاليه وروايه الأمير

.. ومما لا مراء فيه أن المبدأ الذى رأس تلك الحركة كان من زرعه هو وان كان قد هب على ذلك الزرع من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية ولفحه من الدسائس الأجنبية ما صوح نضرته وأذهب ثمرته ، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحدث فى الشرق أو حركة اصلاح تشفق من ورائها الدول أن تتمزق حجب الغباوة التى هى أصدق عوامل الاستعمار .

الا أن ذلك الزرع لم تذهب بذرته من الأرض وعاد فأخرج شطأه وما زال ينمو حتى استوى على سوقه (١) ، يعجب جمال الدين لو عاش الى اليوم . ويغتاظ به الذين لا يبرحون مماطلين فى الجلاء عن مصر .

تابين مجلة الهلال

وقالت مجلة الهلال لصاحبها جورجى زيدان ما ملخصه (٢) :

قد تمر القرون وتتوالى الأجيال والناس على ما ساقتهم اليه الحاجة فى شئون معاشهم لا يفقهون غثها من سمينها ، ولا يدركون مبدأها ولا مصيرها حتى تتمخض الطبيعة فتلد من أبنائها أفرادا يميطون عن أسرارها اللثام ، فيرى الناس من ورائه شرائع ونواميس كانوا عنها غافلين . أولئك هم أقطاب العلم وأنوار العالم ، ومنهم الفلاسفة الطبيعيون الذين مزقوا أستار الجهل وكشفوا غوامض الطبيعة فمهدوا سبل الاختراع والاكتشاف ، ومنهم الفلاسفة العقليون الذين استطلعوا أسرار الحكمة المستترة وراء تلك النواميس وبينوا ما أودعه الخالق فى خليقته من الفوائد العقلية والروابط الأدبية .

ولكن الطبيعة لا تجود بواحد من أولئك الأفراد الا كل بضعة قرون ، فيسير الناس على خطواته أجيالا ، حتى اذا كادوا يرجعون الى غيهم جادت

(١) وتم الجلاء عن مصر والحمد لله بفضل ثورة سنة ١٩٥٢ ، وبلغت روح جمال الدين الآن بتحقيق كل ما كان يريده من تنكيس الدولة الانجليزية عن الهند وايران ومصر ، وان شاء الله عن سائر الممالك الاسلامية والشرقية . وقد حطمت هذه الثورة المباركة رأس الاستعمار وأسرعت بعونها استقلال البلاد وحريتها من بين فكى الاسد البريطانى على جبروته وتم تمام الاستقلال بتأميم قناة السويس وأصبحت مصر حرة فى أمورها الداخلية مرهوبة الحمية بين الدول فى أمورها الخارجية .

(٢) نقلنا هذه الترجمة عن تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده ص ٩٩ ج ١

عليهم بآخر ينفث فيهم روحـا حية فينتبهون من رقادهم ، ويعـودون الى رشدهم ريثما يأتيهم ثالث .

هكذا كان شأن العالم فى بدء عمرانه ومن أولئك الفلاسـفة سقراط وأفلاطون ومن تقدمهم ، وجاء بعدهم من فلاسفة اليونان والرومان والفرس والعرب وغيرهم من علماء المعقول والمنقول ممن لا نزال نستضىء بنبراسهم .

ولـكن لله فى خلقه حكمة لا تدركها العقـول ، فقد ينبغ فى بعض الأجيال أفراد توفرت فيهم قوى الفلاسفة ومواهب رجال الأعمال فتحيط بهم بيئات لا تسلح لنماء ما يغرسون فيذهب سعيهم هباء منثورا .

ولما كان الانسان لا يقدر العمل الا بنسبة ما يترتب عليه من الفائدة كان نصيب كثير من عظمـاء الارض جهل الناس حـق قدرهم ، واغفال التاريخ ذكرهم كما هـو شأننا بفقيد الشرق الفيلسـوف الخطيب السيد جمال الدين الافغانى رحمه الله ، فقد نشأ قطبا من أقطاب الفلاسفة وعاش ركنا من أركان السياسة ، ولكنه مات ولم يتم عمـلا ولا ألف كتابا على أن ذلك لا يحط من مقامه ، وقد رأينـا أعظم فلاسفة اليونان « سقراط » قد مات ولم يدون شـيئا من كلامه ، ولكن تلامـذته حفظـوا فلسـفته ودونوها فتوارثتها الأجيال خلفا عن سلف ، فعسى أن لا نحرم من مريدى الأستاذ وتلامذته — من يفعل مثل ذلك .

السيد جمال الدين
للعلامة «جولدسيهر»

وممن ترجم للسيد جمال الدين ، العلامة غولد سيهر (١) المستشرق المجرى المشهور شيخ المستشرقين فى العلوم الشرعية وصاحب التصانيف العديدة ، فله فى دائرة المعارف الاسلامية ترجمة خاصة للسيد مطولة نجتزىء منها بما يلى :

« السيد محمد بن صفتر ، من أعاظم رجال الاسلام فى القرن التاسع عشر . وكان له تأثير عظيم فى حركات الحرية والمنازع الثورية التى جدت فى العشرات الأخيرة من هذه السنين فى الحكومات الاسلامية ، وكانت حركته ترمى الى تحرير هذه الممالك من السيطرة الأوروبية وانقاذها من الاستغلال الأجنبى ، والى ترقية شئونها الداخلية بتأسيس ادارات حرة ، وكذلك كان يفكر فى جمع هذه الحكومات بأجمعها وفى جملتها ايران الشيعية حول الخلافة الاسلامية ، لتتمكن بذلك الاتحاد من منع التدخل الأوروبى فى أمورها . فجمال الدين بقلمه ولسانه كان أصدق ممثل لفكرة الجامعة الاسلامية ، وأسرته الشريفة تنتمى الى الحسين بن على بن أبى طالب بواسطة المحدث الشهير الترمذى ، فهو من أجل ذلك يلقب بالسيد .

ثم عرض غولد سيهر لمناقشة جمال الدين مع رينان فى أمر قابلية الاسلام للعلم فقال ما يأتى ، بالحرف الواحد ، بعد أن روى نبأ سفر السيد من الهند الى أوربا بعد نفيه :

« وقد فتحت له أشهر الجرائد وأعظمها نفوذا أبواب المراسلة فنشر فيها مقالات ممتعة عظيمة القيمة على السياسة الشرقية التى كانت تتنازعها انجلترة والروسية ، وعلى أحوال تركيا ومصر ، وعلى معنى حركة المهدى

---

(١) من ص ٣٠١ الى ص ٣٠٢ ج ٢ من كتاب حاضر العالم الاسلامى .

السودانى • وفى ذلك الوقت جرت بينـــه وبين أرنست رينان المناظـــرة التى أساسها محاضرة ألقاها رينان فى الســـوربون عن الاسلام والعـــلم . فجمال الدين أراد تفنيد مزاعم رينان بعدم قابلية الاسلام للتوليد العلمى ، وذلك فى مقالة بجريدة (الدبا) ترجمت أيضا الى الألمانية . ثم بعد ذلك بقليل ترجمت محاضرة رينان مصحوبة برد من قلم حسن أفندى عاصم .. الخ (١) » .

مما لا خلاف عليه أو المراء فيه ان الاجماع قد انعقد على أن الســـيد جمال الدين الافغانى هو الموقظ الاعظم للشرق وانه باعث نهضته فىالعصر الحديث

قال الأمير شكيب أرسلان :

مما لا مشاحة فيهأن السيد جمال الدينالافغانى هو الموقظ الأعظم للشرق وان طريقته ستزداد انتشارا ومبادئه ستطبق فى يوم من الايام الشرق بأجمعه فيسأل الخلف عن أحوال حياته ، ويستقصون عن خواطره ، ويجدون فى جمع آثاره ـــ كما نرى الأوروبيين اليوم يحرصون جد الحرص على اكتشاف أقل شىء يعزى الى عظيم من عظمائهم سواء فى خبر أو أثر .

ومن غريب ضرائب البشر انهم لا يحرصون على آثار عظمائهم فى حياتهم معشار ما يحرصون عليها بعد ذهابهم .

وهكذا شأننا مع جمال الدين ومحمد عبده وغيرهما من كبار المصلحين ، فكلما تقادم عليهم العهد ، حرص الناس ـــ من آثارهم ـــ على اللفظة الشاردة ، والكلمة الفاردة ليكتبوها عنهم بماء الذهب ا.هـ .

رحم الله أميرنا فقد كان حسن الظن بالشرق وأهله ، وانه سيبلغ ما بلغ اليه الغرب من الحرص على آثار العظماء ! ولكن الشرق هو الشرق !!

ولو أنه كان معنا اليوم ورأى ما نلاقى فى سبيل نشر تاريخ السيد جمال الدين وآثاره من العنت والاعتراض بل والمعارضة من جميع الهيئات العالمية رسمية كانت أو غير رسمية لأدركته الحيرة ولهاله الامر ولطلب الرحمة على الشرق وأهله عامة ، والمسلمين منهم خاصة ولا حول ولا قوة الا بالله .

---

(١) بينا لك من قبل ما جرى بين السيد وبين رينان مفصلا •

وقال الاستاذ برنار ميشيل : أيان ذهب جمال الدين كان يترك وراءه ثورة تغلى مراجلها ، ولسنا نعدوالحق ــ أو نكون مبالغين ــ اذا قررنا أن جميع الحركات الوطنية الحرة وحركات الانتقاض على المشاريع الاوروبية التى نشاهدها فى الشرق ترد أصولها مباشرة الى دعوته .

وقال الكاتب الكبير تشارلز آدمس فى كتابه الاصــلاح والتجديد فى مصر :

ولقد عمت جهود هذا الرجل النابه البلاد الاســلامية كلها والممــالك الأوروبية ذات الصلات بها ، كأفغانســتان وفارس وتركيا ومصر والهنــد ، اتصلت به جميعا وأحست بأثره القوى الذى هزها هزا عنيفا (١) .

فهو الذى أوحى بالثــورة الفارسية التى بدأت بالهيــاج ضد احتــكار التنباك فى سنة ١٨٩٦ وانتهت بوضع دستوره أغسطس سنة ١٩٠٦ ــ فعهدها فى نشأتها الأولى بالنصح والارشاد ثم والاها بالتشجيع والتأييد .

وقال الاستاذ الجليل مصطفى عبد الرازق :

السيد حامل لواء نهضة الشرق الحديثة واذا كان السيد جمــال الدين قد أثار فى الشرق عاطفة التذمر من الغرب ، فما ذاك الا لأنه كان عدوا للظلم كله ، وكان يحارب فى الشرق ظلم الظالمين ، وكان يريد للشرقيين أن لا يتحملوا من الغرب ظلما ولا هضما .

وسيكتب الناس فى جمال الدين ــ ماذكروا نهضة الشرق الحديثة التى هو بلا ريب حامل لوائها .

عاش السيد متنقلا فى البلاد

وقال كذلك :

وقد عاش متنقلا فى البلاد منذ طفولته فزار بلاد العرب ومصر وتركيا وأقام بالأفغان والهند وفارس . واتصل بحكومة الأفغان فى شبابه مشتركا فى

---

(١) قد بيا أثر السيد فى عدة البلاد بالتفصيل فى فصول خاصة لكل بلد ومملكة .

حروبها الداخلية كما اتصل بحركات النهوض فى كل بلاد الشرق التى حل بها . وزار كثيرا من العواصم الاوروبية وكتب فى جرائدها وخطب فى مجامعها وخالط رجال السياسة والعلم والأدب فيها ، وشهد دسائس الاستعمار الانجليزى فى الافغان والهند وايران وفى كل مكان . وطارده الانجليز فى مصر وغيرها ، وأماتوا مجلة العروة الوثقى فى مهدها ، ووضعوا العقبات فى سبيله أنى سار !

من أجل ذلك لم يتعلق ببلد من البلاد على أنه وطن ، ولم تدخل فكرة الوطنية بهذا المعنى فى مذهبه الاجتماعى (١) ومن أجل ذلك اشتد كرهه للانجليز وعاش عدوا لهم لدودا . هو قد رأى الرقى فى بلاد أوربا ورأى الانحطاط فى بلاد الشرق التى زارها . شهد نفوذ الأجنبى فيها وسوء أثر الحكم الاستبدادى ، فتوجهت فكرته الى انهاض تلك البلاد جملة وفرادى .

ولهذه الممالك الشرقية الاسلامية حب فى نفسه ينتظمها جميعا .

أما أساس النهوض لهذه البلاد عنده فهو خلاصها من سلطان الأجنبى وخلاصها من الحكم الاستبدادى ، ثم تلاؤمها بنوع من الوحدة يقوى التناصر بينها ويكفل لها الغلبة . وان استيفاء النظر فى تاريخ السيد جمال الدين هو كما يقول الاستاذ براون ـ احاطة بتاريخ المسألة الشرقية كلها فى الازمان الحديثة . يدخل فى ذلك تاريخ الافغان والهند ويدخل فيها بوجه خاص تاريخ تركيا ومصر وايران وفى هذه البلاد الثلاثة الاخيرة لا يزال تأثيره حيا .

واذا كان قبر السيد جمال الدين الافغانى فى الاستانة مهدما مهجور حتى جاء مستر كرين الامريكى فشيده وأظهره ، فبحسب السيد أن مبادئه بعد مماته وموت الطغيان فى الاستانة ، قامت حية مشرقة على أطلاله .

---

(١) كان أفغانيا فى الافغان ايرانيا فى ايران هنديا فى الهند حجازيا فى الحجاز مصريا فى مصر تركيا فى بلاد الترك وكان اذا سئل عن وطنه اجاب : ليس لى وطن على الأرض الا بلاد المسلمين . يشير الى أنهم غرباء فى أوطانهم مادام الاجانب يسيطرون عليهم ص ٢٥ جمال الدين للمغربى .

حسب جمال الدين من عظمة ومجد ، أنه فى تاريخ الشرق الحديث اول داع الى الحرية وأول شهيد فى سبيل الحرية

وقال الكاتب الكندى الكبير وليام مكلورى فى فصل كبير عقده فى كتابه (حركات التنوير فى الشرق) — كتب فى أوله :

وكانت أقوى مشاعل حركة التنوير القومى والفكرى فى الشرق هى التى حملها السيد جمال الدين الافغانى الذى تخرج على يديه وفى مجالسه الكثيرون من أبناء مصر والبلاد العربية .

قضى حياته مثل الطير على الغصن

قال الامير شكيب وهو يؤرخه :

ولما حاول السلطان عبد الحميد أن يعلق قلبه بالمال والبنين ، ويشغله بزينة الدنيا وراوده على الزواج ، فأبى وأعرض ، وقال له : (قضيت حياتى مثل الطير على الغصن ، فلا أريد فى آخر أيامى أن أتعلق بعائلة » .

وكنت سامرا مرة عنده وعن هذا الموضوع فقال أحد الدمشقيين يا مولاى لماذا لا تتأهلون ويكون لكم الذرية الصالحة ؟ فلم يعجبه قوله ، ولما انصرف الرجل ، أقبل على السيد وقال « لم تدخل روح الفلسفة فى هذه الأمة وليس مراده التزهيد فى الزواج وانما تقرير حقيقة وهى أن الفلسفة لا تبالى بالنسل والذرية ، وأن الفلاسفة قلوبهم فى شغل شاغل عن ذلك »

السيد جمال الدين الأفغاني
خطيب الشرق

قال جورجي زيدان يصف مجلسه وخطابه ، وذلك فى مجلة الهلال :

كان السيد ذا عارضة وبلاغة ، لا يتكلم الا باللغة الفصحى بعبارات واضحة جلية ، واذا آنس من سامعه التباسا بسط مراده بعبارة أوضح ، فاذا كان السامع عاميا ، تنازل الى مخاطبته بلغة العامة .

وكان خطيبا مصقعا لم يقم فى الشرق أخطب منه .

وقال اللغوى الكبير ابراهيم اليازجى فى مجلة البيان :

هو خطيب الشرق الذى رن فى الخافقين صدى خطابه ، وأمله الذى انبثقت أنوار اليقين من سماء محرابه ، وأستاذ علومه الذى ما فتئت الحكمة تتدفق بين فؤاده ولسانه ،وتطلع شموس البلاغة من بين خاطره وبيانه ، وتجرى مناهل العرفان بين أقلامه وبنانه ..

وقال الاستاذ : ا.ج براون

كانت فصاحته لا تجارى ـ خطيبا كان أم كاتبا ـ وكان لطلعته هيبة فى النفس وعظمة وجلال ، كان فيلسوفا وكاتبا وخطيبا وصحفيا .

وقال الفيلسوف الدكتور شبلى شميل فى ترجمته للسيد يصفه خطيبا :

« وقف خطيبا فى قوم ـ وكان ذلك بمسعى أديب اسحاق وفى تياترو زيزنيا على محضر من جمهور غفير من علية القوم ، من رجال ونساء من السوريين والمصريين فألقى خطبة اجتماعية سياسية أبدع فيها معنى ومبنى وجرأة .

وبقى يرتجل الكلام نحو ساعتين من دون أن يبدو عليه أدنى تعب ، أو يتلعثم حتى خلب العقول ، وأقام الناس وأقعدهم ، كأنه رابطهم بسلاسل كلامه ، يلعب بهم كيف يشاء .

وقد أعجبنى منـه قوله فيها ـ وهو يتـكلم عن اسـتبداد الملوك ، واستماتة الشعوب ، « كأن الناس ليسوا شيئا ! والملك هو كل شيء ! ان قام قاموا ، وان قعد قعدوا !! .

تأبين مجلة البيـان

وكتب الأديب اللغوى الكبير الشيخ ابراهيم اليازجى فى الجزء الثانى من مجلة البيان الذى صدر فى أول ابريل سنة ١٨٩٧ تحت هذا العنوان :

السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى

هـذا جمـال الديـن أمسى نازلا جـدثا تضـمن منـه أى دفـين
قدر به عـم البـكاء على امرىء فقدت بـه الدنيـا جمـال الدين

نعت الينا أنباء الاستانة انسان عين الفضائل والكمال ، ومجمع أشعة الحكمة بل قطب دائرة العلوم على الاجمال ، رحلة البلغاء ، وقدوة العارفين ، وقاضى علوم الدنيا والدين ، السيد جمال الدين الحسينى الافغانى المشهور فرع الأرومة الزكية ، وسليل الحسب القائم من منصب السؤدد فى الذروة العلية ، فكان لمنعاه يوم اشتد وقعه على القلوب والمحاجر ، وطال فى وصفه أنين الاقلام فأمدتها بالدمع عيون المحابر ، وكيف لا وهـو خطيب الشرق الذى رن فى الخافقين صدى خطابه ، وأمـله الذى انبثقت أنوار اليقين من سماء محرابه ، وأستاذ علومه الذى ما فتئت الحكمة تتدفـق بين فؤاده ولسانه ، وتتطلع شموس البلاغـة من بين خاطره وبيانه ، وتجرى مناهـل العرفان بين أقلامه وبنانه .

ولما تحدث اليازجى عن أمره فى بلاد فارس قال :

وبعد أن أقام مدة ببلاد فارس ، شاع ذكره وتناقلت الألسنة فضائله وغزارة علمه وأدبه ، فتواردت عليه الخاصـة من وجوه البلاد وأمرائهـا وعلمائها ، ورأوا من كمال فضله وسعة معرفته بأحوال السـياسة والتاريخ وسائر العلوم قديمها وحديثهـا ، وتبحره فى معرفة الأديان مع ما رزقه من توقد الذهن وبلة المنطق وقوة الخطاب ، ما بهرهم وعظم به وقعه فى نفوسهم فانصرفت اليه الوجوه ، وملكته القلوب أعنة أهوائها .

وختم اليازجى كلامه بقوله :

وعجيب من مثل السيد على استضاءة بصيرته بنور اليقين ، وضم بين حاشيتى علم المتقدمين والمتأخرين ، ووقـوفه على يفاع من الحكمة يجمع الدنيا به بنظرة ، ويستقصى أطرافها بلمحة ، وقد تجـردت له عن زينتهـا وزخارفها ، وأماطت له اللثام عن أباطيلها وسفاسفها ، أن يبقى فى نفسه مكان شىء منها يقال له الرئاسة ، وتنزع همته الى حال من أحوالها تسمى السياسة بل ما كان أجدره وقد رزق من توقد الذهن وسعة المحفوظ ما كان فيه آية من آيات الله ، وأوتى من قوة الحكم وسرعة الخاطر ما انفرد به عن النظراء والأشباه ، ووعى فى صدره من أنواع العلوم العقلية والنقلية ما كان فيـه نسيج وحده ، ومن سياسات الممالك ، وتواريخ الامم ما عز على غيره من بعده ، أن ينزل نفسه من دنياه حيث أنزلته الفطرة ، ولا يتعدى ما قسم له القدر ووجد من نفسه علية القدرة . فيجعل أيامه وقفا على الاشتغال والنفع واستزادة ما شاء الله من العلوم مما هو متأهب له بالطبـع وتسطير ما يفتح به عليه مما غفل السلف عن تدوينه ، أو فاتهم الوصول اليه من علوم هذا العصر وفنونه ، ولو فعل لكان امام الدنيا بلا مدافع ، وكانت حياته طافحة بالفوائد والمنافع ، ولتجاوبت الآفاق من صدى ذكره بما لايأتى عليه كرور الليال ، ولا ينقرض الا بانقراض القرون والاجيال ، فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن ، وهو الكبير المتعال ، اهـ باختصار .

وقال الدكتور شبلى شميل الفيلسوف الكبير :

كان السيد جمال الدين ذا مقـدرة عجيبـة فى التحصـيل ، حتى انه يستفيد منك الشىء الجديد ويصبه فى قالب المعلوم المختمر ، ويوهمك انه معروف له منذ زمن طويل .

وقال تشارلز آدمس (علمه العزيز يجمع المعارف الاسلامية)

كان علمـه الغزير قد كسب له احتـرام العلماء وولاءهم فى الاقطار الاسلامية التى أقام بها ، وجذب الى حضرته طوائف من الطلاب المقبليـن على العلم ، المجدين فى تحصيله فعلمهم طرائقه فى التوفيق بين الاوضـاع التاريخية للدين والفلسفة فى الاسلام ، وبين نتائج الفكر العلمى الحديث

وصف دقيق للسيد جمال الدين
بقلم المرحوم الدكتور أحمد أمين

كان السيد جمال الدين الافغانى شعلة ذكاء ، وقوة هائلة ، متحـركة محركة ، لا يمسها ماس الا شحن من كهربائه ، على قدر استعداده ، دائم التفكـير ، دائم القـول لمن يفهم ومن لا يفهم ، دائم النقد ، دافعا للحـركة والثورة ، والهيجان فى المطالبة بالحقوق ، حيثما حـل رأيت نارا تشتعل ، وأفكارا تهيج، ومطالب تطلب، وحكومة تضـطرب — قد حدد غرضه فى الحياة ، ووهب نفسه للوصول اليه ، وهو انهاض الدول الاسـلامية من ضعفها ، وتبصرة شعوبها بحقوقها ، ورفع نير الاجنبى عنها ، وتحديد مركز الحاكم والمحكوم فيها ووسيلته فى ذلك ، تنوير عقول الخاصة من أبناء كل دولة حتى يعرفوا مركزهم واعداءهم لمهاجمة الغاصبين من الأجانب والمستبدين من الحكام .

وقال سليم العنحورى فى شرح ديوان (سحر هاروت)

وفى خـلال عام ١٨٧٨ زاد مركزه خطرا فى البلاد ، وسـما مقامه لانه تداخل فى السياسات وتولى رياسة جمعية الماسون العربية وصار له فى مصر أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية مثل « محمود باشا البارودى »

وعبد السلام بك المويلحى النائب المصرى فى دار الندوة ، وأخيه ابراهيم كاتب الضبطية ، وكثر سواد الذين يخدمــون أفكاره ، ويعلون بين النـــاس مناره من أرباب الاقلام من مثل الشيخ محمد عبده وابراهيم اللقانى وعلى بك مظهر والشاعر الزرقانى وأبى الوفاء القونى فى مصر ، وســـليم نقاش وأديب اسحاق وعبدالله نديم فى الاسكندرية . فتغيرت ثم لهجتـــه فى أحاديثه وأخذ يقرب منه العوام ويقول لهم أثناء مكالماته ما معناه :

انكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم بحجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون مذ زمن الملوك الرعاة حتى اليــوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحــين ، وتعنــون لوطأة الغــزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضــون ! وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط وأنتم فى غفلة معرضــون ، فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حياة ، وفى رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة ، ولما صبرتهم على هذه الضعة والخمول ، ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم ضاحكون ، تناوبتـــكم أيدى الرعاة ثم اليـــونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك والعلويين ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم بأداة عســـفه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لاحس لكم ولا صــوت ! أنظروا أهــرام مصر وهياكل منفيس وآثار ثيبة « طيبة » ومشاهد سيوة وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم .

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبـــبه بالرجـــال فـــلاح

هبوا من غفلتكم ، أصحوا من سكرتكم ، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول ، عيشوا كباقى الامم أحرارا سعداء ، أو موتوا مأجورين شهداء .. الى غير ذلك مما من شأنه أن يحرك ــ لعلها يحــول ــ الماء فيجعله نارا ويتبر نسيم الصبا فيغادرها اعصارا . فبدأت تنتشر حركة الخواطر فى الديار

المصرية وأخذ القوم يشكون من حكومتهم متململين ، ويتطاولون بأعناقهم الى ما يقول مشرئبين .

الشرارة الأولى من شرارات الثورة العرابية

ومذ ذلك الحين طارت الشرارة الأولى من شرارات الثورة العرابية وكأن المؤلف قد لمح الى هذا فى بعض أعداد صحيفته « مرآة الشرق » بقوله فى جملته الافتتاحية :

أرى خلل الرماد وميض نار   وأخشى أن يكون له ضرام

فثار بعض قادة الجند على بولسن ودبلنيير الوزيرين الاجنبيين وأوسعوهما ضربا واهانة واجتمع فى بيت الشيخ البكرى ثم فى بيت راغب باشا لفيف من أعيان البلاد وعمد الارياف واجمعوا على تغيير الوزارة النوبارية ثم التوفيقية ، ثم زاد انتشار الخواطر الثورية وكسبت صحف البلاد أهمية ما كان لها أن تكسبها فى اسمى البلاد مدنية ..

ثم قال : ولم يمض زمن حتى انقلب دست » اسماعيل » وعلا أريكة الخديوية « توفيق » وكان من الواجدين على جمال الدين (١) ، فأخذ يجوس موامى أفعاله ويرود موامى أقواله . حتى علم أنه ممن ينزعون الى ابدال الحكومة المقيدة بجمهورية شورية ، فاغتاله بعض الشرطة وهو عائد عند بزوغ الفجر .

وبعد أن ذكر الكاتب مسألة قنصل العجم ــ وكان ماسونيا ــ وأنه عرض عليه مائة دينار برسم النفقة « كان ذلك وهو مأخوذ الى المنفى كما بيناه من قبل » فأبى ، على حين أنه لم يكن يملك ساعتئذ درهما قال :

وأما مكتبته فحجرت عليها الحكومة وضبطتها ، وأما خادمه « عارف أبو تراب » الذى صار بمعاشرته اياه ، وملازمته له فيلسوفا صغيرا حالة كونه أميا كبيرا ، فسجن زمنا ثم أطلق سراحه . وكان روح الثورة قد امتد

---

(١) كان نفوذ السيد جمال الدين قد عظم حتى بلغ مبلغا أزعج توفيق باشا وبخاصة لما علم أن السيد كان له يد فى ازال أبيه عن عرشه فاتفق مع مسيو فيفيان على نفيه .

فى القطر المصرى بحيث لم يكن اجلاء الافغانى الا ليزيده سريانا وانتشار .

وختم الكاتب كلامه بقوله :

وهو بالجملة والتفصيل آية من آيات القرن التاسع عشر ومعجزة من بدائع معجزاته .

المعلم الأكبر

وكتب الاستاذ الكبير المرحوم عباس محمود العقاد ترجمة للسيد جمال الدين فى كتابه (الاسلام فى القرن العشرين) استهلها بقوله :

المعلم الاكبر جمال الدين من أبناء الاقاليم الوسطى بين الهند والبلاد العربية ، وبلاد الدولة العثمانية ، وكانما شاءت العناية أن يولد حيث يتوسط العالم الاسلامى ، ويتولى فيه دعوة الاصلاح والتعليم من أقصاه الى أقصاه

وبعد أن تكلم عن أصله ونشأته ودراسته مما بيناه من قبل قال :

« واذا لخصت رسالة جمال الدين فى كلمتين ، فرسالته بالايجاز هى (الجامعة الاسلامية) ولكن الجامعة الاسلامية ، كما ارادها جمال الدين شىء غير الجامعة الاسلامية التى يراد بها توحيد الحكومات وضمها جميعا الى حكومة واحدة . وانما يتوقف فهم هذه الجامعة على مراجعة أحوال الامم التى درج جمال الدين وهو يستمع الى أخبارها ، ويشترك فى شئونها وهى بلاد الافغان وايران وقبائل الترك ومن ورائهم دولة بنى عثمان ؛ ومن حولهم مطامع الاستعمار ودسائسه فى أوج سلطان المستعمرين من البريطانيين والروس بعد اجتياحهم للهند وأواسط اسيا بزمن قليل .

فقد فتح عينيه على بلاد الافغان وفارس وعلى أعنف ما يكون من التنازع والبغضاء ، وكانت حكومة الهند البريطانية تستغل الخلاف بين الامتين فى المذهب والخلاف بينهما على الحدود ، كما تستغل حاجتها الى المال والسلاح ، فتغرى احداهما بالاخرى ، وتبذل لها من مالها وسلاحها ما

تقوى به على جارتها ، وتشترط عليها أن لا تعقد الصلح معها حتى تأذن لها والا قطعت عنها المدد والمعونة ، وكانت حكومة الهند لا تأذن بالصلح الا أن تكون الدولة المغلوبة قد نزلت عن دعواها فى الحدود الهندية .

وربما سكن القتال بين الافغان والفرس على مقربة من الهند لينشب بين الفرس والترك من قبل العراق وبحر الخزر بايعاز من الروس أو طلاب الرخص الاقتصادية ، وينتهى القتال من هنا وهناك بغنيمة للانجليز أو للروس وخسارة على الافغان والفرس والترك أجمعين .

وقد وضع جمال الدين يده على الداء كله حينما أدرك ان العلاج السريع لهذه المحنة انما يبدأ بالتوفيق بين الامم الاسلامية ، وكف المطامع والدسائس عن بلادها ، وكان يشق عليه كثيرا أن يرى هذه الامم كما قال : متحدين على الخلاف مختلفين على الاتحاد .. مطاوعين للمستعمرين والمستغلين ، جادين فى خدمتهم كأنها فريضة من الدين فعقد عزيمته على رسالة واحدة يتحراها مدى الحياة ، وهى حسم الخلاف بين الامم الاسلامية وايصاد الابواب على المستعمرين والمستغلين حتى تنقطع المطامع التى تسول لهم العدوان على الامم الاسلامية ، وايقاع الفتنة والشقاق بين حكوماتها وطوائفها .

وهذه هى الجامعة الاسلامية كما أرادها جمال الدين ، وفى سبيلها رحل الى الهند وبلاد العرب والاستانة ومصر وروسيا وفرنسا وانجلترا .

وقد خطر لجمال الدين يوما بأن يرسل تلميذه ومريده الشيخ محمد عبده الى السودان لتنظيم الثورة المهدية وتحويلها الى خدمة الجامعة الاسلامية وخطر له فى مصر أن يسقط الخديوى اسماعيل ويقيم فيها الجمهورية ..

وقد توسل جمال الدين فى رسالته بكل وسيلة نملكها يداه فأصدر فى أوربا صحيفة (العروة الوثقى) وصحيفة (ضياء الخافقين) وانشأ فى مصر محفلا ماسونيا بعيدا عن سيطرة المحافل الأجنبية ، وقيل أنه ألف فى مكة المكرمة جماعة (أم القرى) وهم بالسفر الى نجد لقيادة الحركة الوهابية ،

ولم يهدأ قط فى حياته عن عمل مستطاع يحقق به رسالة الجامعة الاسلامية واتهمه السلطان عبد الحميد بالعمل فى الاستانة على استمالة الخديو عباس الثانى الى تنفيذ مساعيه يوم زارها فى ضيافة السلطان ، وختم العقاد كلامه بقوله :

« وفارق الحياة ولم تتحقق مساعيه لأنها أكبر من أن تحققها جهود جيل واحد ، غير انه أحسن بذر البذور فلم تمت فى تربتها الصالحة وحق لمترجمه أن يقول : ان تاريخ الشرق الاسلامى فى ثوراته على الحكم المطلق وعلى مطامع الاستعمار والاستغلال لن ينفصل عن تاريخ جمال الدين الخ (١) .

ما قاله المرحوم أحمد لطفى السيد فى السيد جمال الدين

فى حديث له مع الكاتبة الفاضلة سكينة السادات ونشرته مجلة المصور وقد نقلناه هنا عن مجلة افغانستان (العدد ٥٨ من السنة الخامسة) وهذا نص الحديث :

قال :

كان جمال الدين الأفغانى رجلا قويا صاحب رسالة ثائرة على كل ماهو قديم منحرف ، يستند دائما الى حجة بليغة ومنطق قوى ، وكان كلما حل ببلد من البلاد ولم يعجبه نظامه قام بثورة فيه ! كما قيل عنه : انه الرجل الذى أرهب الامبراطورية الانجليزية ، رجل بمفرده استطاع أن يخيفها ؛ وكان ذلك فى الهند عندما ذهب يزورها ورأى الاستعمار الانجليزى اذ ذاك يضرب أطنابه فيها ، وشعر الانجليز بثورة جمال الدين الافغانى ؛ فأرسل اليه الحاكم الانجليزى انذارا بمغادرة البلاد خلال ٢٤ ساعة .

ثم قال : « ومن الكلمات المأثورة التى قالها جمال الدين الافغانى للهنود :

(١) ص ـ ١٢٢ ـ ١٢٥

« يا أهل الهند ، وعزة الحق ، وسر العدل ، لو كنتم وأنتم مئات الملايين من الهنود ، قد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة وخضتم البحر وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى ، لجررتموها الى القاع ، وعدتم الى هندكم أحرارا . »

ومن ثورات التحرير التى قام بها جمال الدين الافغانى ، واحدة فى أفغانستان بلده ومسقط رأسه ، وأخرى فى ايران ، وثالثة فى مصر ، وثورة رابعة فى تركيا .

وعندما غادر جمال الدين الافغانى الهند توجه الى تركيا . هناك أكرمه « عبدالعزيز » سلطان تركيا وعينه عضوا فى مجلس التعليم . ودرس نظم التعليم التركية ، فاكتشف أنها رجعية متخلفة ، وحاول اصلاحها .. وهال أنصار الجمود أن يحركهم جمال الدين من جمودهم ، فجمعوا جموعهم وطنوا كالافاعى فى أذن السلطان . قالوا له ان الرجل زنديق ملحد ، وأنه بأفكاره يشكل خطرا جسيما على مقدسات السلطان !

واستجاب السلطان لحاشيته ، فأخرج جمال الدين الافغانى من تركيا .. وجاء المجاهد العظيم الى مصر ، واشتبك مع الظلم فى عراك مرير ، كان يجوب الشوارع ، ويعقد الاجتماعات ، وبقى فى مصر ٨ سنوات . وكون لنفسه مدرسة كنت من تلاميذها ، وكان يقف معى فى الصف مصطفى كامل وسعد زغلول ومحمد عبده .

واستطرد بعد ذلك قائلا : وقد التقيت بجمال الدين الافغانى — لأول مرة — فى الاستانة فى صيف سنة ١٨٩٣ . كنت مارا باحدى المقاهى ، فلقيت هناك بعض المصريين ، بينهم سعد زغلول ، وكان وقتئذ قاضيا بالاستئناف ، والشيخ على يوسف ، وحفنى ناصف ، وكانوا يتأهبون لزيارة جمال الدين الافغانى ؛ فصحبتهم الى منزله ، وقابلته . فوجدته رجلا مهيب الطلعة ، قوى الشخصية ممتلىء البنية ، حاد الذكاء ، أبيض اللون ، أسود العينين ، مسترسل الشعر ، جذاب المنظر ، يلبس عمامة وجبة وسراويل ، على طريقة

علماء الآستانة ، وزرته مرة ثانية فى اليوم التالى ، وطلبت اليــه أن أتتلمذ عليه ، وعاهدنى أن ألازمه طول اقامتى بالاستانة ، ففعلت :

وقد أثر فى جمــال الدين الافغــانى ووسع فى نفسى آفاق التفكير ، وهدانى الى أن المرء لا يستطيع أن يربى نفسه الا اذا حاسبها آخر كل يوم على ما قدمت من عمل ، وما لفظت من قول ، وما خطر لها من خاطر .. ومن نوادره معى ، وقد كان رحمه الله طيب الحديث لطيف المعشر ، انه قدم لى يوما سيجارة فدخنتها ولما أعطانى الثانية اعتذرت . فقال لى :

« ألا ترى الانسان منذ نشأته الى الآن يأكل ويشرب ويلبس على خلاف فى الصورة فى العصور المختلفة .. ولكن الجوهر واحد .. فما الذى جد عليه حتى علا على نفسه فى القرنين الاخيرين فاكتشف البخار والكهرباء ! اشرب ياولدى اشرب ! ..

ومن نوادره أيضا .. « عندما جاء الى الاستانة على ظهر احدى المراكب، فأرسل اليه السلطان تشريفاتيا لاستقباله ومعه اثنان من الشياليں ، فلما لم يجد التشريفاتى ما يحمله الشيالون ، سأله :

ــ أين الملابس والكتب ؟

فقال رحمه الله :

ــ الملابس أرتديها ، والكتب فى رأسى .

ونختم نقولنا بمــا قاله مؤرخ العصر الحديث الاســتاذ الجليل عبــد الرحمن الرافعى

جمال الدين الأفغانى باعث نهضة الشرق

١٨٣٨ — ١٨٩٧

يقول الأستاذ الرافعى (١) :

ان الامم الشرقية جمعاء مدينة بنهضتها السياسية والفكرية الى الزعيم الكبير ، والفيلسوف الشهير ، السيد جمال الدين الافغانى .

ظل الشرق قرونا عديدة رازحا تحت الجمود الفكرى ، والتأخر العلمى والاستعباد السياسى ، وبقى فى سبات عميــق الى أن قيض الله له الحكيم الافغانى « جمال الدين » فنفخ فيه روح اليقظة والحياة ، وأهاب بالنفوس أن تنهض وتتحرك ، وبالعقول أن تستيقظ ، وبالامم والجماعات أن تتطلع الى الحرية ، فكانت رسالته الى الشرق مبعث نهضته الحديثة .

واذا أردنا أن نتبين فى كلمة عامة فضل جمال الدين ، ومدى الرسالة التى أداها ، فلنذكر أنه : كان فى حيــاته مصلحا دينيا ، وفيلســوفا حكيما وزعيما سياسيا ، فجمــع بين الزعامات الروحية والفكرية والســياسية ، واضطلع بها معا ، فأدى من الناحية الدينية مهمة الاصلاح والتجــديد التى أدى مثلها مارتان لوثير للمسيحية ، وأهاب بالامم الاسلامية أن تفهم الاسلام على حقيقته ، وترجع به الى مبادئه الصحيحة ، وفطرته الاولى ، وتطهره من الأوهام والخرافات التى أفضت الى تأخر المسلمين .

ومن الناحية الفكرية : أدى المهمة التى قام بها فى أوربا فلاسفة الفكر ، أمثال جان جاك روسو وموتتسكيو وغيرهما . فعمل على اناره البصائر ، وتوجيه الأفكار الى البحث عن الحقائق ، وتحرير العقول من قيود الجمــود والتقليد .

---

(١) ص ١٤٨ وما بعدها من الجزء الثانى من « عصر اسماعيل » .

ومن الوجهة السياسية : استنهض الهمم واستثار فى النفـوس روح العـزة والكرامة والتطلع الى الحـرية ، وغرس بذور الحركات الوطنية فى مختلف البلاد الشرقية ، وقام بمثل العمل الذى اضطلع به زعماء النهضات السياسية فى الغرب ، كواشنطون وجاريبالدى ومازينى وكوشوت وغيرهم

فالذى يجمع بين هذه المهام الجليلة ويضطلع بها معا ، فى عهد اشتد فيه ظلام الجهالة ، وتفرقت الكلمة ، وعز النصير ، وتشعبت الأهواء يجب أن يتسامى فى قوة النفس والفكر والوجدان الى مراتب العبقرية .

ويقيننا أن الامم الشرقية لم تقـدر حتى الآن حكيم الشرق حق قدره ولا أدت له حقه من الوفاء والتكريم ، وسيظهر فضله على مر السنين .

واذا كانت النهضة الفكرية والسياسية على عهد اسماعيل يرجع جانب كبير من ظهورها الى السيد جمال الدين رأينا واجبـا علينا أن نترجم لـه فى سياق الحديث وقد جعلنا معظم اعتمادنا فى وقائع الترجمة على ما كتبه تلميذه الاكبر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده .

واذا بلغنا الى هذا الحد من تاريخ السيد جمال الدين ، وغـادرنا جثمانه

الطاهر تحت اطباق الثرى بعد أن صعدت روحـه الطاهرة تشكو الى ربهـا بغى الظالمين عليها ، ومن فرطوا فى جنبها ممن يزعمون أنهم من المسلمين — نأتى بهذا الفصل النفيس الذى يبين فلسفة السيد وتصرفه .

جمال الدين الأفغانى
مذهبه الفلسفى ومشربه الصوفى
لسعادة العلامة الجليل الاستاذ صلاح الدين السلجوقى

يقول سعادته (١) :

ولد السيد جمال الدين الافغانى من أسرة عريقة فى المجـد والسؤدد لها تاريخ حافل فى البطولة والجهاد ، لم تلق السلاح منذ قرون . أمام أى معتد أو مغير حاربت المغول والسيخ ولم تهن ولم تحزن ، ولم يفتر لها عزم ولم يلن لها عود ، حتى لقد واجهت الاستعمار الغربى فى أشد عنفوانه عندما انحدر كالسيل العرم واكتسح القارة الافريقية والآسيوية ، واستعبد القارة الهندية المشتملة على أكثر من اربعمائة مليون نسمة .

وحينما كان السيد جمال الدبن فى صباه لم يكن حوله من حديث أو سمر يشغل البال أو يهم الناس ، الا أمر الهجوم الانجليزى على أفغانستان وقيام الافغانيين بشجاعتهم وبسالتهم قومة رجل واحـد لمحاربتهم وفتكهم بجنود الاستعمار وابادتهم عن آخرهم ، بحيث لم يبق من تلك الجنود التى كانت تقدر بعشرين ألفا الا الدكتور (برايدن) حتى كانت ميادين المعـارك مغطاة بجثث المستعمرين واشلائهم من كابل الى (كنر) مسقط رأس السيد جمال الدين ومغرس ولادته .

أسرة جمال الدين

فالسيد المولود فىأسرة من عترة النبوة،ولاسيما هذه الدوحة الكريمة المعروفة بجهادها وبلائها فى الحروب والتى تلتهب قلوبها غيرة على الدين وحبا للوطن ، والمشهورة بالمحافظة على اخلاق وسنن الرسول عليه الصلاة

---

(١) الاستاذ صلاح الدين السلجوقى كان سفيرا للدولة الافغانية فى الجمهوريه العربيـة المتحده (مصر وسوريا)

والسلام ، قد ألهم من هذا المحيط الروحى العالى والبيئة المشحونة بالدم والبارود شيئان :

الاول : أن أعضل الداء بل افتك الوباء والبلاء فى العالم الاسلامى أن يكون المسلمون خاضعين لغير الله ، وأن يلعب غير أهل الدين بدينهم وحكمهم وارادتهم وتقاليدهم وبخيراتهم واقتصادهم ، وأن يكونوا خاضعين صاغرين للاستعمار الغاشم .

الثانى : أن لهذا الداء الذى دتف به الشرق دواء شافيا ومحققا ، كشف عنه الافغانيون وجربوه غير مرة ، ألا وهو الايمان بالله والاستمساك بالمبادىء السامية والمثل العليا الدينية والخلقية ، والتحلى بفضائل الايثار والشجاعة والعفة ، والاعتصام بحبل الله المتين ، أى الوحدة فى الفكر والعقيدة والآمال والآلام .

فهذه كانت أول نواة فى مركز شخصيته المنظمة ، والشخصية المنظمة كما يقول (هيلدفيلد) وكثير من العلماء ، هى كالذرة أو كمنظومة الشمس يكون لها مركز كالبروتون أو كالشمس ، ويدور حوله الالكترونات أو السيارات والأقمار . فالنواة الاولى لشخصية السيد كان الوطن الاسلامى وحفظ كيانه وتدبيره ، ولذا كانت السياسة ، العمود الفقرى فى بنيان حياته ، والركن اليمانى فى كعبة تأملاته . فكل ما وهبه الله من علم وسيع وأدب رفيع ، وفلسفة عميقة (ولا شك أنه كان موهوبا من الله كل هذا) كان عنده أمور ثانوية تدور مثل السيارات والألكترونات حول مركزه العالى ، أعنى السياسة .

المحيط العلمى

وأما محيطه العلمى الذى يتمثل فى خراسان (أفغانستان) وبختونستان وشمال الهند من القرن السابع عشر حتى أيام السيد جمال الدين ، فقد كان اكثر ازدحاما وازدهارا بالعلم والحكمة والفلسفة من أى قطر آخر من الممالك الاسلامية ، ولاسيما فى المنطق والفلسفة والكلام . فقد نبغ فى تلك الديار

أمثال الشيخ محمود جونفورى والميرزاهد الهروى وملامحب الله البهـارى والقاضى مبارك ومولوى حميد الله ومولوى حبيب الله القندهارى والقاضى بشد الكنرى والحافظ دراز البيشادرى والمجاهد الكبير نجم الدين رحمه الله وملاسنبت وملافيروز ، وهؤلاء الخمسة الاخـيرون كانوا من معاصرى السيد جمال الدين على وجه التقريب .

وكان قد حدث فى تلك القرون الثلاثة الأخيرة تطور كبير فى المناهـج المدرسية فكان علم الكلام محشوا بالفلسفة ، والفلسفة مشوبة بالتصوف « الوحدة الوجودية » و « وحدة الوجود » كانت ملفقـة بالأدب ، وهـذا شىء يرى فى تلك المناطق ولا يرى فى البلاد العربية .

وهذه النزعة فى الدراسة قد بدأ بها أبو على ابن سينا فى آخر كتابه المعروف بالاشارات ، واتبعه فى هذا السلوك جلال الدين الدوانى والشيخ شهاب الدين السـهروردى وملا صدرا ومحمود جوتفـورى وكثيرون من أمثالهم ، فهؤلاء العلماء كانوا فلاسفة وكلاميين وصوفيين وأدباء .

فالسيد جمال الدين فى بدء شـبابه كأى طالب أفغـانى كان من هذا القبيل ، تعلم الدين والفلسفة والتصوف والأدب وأتم تحصيل دراسته على أكمل وجه

ولقد سـمعت أن السيد تتلمذ على القـاضى بشد والحافظ دراز ، وحبيب الله القندهارى الذين لا مثيل لهم الآن فى الأقطار الاسلامية وبخاصة فى علوم الفلسفة والمنطق ، على أن السيد ــ وقد نهم بالعلم أشد النهمة ــ لم يقف عند هذا الحد ؛ بل جاهد كثيرا فى سبيل الاطلاع على كل ما تبلغ اليه المدارس الفكرية (السياسية والفلسفية والعلمية الحديثة) .

ومن العجب الذى يصل الى حد الاعجاز أن السيد كان مطلعـا على روح تلك الدراسات وكنهها ، مع أن هذه المدارس لم تكن منتشرة اذ داك فى الشرق ، ولم تكن هناك تراجم ومترجمون تسعف طلاب العلم بما يدرس فيها ..

وكل ما تعلمه السيد فى المدرسة ، أو أنهم به من الآفاق ، أو طالعه فى الكتب (وقد كان السيد شديد الاهتمام بالمطالعة ويسهر لها لياليه) كان ذلك كله انما يدور حـول الأمور الاجتماعية والسياسـية ، وهذا هو دأب الفلاسفة الاقدمين ، ذلك بأن هؤلاء الفلاسفة كانوا أول ما كانوا أخلاقيين يكشفون عن أخلاق الفرد والمجتمع ، واننا نسميهم حكماء ، وفرق شاسع

بين الحكيم وبين العـالم لأن بعض العلماء ولا سـيما بعض الذين كانوا علماء طبيعين أو بيالوجيين حاولوا أن يطبقوا الفلسفـة الاجتماعية علومهم كما طبق « سبنسر » علم الأخـلاق على التنازع للبقاء والانتخاب الطبيعى والبقاء للاصلح ، أو كما طبقه « روزنبرج » على نظام الذرة .

أما الفيلسوف جمال الدين فقد كانت المسائل الاجتماعية عنـده هى مستقر أو مصدر فكرته الى حد أنه كان يحاول أن يجعلها مقياسا للامور الطبيعية أيضا ، فمثلا حينما يرد فى محاضرته (الرد على الدهريين) على أن المادة مركبة من ثلاثة أشياء (ميتيير ، فورس ، انتيلجانس) أى مادة وقوة وادراك ، يقول :

« وبعد هذا سأسألهم كيف اطلع كل جزء من أجزاء المادة مع انفعالها على مقاصد سائر الاجزاء ، وبأية آلة ، أفهم كل منها باقيهـا ما ينويه من مطلبه ، وأى بارلمان (مجلس النواب) أو أى سنات (مجلس الشـيوخ) عقد للتشاور فى ابداع هذه المكونات العالية التركيب البديعة التأليف . وأنى لهذه الاجزاء أن تعلم وهى فى بيضة العصفور ضرورة ظهورها فى هيئة طـير يأكل الحبوب ، فمن الواجب أن يكون له منقار وحوصلة لحاجته فى حياته اليهما . واذا كانت فى بيض الشاهين والعقاب فمن أين لها العلم بأنها تقوم طيرا يأكل اللحوم .

فلابد له من منسر ومخلاب يصول بهما فى الصيد لاقتناص ما يحتاج اليه من حيوان ثم ينسر لحمه ليأكله » .

وهذا الرد مع أنه من أجمل ما يكون بالعبارة وأتقن ما يكون فى الفكر حجة لها شكل اجتماعى بديع يصور الكون فى صورة مجلس النواب والشيوخ ، ولا يتصور النظام الا بهما .

ومع أن أساس تعاليم السيد جمال الدين الاساسية كانت يونانية (ارسطاطاليسية) وهذا أساس مدارسنا فى الشرق الاسلامى ، والسيد فى بعض الاحيان فى رده على الدهريين يتشبث بالتناهى واللاتناهى ، وبالجوهر والعرض وبالجزء الذى لا يتجزأ ، كما كان شأن أرسطو ، ولكنه فى غالب الأحيان يهجم على كل معسكر من الدهرية بنفس السلاح الذى استعملته المدرسة الحديثة ، وهذا ما يعطيه صبغة النبوغ والعبقرية بلا شك وبلا نزاع .

فشخصية السيد الكلامية كانت كالمنظومة الشمسية فى غاية النظام والاتقان ، وكانت كل مشاعره تدور حول مركز واحد هو الأمور الاجتماعية أو « الأشياء الانسانية » كما سماها أرسطو .

وكان الهدف والغرض من الأخلاق والسياسة عنده هو « الكمال » بالمعنى الذى كان يفكر فيه الشيخ آبوعلى بن مسكويه ومولانا جلال الدين الرومى « انبلخى » وبالطريقة التى أشار اليها « هيجل » وكومت لا بالأصول التى ذهب اليها لامارك وداروين ، وهو عبارة عن الانكشاف الروحى وتصعيد الغرائز ، والتخلق بأخلاق الله .

فالسيد فى تلك الناحية كان صوفيا . والصوفيون فى هذه المسألة عندهم نوع من التناقض الظاهرى ، لأن الكمال فى بدايته غاية الأخلاق ، والتخلق بأخلاق الله ، معناه أنه لا غاية للاخلاق يعنى « الوظيفة لأجل الوظيفة » وفى الحقيقة لا تناقض هناك لأن الصوفى لا يريد جزاء ولا شكورا الا ابتغاء وجه ربه والزلفى عنده ، وهذا هو فى ذاته غاية ، ولا غاية معها ، غاية لأن الاتحاد الشعورى مع الله هو « الكمال » وهذا هو الصوفى ، ولا

غاية أيضا ، لأن الصوفى ليس له هدف مادى دنيــوى أو أخــروى من سلوكه الا التخلق بأخلاق الله التى لا غاية لها ، فالله خالق لأنه خــالق لا لا لشيء آخر .

ومن العجيب أن السيد كان مطلعا على كل مناهج المدارس الفكرية والطبيعية والاجتماعية التى وجــدت فى أوربا خلال القرنين الســابع عشر والثــامن عشر حتى التى وجدت فى العصر الحاضر ، بروحهــا وجوهرها ومؤداها ، وكان قد درس الطبيعيات والبيالوجيا والتاريخ الطبيعى الحديث والنشوء والارتقاء ، كما اطلع أيضا على ما تدرسه المدارس السياسية على اختلافها (الديموقراطية ، والاشتراكية ، والشيوعية) وكان جرحه وتعديله ونقده ورده بفكرة اجتماعية يبعثها الدين ويسيرها العقل ويقودها الكمال الانسانى .

فمثلا يقول اذا اعتقدنا أن الانسان من روح الله فهذه العقيدة تخلق لنا كرامة وشرفا يقودنا الى العز والمجد ، ويرتفع بنا الى مستوى عــال من جمال الخلق ، وكمال الذات ، واذا ما ذهبنا الى أننا من سلالة القرد فليس لنا الا أن نتبع قانون الغاب ، ونهبط الى مستوى البهائم ، مع أنه يرد على تلك العقيدة بنفس السلاح الذى استعمله داروين ويقول : اذا كان قطع أذناب كلاب الغالبين فى جزيرة مدغشقر سببا لولادة كلاب بدون أذناب هناك . فلم لا يحدث ذلك فى الامم السامية الذين يختنون الأولاد من ألوف السنين ولا يوجد أولاد مختونون الا فلتة وندرة ؟! !.

فالسيد كان فى دينه موحدا ، وفى ســياسته داعيا بالوحــدة ، وكان يربط بين أجزاء الكون بعقيــدة وجود الله الذى هو أصــل الوجود ومنبع الشعور ومصدر الارادة ، وهذه كانت فكرته الصوفية ، وبهذه العقيدة كان يربط بــين الروح والجسم والمادة والمعنى وبين النظــام الطبيعى والنظام الأدبى .

فالصوفى بطريقة «وحدة الوجود» التى كان السيد يسلكها يرى الوجود الحقيقى فى الله سبحانه وتعالى ، ويرى المادة والقوة والشعور فى كل صفاته

ويرى ان الـكون مرآة لوجوده ، وأن أجزاء الـكائنات مظاهر لأسمائه الحسنى ، فمن وسعته تعالى كونت الطبيعة ، ومن علمه سبحانه خلق الشعور كما يقول سبنوزا ــ والله واسع عليم .

وهذا كان أساس تأملات السيد التى كسبها فى دياره أفغانستان ، فمنذ ستة قرون ظهرت فى أفغانستان وشمال الهند وفى جنوب فارس مدرسة أو مذهب أو مشرب يسمى « بالعرفان » وهذه الكلمة بفحواها قريبة من كلمة « الاشراق » .

وبعد الشيخ شهاب الدين السهروردى انقسمت المدرسة الى قسمين مدرسة « المشائين » أعنى مدرسة الاستدلال المنطقى الارسطاطاليسى الاستقرائى المتكىء على الفكر الخالص ، ومدرسة الاشرافيين الذين كانوا يجمعون القلب مع المخ ، ويسلحون العقل بالحدس والالهام ويزدوجون الحب مع الوظيفة ، وكان العلم ، ولا سيما علم الكلام عندهم ، مجموعة من الوعى والعقل ، والتصوف والمنطق والأدب ، والفرق بين الاشراق والعرفان ، أن الاشراق يطلق على الجانب العلمى والعرفان يستعمل فى الجانب الأدبى لهذا المذهب .

وهذا النوع من التصوف أعنى (وحدة الوجود) كان مؤيدا لفكرة الذرة الديمقراطية التى أيدها الدين الاسلامى ، لأن أهل الكلام مالوا عن فكرة الهيولى والصورة لأرسطو ، الى نظرية الذرة التى كانت عند ديمقراطيس .

وانى سمعت كثيرا يحكون أن السيد كان يترنم حينا بعد حين بهذه الأبيات للشاعر الصوفى (العراقى) المعروف :

نخستين باده كاندرجام كودند
زجشم مست ساقى وام كودند

جوخود كردند سرخويشتن فاش
« عراقى » راجرا بد نام كردند

معنى البيت الأول:

ان أول رحيـــق صـــبوها فى القـــدح

كان الذى اســتعاروه من عــين الساقى الســكرى

وهذه عقيدة الصوفيين الذين يقولون ان منبـع الحب بذاته قدسى سماوى مأخوذ من الجمال المطلق ، فالجمال عندهم مثـالى طلع من المشرق الالهى .

ومعنى البيت الثانى وهو آخر الغزل :

فلمـــا هـــم بنفســـهم أفشـــوا ســـرهم

فلماذا ألقوا التهمة على « العراقى » (أو لمــاذا أساءوا الى ســمعة العراقى)

وهذه هى عقيدة الصوفيين فى قضية « حسين بن منصــور الحلاج » فيقول الشيخ محمود الشبسترى :

ان كلمة « أنا الحق » التى قالها حسين بن منصور هى كشف مطلق للاسرار ، ومن الذى يتجاسر أن يقول « أنا الحق » الا الحق نفسه ؟ ففحوى كلام الشيخ الشبسترى أن الذى قال « أنا الحق » كان الحق ذاته ولم يكن منصور الحلاج الا شخصا فانيا فى الحق ولم يكن هو القائل .

فهذان البيتان من أعلى قمم التصوف ، والسيد جمال الدين كان مغرما بهما ، وهذا دليل واضح على أن السيد فضلا عن بيئته ومحيطــه العلمى والعرفانى والاشراقى ، كانت له نزعة عميقة الى التصوف .

ويروى عن السيد أيضا أنه كان يحاول أن يحل مسألة الأقانيم الثــلاثة عند المسيحيين ، أعنى « الأب والابن وروح القدس » بنظرية وحدة الوجود بمعنى أن الثلاثة هى بمثابة ثلاثة مظاهر لحقيقة واحدة ، كما كان سقراط يقول : ان الخير والحق والجمال ثلاثة مظاهر للحقيقة ، ومن هذا يظهر أيضا

أن السيد كان يحاول أن تتسع الوحدة بين المسلمين والمسيحيين الأمتين اللتين كان بينهما عطف وصلة وتعاون عريق منذ فجر الاسلام .

والسيد لم يؤلف كتابا ولا أسس مدرسة ، وهذه الآثار والمحاضرات التى تركها قد انبعثت من ضروريات فجائية وارتجالية للسيد ، فالسيد هو سقراط عصره . وسقراط النهضة الفكرية فى الشرق ، وفضلا عن ذلك فقد كان السيد مجددا ومحركا وثائرا ، ووراء كل حركة وثورة وتجديد ، وكان بعد ذلك كله من أشجع الناس .

يسمى « كارليل » « مارتين لوثر » : الراهب الشجاع ، ولكن السيد هو الفيلسوف المبارز الشجاع ، وكان من صفاته اللامعة أنه ما كان مقلدا ، بل كان يجاهد دائما فى أن يهشم قفل التقليد .

وكان أول أسباب نبوغه أنه كان يمتاز بأذن واعية ، كما كان دائم المطالعة ، وكان قد وقف على ثقافة الغرب بطريقة مثلى بعد ما استوعب تعاليمه الشرقية والاسلامية ، وحينما كان يلاقى علما أو بحثا أو مسألة ، كان يصهره فى بوتقته القائمة على الثلاث الأثافى (العقل والوحى والكمال) فكان يهرق الزبد ليذهب جفاء ، ويأخذ بما ينفع الناس .

ونختم هذا البحث بكلمات من السيد فى محاضرته « الرد على الدهريين » وأعتقد أن هذه الكلمات لا تترشح الا من فيلسوف كبير ، ومرشد دينى موقر ، وصوفى قديس :

« .. مع أن العقل مشرق الايمان ، فمن تحول عنه فقد دابر الايمان .

وان فرقا بين ما لا يصل العقل الى كنهه ، لكنه يعرفه بأثره ، وبين ما يحكم العقل باستحالته ، فالأول معروف عند العقل يقر بوجوده ويقف دون سرادقات عزته ، أما الثانى فمطروح عن نظره ، ساقط من اعتباره لا يتعلق به عقد من عقوده ، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه » .

وأنا حينما أحرر هذه الكلمات أرانى أجاوز العقد السادس من عمرى ، وقد ولدت فى أواخر أيام السيد جمال الدين ، وأشكر الله تعالى على أن

ارى ان النهضة واليقظة تتزايدان من بدء شعورى الى الان ، وحيثما سحر الله ، علينا أن نشكر السيد الذى كان المحرك الأول لهذه النهضة . فلم يمض ربع قرن على عهد السيد حتى انتفضت أفغانستان واستردت استقلالها ، وأخذت فى القيام بكل ما نحتاج اليه من اصلاحات ، وبعد ذلك عمت النهضة واليقظة جميع أنحاء الشرق .

ولا شك أنه كان فى المسلمين زعماء عسكريون أمثال صلاح الدين الأيوبى والسلطان محمود الغزنوى الأفغانى ، ولكن لا يوجد فى طبقات العلماء الفلاسفة والمفكرين شخص يضاهى السيد جمال الدين الافغانى ، لا فى الاسلام ولا فى سائر الأديان ، فلم نر غيره شخصا يفكر ويصلح ويرمم كل شىء ، ولا يخرب ولا يهدم ، ولا يعطل أى شىء ، فهو أول معمار يجدد المعبد ويرممه ، بدون أى تغيير أو أى تخريب .

فهو أول زعيم دينى وروحى قام بازالة الأنقاض والغبار المتراكمة من الخرافات والعادات الدخيلة ، والكسل والجمود والخمول على مبانى مبادئنا ، ودعانا الى النهوض والقيام على مثلنا العليا ، وأوطاننا واخواننا فى ظل الدين وعلى ضوء الأخلاق ، ورابطة حبل الله المتين الذى يجمع الوطن الاسلامى كله بدون أى تغيير فى كيانه .

ويعد السيد جمال الدين أول قائد ثائر مؤثر ، لم يحدث فرقة ولا طائفية ، لا فى الدين ولا فى الوطن ولا فى السياسة ، فهو من هذه الناحية أعظم بكثير من « مارتين لوثر » وغيره من الزعماء الدينيين والأخلاقيين فى أى دين وأى وطن ، فهو رحمه الله تعالى زعيمنا الموحد والأوحد فى الدين والأخلاق وفى السياسة علما وعملا ، أصلح ولم يخرب : رمم ولم يهدم ، جمع ولم يفرق ،تدين ولم يترك الدنيا ، استغنى ولم (يترهبن) تواضع ولم يكن وضيعا ، قابل فى القصور الملكية السلاطين بأنف شامخ ، وجلس مع أصحابه الفقراء فى المقاهى العامة بوداعة وتواضع ، لم يقبل الهدية فى أضيق الأحوال وأشد الأوقات ، ولو كانت آلافا من الجنيهات ، ولكنه كان يؤثر أن يتناول الرغيف الاسود مع كوبة من الماء ، أو فنجان من الشاى مع مريده وصاحبه المخلص .

صيحته لأهل الشرق جميعًا
«أيها النائمون تيقظوا»

للسيد جمال الدين صيحات كثيرة كان يرسلها فى جميع البلاد التى التى جاهد فيها ولا نستطيع أن نأتى بها كلها هنا وانما نشير الى بعضها .

لقد ساح السيد بين أقطار العالم الشرقى والغربى ـ الى الهند ومكة وبلاد العرب ومصر وطهران والاستانة وبطرسبورج وفينا وميونيخ ولندن وباريس الخ .

ورأى فى كل البلاد الشرقية موتا وتخاذلا وانكالا وقناعة وجهلا وبطالة وكسلا ومللا ، ورأى فى البلاد الغربية حياة وتعاونا وعلما وعملا ونشاطا وكدحا وعمرانا وحضارة .

وبينما يرى العلماء فى الغرب يتعاون بعضهم مع بعض على ما ينفع الناس ويريد العلم ، اذ يرى مثل الشيخ عليش فى مصر وحسن فهمى أفندى يعاونه أبو الضلال الصيادى فى الاستانة يقاومونه ويحاربونه حتى يقضوا عليه .

ونختم هذا الكتاب بذكر بعض صيحاته المدوية التى كان يوقظ بها الشرق من سباته .

ألا أيها النائمون تيقظوا ! الا أيها الغافلون تنبهوا ، ياأهل الشرق والناموس ! يا أرباب المروءة والنخوة ، يا أولى الغيرة الدينية ، والحمية الاسلامية ، ارفعوا رءوسكم تروا بلاء منصبا على أوطانكم ! وما انتم ببعيدين منه ، ولا معزل عنه ، ان لم يكن أصابكم اليوم فسيصيبكم غدا ! تساهلتم فى الذود عن حقوقكم المقدسة ، ولهوتم عما اضمرت لكم هذه الحكومة (يقصد الحكومة الانجليزية) فى الاهانة والتذليل وسوم الخسف وتعللتم بالأوهام ، فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغرور ، أصبحتم على شفا جرف المذلة ويخشى أن يقذف بكم بعد قليل فى جحيم العبودية .

ألا ان وقت التـــدارك ما فات فالأرواح فى الأجســاد ، والعقــول فى الرؤوس ، والهمم فى النفوس ، واقدام العدو فى زلل ، وشئونه فى خــلل ، فاثبتوا ولا تهنوا ، ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين ، لا ترضوا بالدون خوفا من المنية واعلموا أن ثباتا قليلا واقداما خفيفا فى هذا الوقت يفعل ما لا يفعله الجيش العرمرم .

فالثبات الثبات ، وحذار حذار من التوانى والتقــاعد ، وهذا وقت يتقرب فيه المؤمنون الى ربهم بأفضل عمل شرعى ، هذا وقت تنال فيه سعادة الدارين،للعامل فيه خير الدنيا ، وله فى الاخرة الحسنى وزيادة .. ألا ان الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوا أعداءكم ولا تكونوا كالذين استحبوا الحيــاة الدنيا على الاخرة . كونوا مع الله فى نصره ينصركم ، ويثبت أقدامكم ، ثقوا بوعد الله فلن يخلف الله وعده ان أخلصــتم له فى العمل ، ســلوا قلوبكم وامتحنــوا ايمانــكم ، ولا ترتابوا فى وعد ربــكم ، فلن يرتاب الا القوم الكافرون .

صـــيحة اخرى

انكم قد ضللتم عن رشدكم ، وتهتم فى بيداء غوايتكم ، وما يقوم لكم فى نقاعســكم عن الذود عن أوطــانكم ، ولقــد غلب عليــكم الجبن . واستولى عليكم الضعف ، واضعف جنانكم الخوف والخشية ، الا ترون ان كل أمر صعب عند الشروع ؟ أفلا تشعرون ان صــعوبة المسالك بمقدار عظم المقاصد ! وان الراحة محفوفة بالمشاق،وان أفضل الاعمال أحمزها (١) ؟ أفترضون بالعبودية للأجانب ، والا ستكانة للأباعد ، وان موت المرء خير من بقائه فى هذه الدنيا مع قلة مدتها ، وسرعة زوالها ، رقا لايملك من الأمر شيئا ، أتظنون ان هذا التعلل يدفع عنكم غضب رب الجنود ؟ لا وحقه ! انكم ان لم تدافعوا عن أوطانكم بنفوسكم وأموالكم لا تنالون منزلة لديه ، ولا تجدون مخلصا من سخطه ، وتبقون فى ذل العبودية ما دامت الأرض باقية ، وكل عذاب دونه لحقير ، فتشــجعوا وثبتوا أقدامكم ، وســكنوا

---

(١) احمز الاعمال أمتنها وقيل أمصها واشقها

روعكم ، واعلموا أن الظفر مقرون بالصبر ، وأيقنوا أن الراحة والسعادة في أثر المشقة ، وان سنة الله قد جرت من الأزل ، لأن لا ينال الانسان مرغوبه الا بعد التعب ، فلا تقدموا هذه الحجج الداحضة ، ولا تظهروا الفشل في طلب حقوقكم ، ولا تسربلوا بالجبن ، فان كل جبان محروم ، فاسعوا في اتفاق كلمتكم ، واجعلوا صدوركم مجنا لسهام أعدائكم مجدين في خلاص بلادكم ، واعلموا أن الأمم الغابرة والحاضرة ما فكت رقابها ولا كسرت أطواق العبودية الا بتحمل المتاعب والخوض في غمرات الموت .

صيحته لأهل الهنــــد

عندما أرغمه الانجليز على مبارحة بلاد الهند التفت الى أهلها وقال لهم :

« يا أهل الهند ، وعزة الحق وسر العدل ، لو كنتم وأنتم تعدون بمئات الملايين (ذبابا) مع حاميتكم ، البريطـانيين ومن استخدمتهم من أبنائـكم فحملتهم سلاحها لقتل استقلالكم ، واستنفاد ثروتـكم ، وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الألوف ــ لو كنتم أنتم مئـات الملايين ــ كما قلت ذبابا !! لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ويجعـل في آذان كبيرهم المستر (غلادستون) وقرا ولو كنتم ــ أنتم مئات الملايين من الهنود وقد مسخكم الله فجعلكم سلاحف ، وخضتم البحر واحطتم بجزيرة بريطانيـا العظمى لجررتموها الى القعر وعدتم الى هندكم أحرارا .

فما أتم كلامه حتى اذرف الحاضرون الدمع ، فصاح فيهم بصوت عال قائلا :

اعلموا أن البكاء للنساء والسلطان محمود الغزنوى (الذى فتح بلاد الهند) ما أتى الى الهند باكيا بل أتى شاكا للسلاح ، ولا حيـاة لقـوم لا يستقبلون الموت في سبيل الاستقلال بثغر باسم ، ثم نهض مسرعا مع رجال الحكومة الى حيث الباخرة التى أقلته ..

ما قال فى جهاده لمصر

وعزة الحق ، ان ما كتبته عن حق مصر ، وما استنهضت من الهمم وما حذرت به من سوء المصير ــ لو تلى على الاموات لتحركت ارواحهم ، ولرفرفت على اجداثهم ولأحدثت لأعدائهم أحلاما مزعجة ومراء مروعة .

كاد ان لا يخلو سطر من (العروة الوثقى) الا وفيه ذكر (مصر) ولا براهين وأدلة على ظلم الانجليز الا ويتمثل فى (مصر) ولا خوف من شر مستطير يفكك أجزاء السلطنة العثمانية الا ونراه من التهاون فى أمر (مصر) ذلك لان جرح مصر كان ــ ولم يزل ــ له فى جسم الامة الاسلامية ــ والعرب عموما ــ نغولا وبعروقها اتصالا .

ولا يفوتن أهل الشرق ، العلم بأن كل مدينة ، وكل مقاطعة اسلامية شرقية هى (بمنزلة مصر) وان لم تسقط تحت حكم أهل المطامع اليوم .

فالشراك منصوبة والسقوط ــ والعياذ بالله ــ قريب الا اذا نشطت العقول وعمل أولو العزائم ، ولمت الامم الشرقية شعثها ووحدت كلمتها وطلبت حفظ ملكها بأسبابه ، وعزة الحرية والاستقلال بمؤهلاتها .

ما قرعت آذان المسلمين والشرقيين عموما بالحجج القاطعة ، وهتكت أستار الطامعين بالبراهين الساطعة ، وأظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا محسوسا ــ الا لأقرب البعيد من زمن الاستعباد وأقصر طيات المسافة الذل والمهانة لمن لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية ، وله من الزمن ما يؤجل معه سقوطه ، ويلم شعثه ، ويمد بعضهم لبعض يدا ، عسى أن تكون يد الله فوق أيديهم .

كلمة مجملة فى تاريخه

هذا هو تاريخ السيد جمال الدين الافغانى عرضنا عليك فيه احداثه وحقائقه كما وقعت ، من يوم مولده ببلاده ــ الافغان ــ الى أن لقى مصرعه فى الاستانة العلية ، قضية الخلافة الاسلامية ، على يد السفاك الطاغية السلطان عبد الحميد وهامانه المجرم أبى الضلال الشيطان المريد .

وان الذى يدرس هذا التاريخ حق الدرس ، ليدركه العجب ، ويتولاه الدهش ، من أمر هذا الرجل ! اذ يجـد انه قد خـرج على النهج المألوف عند أمثاله ، وفى عصره وغير عصره ، اذ لو كان أمره قد جرى على جارى السنن ، فى بلده او غير بلده لما زاد شأنه عن أن يتولى امامة الصلاة فى احدى الزوايا ، أو يكون عريفا لاحدى التكايا ! لا يعنيه الا أمر نفسه ، ولا شأن له بغير شخصه ، ولا يهتم بشىء من أمور بلاده ، سـعدت تلك البـلاد أو خربت ! واذا رأ ى منكرا أو ظلما يقع على أحد قال ــ كما يقول أمثاله : دع الخلق للخالق ! واذا قيل له : لم أرسل الله الرسل ، وانزل الكتب ؟ قـال : مراد الخالق من الخلق ما هم عليه ! واذا لفت نظره الى ما يقترفه المستعمرون فى بلاد المسلمين ، قال : دعهم فلهم الدنيا ولنا الاخرة !! ولا يصح لنا ان نعترض على شىء لان شيوخنا قد قالوا (من اعترض انطرد) اى انطرد من الحظيرة القدسـية !

وهكذا مما نسمع مثله وأكثر منه من شيوخ الدين فى كل زمان ومكان .. ثم يظل هذا المسكين مغمورا فى حياته ، لا يكاد أحد يحس به ، الى أن ينتقل بالموت الى ربه ، شأن الالوف المؤلفة من قومه وغير قومه !

أما هذا الرجل (الافغانى) فانه لم يرض بما رضى به غيره ، ولم يقبع فى تلك الزاوية بل خرج ليضرب فى مناكب الارض كلها ، فلم تسعه بلاده ، ولا قارته ولا ما جاور قارته من القارات بل شملت همته الدنيا بأقطارها ، ولو وجد السـبيل الى السماء لصعد فيها ، ولم يكن ذلك الا لانه فطر على غير ما برأ الله غيره ، واوتى نفسا كبيرة لا تقف همتها عند حد :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الاجسام

وقد أثبت انه من سلالة بيت عظيـم ، ازدان بشرف النسب ، وعـلو الحسب، واعتز بالامارة والسيادة على أقاليم كثيرة من بلاد الافغان زمنا طويلا فهو بذلك قد تربى على مهاد الرفعة والعظمة وأتاه الله بعد ذلك نفسا عالية كما قلنا ــ وذكاء فائقا ونبوغا خارقا ــ وقد بدت آثار مواهبه من أول يوم عرف فيه الحياة ، ففى دراسته العلمية ، لم يقف عند ما كان يدرس فى معاهد بلاده من علوم ، فبعد ان استوعبها كلها دفعه نهمه للعلم الى سلوك سبيل لم

يتخذه أحد فى عصره ــ فرحل الى الهند،وأخذ عن عظماء البراهمة والاسلام أجل العلوم الشرقية ، وما ثقفوه من العلوم الغربية ، وبرز فى علم الاديان وتبحر فى لغة السانسكريت ام لغات الشرق حتى نبغ فى كل ذلك وأصبح فيها فردا يشار اليه بالبنان .

وبعد ان استوفى حظه من العلوم ، المعقول منها والمنقول ، وكل ما يثقف الافكار والعقول ، ساقته ارادته الى أن يستكمل اعداد نفسه لما هو مقبل عليه فى الجهاد وذلك بدراسة طبائع العمران ، وأحوال الاجتماع البشرى ، فاتخذ سبيله الى البلاد العربية لكى يدرس أحوالها ويعرف اخلاقها وعللها ، ويقف على سر تخلفها عن البلاد المتحضرة ، وقضى فى ذلك زمنا طويلا ــ وقد استفاد من سياحته فى هذه البلاد فوائد جليلة ، نفعته فىحياته أعظم نفع .

وبعد أن تم تمامه للجهاد فى الحياة وتسلح بالاسلحة العلمية والخبرة الاجتماعية عاد الى بلاده ليبدأ فيها عمله وكان من حكمة الله أن يكون أول شىء يزاوله فيها هو الحرب وحمل السلاح ، مما لا يقدم عليه الا أهل الشجاعة والاقدام .

وبعد بضع سنين قضاها فى هذا الصراع الحربى ، أبدى فيها شجاعته الموروثة ، اضطر بفعل خيانة بعض الوطنيين ، وعون المستعمرين لهؤلاء الخائنين ــ الى أن يبارح بلاده مرغما .

وعندما انتقل من بلاده الى بلاد الهند لاحقه هناك الكيد الانجليزى فلم يدعه يستقر بها قليلا حتى أكرهوه على الخروج منها ، فذهب الى تركيا بعد أن ألم بمصر مدة لا تزيد على أربعين يوما ولم يكد يلبث فيها بضعة أشهر حتى اصطدم هناك بلؤم شيخ الاسلام وجموده فخرج بسعاية هذا الشيخ وأمثاله من الجامدين لدى السلطان من الاستانة مرغما ، فانقلب الى مصر ــ وبعد أن قضى فيها من الزمن ما لم يقض مثله فى غيرها ، وغرس ما غرس من بذور الاصلاح فى أرضها ما لم يبذره فى غيرها خافه الانجليز وعملوا على التخلص منه فى مصر كما تخلصوا منه فى بلاده ، وفى بلاد

الهند ـ لانها كانت تطارده دائما فأوعزوا الى صنيعتهم بمصر ـ توفيق الخائن بان ينفيه من البلاد وأوهموه ان جمال الدين يريد أن يجعلها (جمهورية) وانه يضمر له مثل ما اضمر لأبيه (اسماعيل باشا) من قبل واستعان فى القاء الشبه حول السيد بالحاقدين عليه من شيوخ الازهر فجاءه الكيد من ههنا وههنا كما قلنا من قبل ، وما لبث توفيق ان أصدر أمره بنفيه ونكث بعهده الذى كان قبل ذلك قد عاهده على أن يتبع مشورته فى الاصلاح وقال له فى ذلك كلمته المشهورة « انك أنت موضع أملى فى مصر أيها السيد » .

وكان نفيه الى الهند ، وما فعله توفيق الخائن مع السيد جمال الدين فعل مثله خائن آخر هو شاه ايران ناصر الدين ، فانه بعد أن واثقه على أن يستعين به على اصلاح مملكته أخرجه معذبا مطرودا من بلاده .

وفى روسيا امر القيصر باخراجه من البلاد لما آنس منه أنه يحارب بتعاليمه الظلم والاستبداد ، ولم يكن ذنب جمال الدين عنده الا أنه كان ، يسعى فى أن يسود حكم الشورى بين الناس فى كل مكان .

أما السفاك الطاغية عبد الحميد سلطان تركيا ، فلم يدعه يسلم بجسمه بل دبر له مؤامرة دنيئة أودت بحياته بعد أن كان قد عاهده بالوفاء فى كلمته المعروفة وهى :

« انه لا يفرق بينى وبينك الا القضاء »(١)

ولعله كان يقصد قضاءه هو لا قضاء الله ـ وبذلك ترى أن ملوك الشرق وأمراءه وشيوخ الدين وعلماءه ، كل أولئك قد كادوا له وغدروا به ، ونكثوا عهودهم معه ، وكانوا حربا عليه وعلى تعاليمه ، ففى بلاده اضطر الى تركها ، وفى الهند اكره على مغادرتها ، وفى مصر نفى من أرضها ، وفى الاستانة أجبر على مبارحتها ، وفى ايران طرد منها بعد أن عذب فيها وفى روسيا أخرجوه منها ، وفى تركيا صرع مقتولا .

---

(١) كأن هذا الكلام كان فى باطنه وعيدا من هذا السفاك وقد صدق فيما أوعد فان القضاء الذى دبره بفجوره هو الذى فرق بينهما .

هذا كله قد ذاق مرارته ولو انه كان يصانع الحكام فى كل بلد حل به ويسايرهم فى هواهم ، وأول لهم مخازيهم بفتاواه كما كان يفعل معاصروه من شيوخ الدين ، لسلم من ذلك كله ولعاش سعيدا ولكانت أرض بيته من فضة وذهب ، ولذهب بعد ذلك تاريخه فى تراب النسيان ، كما ذهب تاريخ غيره من الخونة والمنافقين ، وقد كان رضى الله عنه تخطر له خواطر مثيرة مؤلمة مما لقيه وما ابتلى به فى حياته وبخاصة ما وجده من خذلان أكثر علماء المسلمين لدعوته كأنه كان يرسلها فى صحراء مقفرة .

واليك طرفا من هذه الخواطر التى أفضى بها الى الأمير شكيب أرسلان عندما قابله بالاستانة فى آخر حياته : « قد فسدت أخلاق المسلمين الى حد لا أمل بأن يصلحوا الا بأن ينشأوا خلقا جديدا وجيلا مستأنفا لم يبق فى الاسلام اخلاق فهذا محمود سامى البارودى رئيس النظار أثناء الحوادث العرابية ، عاهدنى ثم نكث معى (١) وهو أفضل من عرفت من المسلمين .

« ان المسلمين قد سقطت هممهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم وقام شىء واحد فيهم هو شهواتهم »

هكذا كان أمر السيد جمال الدين فى الشرق ، وذاك جزاؤه عندهم ! أما فى الغرب فقد كان ــ وا أسفاه ــ أينما حل فى بلد منه ــ قابله فيها ، قروم السياسة وفحول العلم ــ حتى من أعدائه ــ بالتقدير البالغ ، والاحترام الفائق .

وليت عقوق الشرقيين للسيد جمال الدين قد انتهت بموته ، ومواراة القبر لجثمانه ــ ولكن هذا العقوق قد امتد ــ واأسفاه ــ الى مابعد انتقاله الى جوار ربه ، فقد ظل قبره مهجورا ثلاثين عاما كاملة لا يذكره أحد ولا يفكر فى زيارته انسان ! ولا تجد من أحد من الشرقيين عامة ــ والسادة المسلمين خاصة ! من يسعى الى اقامة ضريح على هذا القبر المهجور يليق بذكرى صاحبه العظيم الذى افنى عمره فى سبيلهم ، وليكون آية على وفائهم له ، ولبث هذا القبر مهملا لا يهتدى اليه أحد الى أن قيض الله له رجلا ، لا شرقيا ولا مسلما ، بل أمريكيا : هو مستر شارلس كراين فأخذ يبحث فى

(١) يشير السيد الى امر نفيه الذى كان بقرار من مجلس النظار . وكان البارودى حينئذ ناظرا للأوقاف واشترك فى هذا القرار .

الأرض وينقب حتى اهتدى الى قبر السيد جمال الدين فى الاستانة وكان ذلك فى سنة ١٩٢٦ فأقام عليه ضريحا فخما من الرخام اتفق عليه عشرات الآلاف من الدولارات من حر ماله ـ وقد كتب على أحد وجهى الضريح اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته وعلى الوجه الآخر هذه العبارة :

« أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين فى أنحاء العالم ، الخير الأمريكى مستر تشارلس كرين سنة ١٩٢٦ (١) » .

وقد ظل جثمان السيد رحمه الله فى هذا الضريح الى أن نقل الى بلاد الافغان فى (كانون الاول) ديسمبر سنة ١٩٤٤ .

وبهذا يكون هذا الرجل الثرى الامريكى قد أدى بصنيعه هذا ـ واأسفا ـ واجبا كان أولى بادائه سراة المسلمين خاصة وكبار الشرقيين عامة .

وكأن الله سبحانه عندما الهم هذا الامريكى الامثل أن يعنى بقبر هذا العظيم ، وان يصنع ما صنع تكريما لذكرى صاحبه انما اراد أن يظل هذا الضريح على وجه الدهر آية مبصرة على غدر الشرقيين بمصلحيهم ، وعدم الوفاء لهم ، ولتسمهم باللعنة المؤبدة ما دام (شاهد) هذا الضريح قائما وتالله لو لن هذا الرجل كان يهوديا وخدم اليهود ببعض ماخدم به السيد جمال الدين بلاد الشرق كافة لاقاموا له فى كل بلد يقيمون فيه تمثالا عظيما ، أو لو أنه كان غربيا لزينت كل ميادين بلاد أوربا بتماثيله ولكن الشرق هو الشرق ، والمسلمون هم المسلمون الذين صدقت فيهم كلمة أحد الزعماء الكبار : انهم يقصمون ظهور من يخدمونهم ، هذا ولعلك لم تنس ما بيناه لك

---

(١) زار الدكتور احمد امين قبر السيد جمال الدين فى سنة ١٩٢٨ ووقف عليه وقال :

« هنا رقد محيى النفوس ، ومحرر العقول ، ومحرك القلوب ، وباعث الشعوب ومزلزل العروش ، ومن كانت السلاطين تغار من عظمته ، وتخشى من لسانه وسطوته ، والدول ذات الجنود والبنود تخاف من حركته ، والممالك الواسعة الحرية تضيق نفسا بحريته ـ هنا خمد من كان يشعل النار حيث كان ، فى الأفغان فى مصر فى فارس فى باريس ، فى لندرة ، فى الاستانة .

هنا باذر بذور الثورة العرابية ، ومؤجج النفوس للثورة الفارسية ، ومحرك العالم الاسلامى كله لمناهضة الحكومات الأجنبية والمطالبة بالاصلاحات الاجتماعية ، هنا من حارب الحكم الاستبدادى فى مصر ، وناصر الدين فى فارس ، وانجلترا فى باريس ، وحارب الجهل والأمية والذلة فى الشرق والجاسوسيه والنفاق فى الاستانة ولم ينتصر عليه شىء الا الموت .

لقد أجللناه وأعظمناه ، والتهبت نفوسنا لذكراه ، فكيف كان محضره ومرآه ، رحمه الله .

من قبل من ان شيوخ الازهر ما يزالون يطاردون آثار الســيد جمال الدين ويستعدون السلطة عليها ويستعينون بها لكى تمنع تداولها .

وانا نختم كتابنا بكلمة جليلة خالدة للاســتاذ الجليل مصطفى عبد الرازق ــ قالها بمناسبة موقف الشرق والمسلمين ازاء قبر السيد جمال الدين واهمالهم اياه حتى اتاه رجل أمريكى فشيده ــ قال رضى الله عنه . « ان استيفاء النظر فى تاريخ السيد جمال الدبن ــ هو كما يقول الاستاذ براون ــ احاطة بتاريخ المسألة الشرقية كلها فى الازمان الحديثة ، يدخل فى ذلك تاريخ الافغان والهند ويدخل فيها بوجه أخص تاريخ تركيا ومصر وايران ــ ــ وفى هذه البلاد الثلاثة الاخيرة لا يزال تأثيره حيا .

واذا كان قبر السيد جمال الدين ظل فى الاستانة مهدما مهجورا حتى جاءه مستر كراين الامريكى فشيده واظهره . فبحسب السيد : ان مبادئه بعد مماته ، وموت الطغيان فى الاستانة قامت حية مشرفة على اطلاله : حسب جمال الدين من عظمة ومجد ، انه فى تاريخ الشرق الحديث ، اول داع الى الحرية وأول شهيد فى سبيل الحرية .

هذا آخر ما استطعنا ان نكتبه فى تاريخ المصلح الأكبر السيد جمال الدين الافغانى ، وفى النية ــ ان شاء الله ــ أن نتبع ذلك بتاريخ خليفتــه الأكبر فى العلم والاصلاح أستاذنا الامام محمد عبده ، لان هذا التاريــخ موصول بتاريخ السيد جمال الدين ، بل هو امتداد له وتمام عليه . فندعوه تعالى أن يؤيدنا بتوفيقه ، ويمدنا بعونه ، حتى تؤدى بعض ما يجب علينا من حتى لأساتذتنا قادة الفكر المجاهدين ، وحكماء الاسلام المصلحين .

تم بحمد الله

فهرس الكتاب

الموضوع	صفحة

